تصوير ابو عبد الرحمن الكردي

من كنوز القرآن ٧

مع قصص السّابقين في القرآن
(٣)

دُرُوسٌ في الإيمانِ، والدّعوةِ، والجهادِ

الدكتور
صلاح عبد الفتاح الخالدي

دار القلم
دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

مِنْ كنوز القرآن
٧

مع قصص السّابقين في القرآن

(٣)

دُرُوسٌ في الإيمانِ ، والدّعوةِ ، والجهادِ

الدّكتور
صلاح عبد الفتّاح الخالدي

دار القلم
دمشق

الطبعة الأولى
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

حقوق الطبع محفوظة

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١

المقـــدّمَة

إنّ الحمـد لله، نحمده ونستعينـه ونستهـديـه، ونعـوذ بـاللَّهِ من شـرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا. من يهد الله فلا مُضـلَّ له، ومن يُضلل فـلا هادي لـه. وأشهد أن لا إلـه إلّا الله، وحده لَا شـريك لـه، وأشهد أن محمـداً عبده ورسوله، ﷺ.

أمَّا بعد:

فهذا هو القسم الثالث من «قصص السابقين في القرآن».

وقـد سبقـه قسمـان: خصَّصْنـا الأول منهمـا للحـديث عن أهم قصص بني إسرائيل. وخصَّصْنا الثاني للحديث عن قصص سورة الكهف.

وقد تكلَّمنا في بداية القسم الأول عن المنهج الصحيـح الصائب المأمون للنظر في قصص السابقين، وأوردْنا ملامحَ ذلك المنهج وسماتِه، والأدلةَ عليـه من آيات القرآن، وما صحّ من أحاديث رسول الله ﷺ، وفهم الصحابة والعلماء المحققين له. ودعَوْنـا مُتدبـري القرآن والنـاظرين فيـه، والكاتبين حـول علومه ومعارفه ومعانيه وتفسيره، إلى الالتزام بذلك المنهج. وحرِصْنا على الالتزام به فيما أوردْناه عن قصص السابقين في دراساتنا الثلاثة، ونرجو أن نكون قد وفِّقْنَا في الالتزام به.

ونحيل على ذلك التمهيد في القسم الأول، ونعتبره تمهيداً لِهذا القسم أيضاً.

لكننا نورد هنا، ما أوردْناه في مقدمة القسم الأول ــ ومقدمة القسم الثاني أيضاً ــ من أمور حرصْنا عليها أثناء نظرنا في قصص السابقين، وهَدَفْنا إلى تحقيقها من هذه الدراسات:

١ ــ البقاءُ في جو النص القرآني في عرْضه لتلك القصص، وعدمُ الخروج عنه إلَّا إلى الأحاديث النبوية الصحيحة. والاكتفاءُ بما ورد في هذيْن المصدريْن اليقينيْين.

٢ ــ الحرص على عدم قبول أيِّ خبرٍ أو تفصيلٍ من الإسرائيليات، وغيرها من الروايات والأخبار الخرافية والأسطورية. ورفْضُ أي قول أو بيان لأي إنسان مهما كان، ما لم يعتمد في قوله وبيانه على القرآن الصريح أو الحديث الصحيح.

٣ ــ الالتفات إلى الأبعاد الواقعية لتلك القصص، والإشارةُ إلى انطباق بعض لقطاتها ومشاهدها ونماذجها على الواقع العاصر الذي نعيشه. وانطباقِ هذا البعد الواقعي العمليّ الحيّ، على ما يؤخذ من تلك القصص من دروس ودلالات.

٤ ــ الاعتقاد بأن تلك القصص تُعْتبر كنوزاً مذخورة، تحوي الكثير من الدروس والعبر، والحقائق والمبادىء، والنظرات واللفتات. وأن ما تحويه من ذلك مُنوَّع وشامل: منه الإيماني، والدعوي، والأخلاقي، والتعليمي، والسياسي، والاقتصادي، والعسكري والجهادي، والحضاري، والإنساني. وغير ذلك.

٥ ــ التركيز على الدروس الإيمانية والدعوية والجهادية والسُّنَنِيَّة،

المُستخْرَجَة من تلك القصص. باعتبارها أهم ما يحتاجه الدعاة والمصلحون والمربّون في هذا الزمان.

والقصص التي تناولْناها في هذا القسم ثمانية:

١ ـ قصة هاروت وماروت. في سورة البقرة.

٢ ـ قصة الذي مرَّ على قرية. في سورة البقرة أيضاً.

٣ ـ قصة ابني آدم. في سورة المائدة.

٤ ـ قصة الذي انسلخ من آيات الله. في سورة الأعراف.

٥ ـ قصة لقمان. في سورة لقمان.

٦ ـ قصة قوم سبأ. في سورة سبأ.

٧ ـ قصة أصحاب القرية. في سورة يٰسن.

٨ ـ قصة أصحاب الأخدود. في سورة البروج.

وأُكرر هنا ما قلته من قبل، بأنني لم أدَّع استقصاء الدروس والدلالات المُستخرَجة من تلك القصص، لأنني عاجز عن ذلك الاستقصاء، وما عِلْمُنا نحن البشر إلاَّ قليل قليل. لا يكاد يُعْتَبَر نقطة من ماء البحر أو المحيط، كما قال الخضر لموسى ـ عليه السلام ـ أثناء رحلتهما العلمية، حيث جاء عصفور فوقف على حرْف السفينة، وأخذ نقطة من ماء البحر بمنقاره، وهما ينظران إليه، فقال الخضر: كم أخذ العصفور من ماء البحر؟

فأجابه موسى عليه السلام: نقطة ماء!

فقال له: ما علمي وعلمك وعلم الآخرين بالقياس إلى علم الله إلّا كمثل ما أخذ العصفور من ماء البحر!!

وصدق من قال:

قُلْ لِمَنْ يَدَّعي في العِلْمِ مَعْرِفَةً حَفِظْتَ شَيْئاً وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ

لقد فاتني الكثير من دروس تلك القصص ودلالاتها، نتيجةَ عجزي وتقصيري، ولذلك أدعو أهل القرآن ومتدبِّريه ومُفسِّريه وناشري علومه ومعانيه، إلى ملاحظة ما لم أُلاحظه، والوقوف على ما لم أقف عليه.

كذلك لا أدَّعي الصواب والصحة في كل ما قدمْتُ وقلت، لأن العصمة لا تكون لأحد من البشر إلَّا للأنبياء الكرام، وإن الضعفَ والعجزَ والخطأَ من لوازم وضْعِنَا البشري وعلمِنا البشري وعمَلِنا البشري. وحَسْبِي في ما قد يكون في عملي من خطأ أَنَّهُ غَيرُ متعمَّد ولا مقصود، وأنني حاولت فاجتهدت.

وبهذا القسم الثالث نكْمل ما قدَّره الله لنا من الكلام عن قصص السابقين في القرآن.

وبهذا نكون قد أصدرْنا سبعَ حلقات في سلسلة «من كنوز القرآن» والحمد لله أوّلاً وأخيراً، الحمد لله على فضله وإِحسانه وإنعامه وتوفيقه. ونرجو الله أن يجعل أعمالَنا خالصة لوجهه الكريم، وأن يجعلها في الميزان يوم القيامة.

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي، وسلَّمَ تَسليماً كثيراً.

صلاح عبد الفتّاح الخالدي

الجمعة ٢٦ شوال ١٤٠٨هـ.
١٠ حزيران ١٩٨٨م.

١

قِصّةُ هَارُوتَ وَمَارُوتَ

قِصَّة هَارُوت وَمَارُوت

القصة في السياق القرآني :

قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ

وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ

فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ

وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾

وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة : آيات ١٠١ ــ ١٠٣ .

معاني الكلمات الغريبة :

مصدِّق لما معهم : ما جاء به الرسول عليه السلام مصدّق لما في التوراة، ومقرٍّر له.

نبَذ : طرح وألقى.

كتاب الله : المراد بِهِ هنا التوراة.

تتلو الشياطين : تَقرأ وتُخْبر كذباً وباطلاً.

على ملك سليمان : في فترة ملكه وحكمه.

وما أنـزل عـلى الملكين : ما هنا إسم موصول بمعنى الذي والواو قبلها حرف عطف.

بابل : مدينة أثرية في العراق، كانت مركز حضارة البابليين.

هاروت وماروت : إسمان للمَلَكَيْن اللَّذَيْن كانا ببابل.

نحن فتنة : نحن اختبار وامتحان وابتلاء.

المرء وزوجه : الرجل وامرأته.

من خلاق : من حظ ونصيب.

شروا به أنفسهم : باعوا به أنفسهم.

مثوبة : ثواب.

إسرائيليات حول القصة :

أورد الإخباريون رواياتٍ إسرائيلية حول قصة «هاروت وماروت». واطَّلع مفسرون على تلك الروايات، وراقت لهم، وأوردوها في تفاسيرهم، وفسَّروا بها كلام الله سبحانه.

وخلاصةُ تلك الروايات الباطلة:

إن الملائكة اعترضتْ على كوْن الإنسان خليفةً في الأرض! وعلى تفضيل الله للإنسان المؤمن على الملائكة! فبيَّن لهم الله أن الإنسان المؤمن مفضَّل، لأنه جُعلت فيه شهوة وميل للمعصية، ولكنه يجاهد نفسه، ويأخذها بالشدة حتى تستقيم على طاعة الله.

فقالوا: لو جعلْتَ في نفوسنا شهوةً لما عملنا العاصي.

واختاروا مَلَكَيْن منهما، ليجريَ عليهما الإمتحان، وهما «هاروت وماروت».

فجعل الله بهما الشهوة، وأنزلهما إلى الأرض، ونهاهما عن ارتكاب الفواحش والمعاصي.

ونزلا في مدينة «بابل»، وعبدا الله ما شاء لهما.

وشاهدا في بابل امرأة جميلة جداً، من أجمل النساء، فوقعتْ في نفس كل منهما، واشتهاها.

وراوداها عن نفسها، فلم تستجب أول الأمر، وخيَّرَتْهما بين عبادة الصنم أَو قتْل الصَّبيّ أو شرب الخمر، قبل أن تُمْكِّنهما من نفسها.

فقالا: عبادة الصنم كفر، وقتل الصبي جريمة كبيرة، أمَّا شرب الخمر فهو ذنب صغير! فاختارا شُرب الخمر. ولما شربا الخمر سكرا، فقتلا الصبي، وعَبَدَا الصنم، ثم ارتكبا الفاحشة ووقعا عليها.

فأخذت منهما اسمَ الله الأعظم، الذي كانا يصعدان به إلى السماء، وطارت صاعدةً إلى السماء.

فمسخها الله في الجو، وبقيت نجماً مضيئاً، هو كوكب «الزهرة» أحد الكواكب السيارة، أعضاء المجموعة الشمسية!

أمـا هاروت ومـاروت، فـإن الله قـد غضب عليهمـا بعـدمـا ارتكبـا من ذنوب، وخيَّرهما بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذابَ الدنيـا لأنها زائلة، على أمل نجاتهما يوم القيامة.

فتمَّ تعليقُهما من رأسيْهِما في سمـاء «بابـل» بين السماء والأرض، فهمـا معلَّقان هناك منذ ذلك التاريـخ، وحتى قيام الساعة.

وما زالا في بابل يعلِّمان النـاس السحر، رغـم تعـذيبهما وتعليقهمـا في السماء، فكل من رغب في تعليم السحـر وممارستـه يذهب إليهمـا في بابـل، ويتعلم منهما!![1].

العلماء المحققون يردون تلك الإسرائيليات:

قلنــا إن تلك القصــة عن معصيــة الملَكيْن هــاروت ومــاروت مـن الإسرائيليات، ولم يُنقل شيء منها بسند صحيـح عن رسول الله ﷺ.

وقد ردَّ العلماء المحققـون تلك القصة ورفضـوها، وأبـطلوها من نـاحية السند، ومن ناحية المعنى.

قـال الإمام ابن كثيـر بعد إيـراده تلك الـروايـات: «وقـد رُوي في قصـة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين، كمجاهد والسُّدّي والحسن البصـري وقتـادة وأبـي العاليـة والزهـري والربيـع بن أنس ومقـاتـل بن حيـان وغيـرهم، وقصَّها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين.

وحـاصلُها راجِـع في تفصيلها إلى أخبـار بني إسـرائيـل، إذْ ليس فيهـا حديثٌ مرفوع صحيـح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم، الذي

---

(١) انـظر تفسير الـطبـري بتحقيق شـاكـر ٢: ٤٢٧ ــ ٤٣٥. والــدر المنثــور للسيــوطي ١: ٢٣٨ ــ ٢٤٩ وتفسير ابن كثير ١: ١٣٨ ــ ١٤٢. ومسنـد أحمد بتحقيق أحمد شاكـر ٩: ٢٩ ــ ٣٤ حديث رقم: ٦١٧٨.

لا ينطق عن الهوى. وظاهرُ سياق القرآن إجمالُ القصة من غير بَسْط ولا إطناب، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن، على ما أراده الله تعالى، والله أعلم بحقيقة الحال»(١).

وفي كتابه «البداية والنهاية» في التاريخ، أورد الإمام ابن كثير خلاصة الإسرائيليات في قصة هاروت وماروت. ثم علق عليها قائلاً:

«وأما ما يذكره كثير من المفسرين في قصة هاروت وماروت، من أن الزهرة كانت امرأة فراوداها على نفسها، فأبت إلَّا أن يُعلِّماها الاسم الأعظم، فعلَّماها، فقالتْه، فرُفعت كوكباً إلى السماء، فهذا أظنه من وضْع الإسرائيليين. وإن كان قد أخرجه كعب الأحبار، وتلقاه عنه طائفة من السلف، فذكروه على سبيل الحكاية، والتحديث عن بني إسرائيل»(٢).

وبعد أن أورد روايات عنها قال: «وإذا أحسنّا الظن، قلنا هذا من أخبار بني إسرائيل، كما تقدم من رواية ابن عمر عن كعب الأحبار، ويكون من خرافاتهم التي لا يُعوَّل عليها»(٣).

أما الإمام المحقق أحمد محمد شاكر، فقد تكلّم عن تلك الإسرائيليات في ثلاثة مواضع:

الموضع الأول: في تعليقه على الروايات الكثيرة التي أوردها الإمام الطبري، حيث قال: «وهذه الأخبار في قصة هاروت وماروت، وأنها كانت امرأة فَمُسِخت كوكباً، أخبارٌ أَعَلَّها أهلُ العلم بالحديث»(٤).

ثم ذكر كلام ابن كثير في تفسيره وتاريخه ـ وقد أوردناه ـ .

(١) تفسير ابن كثير ١ : ١٤١ .
(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١ : ٣٧ .
(٣) المرجع السابق ١ : ٣٨ .
(٤) تفسير الطبري بتحقيق شاكر ٢ : ٤٣٤ حاشية .

الموضوع الثاني: في اختصاره تفسير ابن كثير، الذي أسماه «عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير» حيث كان يعلق على أسانيد الروايات التي أوردها ابن كثير بشأن القصة.

علق على إسناد رواية ذكرها ابن كثير نقلاً عن ابن أبي حاتم بقوله: «إسناده الذي نقله ابن كثير ـ وحذفناه ـ صحيح. وهذا موقوف من كلام ابن عبّاس. ونحن نقف فيه، فلا نقول شيئاً. وقد أطال ابن كثير في نقل أخبار هذا المعنى، رحمه الله وإيانا، وغفر لنا وله»[1].

وأشار شاكر إلى سبب إيراده تلك الإسرائيليات الباطلة في «عمدة التفسير» فقال: «وكنتُ على أن أحذف هذا الحديث أيضاً من هذا الكتاب «عمدة التفسير» ـ على ما شرطتُ في المقدمة ـ ولكني رأيت أن معناه يدور على ألسنة الناس، وتجري به أقلامُهم، وأنه يجب البيان، فعملتُ الذي هو خير، ثم نفيتُ سائر الروايات التي أطال ابن كثير بذكرها، وإنْ لم يُقصِّر في الكشف عن عوارها. رحمه الله»[2].

الموضوع الثالث: في شرحه وتحقيقه لمسند الإمام أحمد بن حنبل، لأن الإمام أحمد أورد بسنده حديثاً مرفوعاً عن ابن عمر رضي الله عنهما، وهو الذي جعل بعضهم يظنه صحيحاً.

فتكلم أحمد شاكر طويلاً عن الحديث ـ وهو حديث رقم ٦١٧٨ ـ من جهة السند، حيث بيَّن مطاعن العلماء على رجال السند، والأسانيد الأخرى المشابهة. كما تكلم عن الحديث من جهة المعنى وغرابتِه ونكارتِه.

---

(١) عمدة التفسير ١: ١٩٢ حاشية.
(٢) المرجع السابق ١: ١٩٧ حاشية.

وأورد كلام علماءٍ محققين في ضعف الحديث ونكارتـه، وفي كونـه من الإسرائيليات، منهم ابن كثير، ومحمد رشيد رضا.

وختم كلامه على الحديث بقوله: «وكل هذا يرجِّح ما رجحـه ابن كثير: إن الحـديث من قصص كعب الأحبـار الإسـرائيليـة، وأنـه ليس مـرفـوعـاً إلى النبـي ﷺ، وأنَّ من رفعه فقد أخـطأ ووهِم، وأَنَّ الذين رووه من قصص كعب الأحبـار أحفظ وأوثق ممن رووه مـرفـوعـاً، وهـو تعـليـل دقيـق من إمـام حافظ جليل»(١).

أما الأستاذ الإمام سيد قطب فيقول عن قصـة هاروت ومـاروت: «أما من هما الملكان هاروت وماروت؟ ومتى كانا ببابل؟ فإن قصتهما كانت متعارَفَة بين اليهود، بدليل أنهم لم يكذِّبوا هذه الإشـارة، ولم يعترضـوا عليها. وقـد وردت في القـرآن الكريم إشـاراتٌ مجملة لبعض الأحداث التي كـانت معروفـة عنـد المخاطَبين بها، وكان في ذلك الإجمـال كفايـةٌ لأداء الغرض، ولم يكن هنـاك ما يدعو إلى تفصيل أكثر، لأن هذا التفصيل ليس هو المقصود.

ولا أحب أن نجري نحن ــ في ظلال القرآن ــ خلف الأساطير الكثيرة، التي وردتْ حـول قصـة الملكين، فليست هنـالـك روايـة واحـدة محقّقـة يوثَقُ بها»(٢).

ما هي قصتهما إذن؟:

لا نجـدُ في الأحاديث الصحيحـة بيـانـاً عن قصـة هـاروت ومـاروت، ولا كلاماً عن مهمتهما في بابل.

---

(١) مسنـد أحمد بتحقيق أحمـد شاكـر ٩:٣٢ حـاشيـة. وانـظر الكـلام كـامـلاً في: ٢٩ ــ ٣٣ حاشية.

(٢) الظلال ١:٩٧.

وإذا كنا نريد أن نعرف قصتهما، فلا بدَّ أن نقف عند بيان القرآن لهـا، وأن نأخذ عنه ما يوضحه لنا منها.

يشير القرآن إلى أن الله سبحانه اختار ملَكيْن من ملائكته، اسم أحدهمـا «هـاروت» واسم الآخر «مـاروت»، وأهبطهمـا في مدينـة «بابـل» وهي مـدينـة معروفة في العراق، كانت عاصمة الحضارة البابلية القديمة، وكان من ملوكهـا «حَمورابـي» و«نَبوخَذْ نَصَّرْ».

ولا ندري لماذا أُنزلا إلى بابل؟، ولا متى تم ذلك النزول؟.

ويبـدو أن لمهمتهما في بـابل صلةً بـالسحر، ومعـروف أن السحـر كـان منتشـراً في بابـل، ولعلَّه انتشر فيهـا على أيدي اليهـود، الذين سَبـاهم الملكُ البـابلي «نبوخـذ نصر» إلَيهـا، بعدمـا دمَّر مملكتهم في فلسـطين، ومعروف أن السحـر مرتبطٌ بـاليهود ارتبـاطاً مبـاشراً، وأنهم أكثـر الأمم والشعوب ممـارسـةً ونشراً له.

ويبـدو أن هؤلاء اليهـود ـ أو غيـرهم ـ أفـزعـوا الآخـرين وأرهبـوهم بالسحر، ورسموا حـول السحر «هالـةً» ضخمةً، وأوهمـوهم أن السـاحـر يقدِرْ على الضـرر والنفـع، ويملك كـل شـيء، فـأخضـعـوا الآخـرين لـهم، واسترهبوهم واستغفلوهم.

فكانت مهمةُ هاروتَ وماروتَ في بابل متعلقةً بالسحر والسحرة، وإزالـة ما علق في نفوس الناس من هلعٍ وفزعٍ بسببه. فكانا يُعلِّمـان الناس في بـابل السحـر، ويكشفان لهم حقيقتـه، ويُقدمـان لهم المبـادىءَ والأْسسَ التي يقـوم عليها، ويُزيلان «الهالة» الضخمة المرسومة حوله.

وكـأنهما يقـولان لهم: إن السحـر يمكن أن يتعلمـه الإنسـان وإنـه ليس ألغازاً وطلاسم، بـل هو مثْـلُ أَي علم من العلوم، يحصل بـالتعليم والكسب، وإن الساحر لا يضر شخصاً ولا ينفع آخر، إلَّا بإذن الله.

ولكنهما كانا يُعلِّمان السحر لكشف حقيقته وتحذير الناس منه، لا ليتعلموه ويمارسوه ويعملوا به، ولهذا كانا لا يُعلِّمان من أحد حتى يقولا: إنما نحن فتنة، فلا تكفر. أي فلا تعمل بالسحر ولا تمارسه.

وانتهت مهمةُ الملَكين ببابل «هاروت وماروت». وصعدا إلى السماء ملكيْن كريميْن، كما نزلا منها ملكيْن كريميْن.

ولكن أهلَ بابل لم يأخذا بنصيحة الملكين الكريمين، بل استغلوا تعليمَهما السحر لهم في الشر والفساد، وصاروا يمارسون السحر مع الآخرين، ويفرقون به بين المرء وزوجته.

وقد ذمَّهم الله بذلك التصرف الضال: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ. وَلَقَدْ عَلِموا لَمَن اشْتَرَاهُ مالَهُ في الآخِرَةِ مِنْ خَلاق، وَلَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

اليهود يتركون الحق إلى الباطل:

وردتْ قصةُ هاروت وماروت في سياق الحديث عن اليهود، وكشْفِ تصرفاتهم وممارساتهم ومكائدهم ضدَّ الإسلام والمسلمين.

فماذا قالت الآيات عن أولئك اليهود؟.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ، نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتوا الكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمون. واتَّبَعُوا ما تَتْلو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَان﴾.

اليهود ضالون يكذبون بالحق وبالذي جاء به، وذلك الكفر والتكذيب منهم موقف أصيل ثابت، وقرار جاهز نافذ، فما أن يأتيهم الحق حتى يكفروا به، وما أن يأتيهم الرسول بالحق حتى يكذبوا به. وهذا هو ما توحي به كلمة «لَمّا» التي تدل على الموقف المسبق والحكم الجاهز.

إن الـرسول عليـه الصلاة والسـلام، مصـدِّق لمـا مـع اليهـود، والقـرآن مصدِّق لما في التوراة، كيف لا والقرآن كلام الله، والتوراة أيضاً كلام الله.

وتأكد اليهـود من أن محمداً ــ عليـه الصلاة والسـلام ــ هو رسـول الله، فماذا فعلوا؟ هل آمنوا به واتبعوه؟.

كلا. لقد نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمـون. تركـوا كتاب الله وألقوه، وكأنهم طرحوه وراء ظهورهم.

وكتاب الله الذي نبذوه في قوله تعالى ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتوا الْكِتَابَ كِتَـابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ ليس هُوَ القُرآن، ولكنه التوراة، التي يـزعم اليهود إيمـانهم بها. نبـذوها عنـدما كفـروا بما بشـرت به التوراة، وهم بذلـك عـطّلوا نصـوص التوراة المبشِّـرة بالنبـي، وتعطيلُها كفرٌ بها، وكفرُهم بتلك النصـوص هو كفر بالتوراة كلها، وهذا هو النبذ والترك والإهمال والإلقاء.

وبذلك التصرف اليهودي الحـاقد، نـرى أنهم قد تـركوا الحق، وكفـروا به، وكذّبوا صاحبه.

ثم ماذا بعد؟ ماذا فعل اليهود بعد نبذ كتاب الله والكفر بالحق؟.

لقد اتبعوا البـاطل «وَاتَّبَعـوا ما تَتْلوا الشَّيـاطينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمان». إنهـا تجارة خاسـرة، وصفقة بـائرة، تلك التي قـام بها اليهـود. تركـوا الحق واتبعوا البـاطـل، كفــروا بـالــرسـول وآمنــوا بـالشيــاطين، وصـدقــوا بـأخبــارهم وأقاويلهم وأكاذيبهم.

إنهما طريقتان لا ثالث لهما: إما طريق الحق وإما طـريق البـاطـل، وكل من لم يكن في طـريق الحق، فهـو حتمـاً في طـريق البـاطل، وكــل من تـرك الهدى، فهو بالضرورة مُتَّبـع للضلال «فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إلَّا الضَّلال؟».

وهذه حقيقة قرآنية قاطعة، والواقع البشري هو مصداقها الواقعي العملي الحي، كم رأينا أناساً يُجانبون طريق الحق ويتخلون عنها، فإذا بهم يسيرون في طريق الباطل والضلال.

الشياطين والسحر وسليمان عليه السلام:

أشارت الآية إلى افتراءات الشياطين وأكاذيبهم، حيث نسبوا السحر إلى سليمان عليه السلام: ﴿واتَّبَعُوا ما تَتْلوا الشَّياطينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمان﴾.

وَكَذَّبَت الآية الشياطين، ونزَّهت سليمان من السحر: ﴿ومَا كَفَرَ سُلَيْمَان، وَلَكِنَّ الشَّياطينَ كَفَروا، يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحر﴾.

وَأورد الإِخْباريون رواياتٍ عن أكاذيب الشَّياطين، وافترضوا افتراضاتٍ حول صِلَتهم بسليمان عليه السلام:

فقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: كان «آصِفْ» كاتب سليمان، وكان يعلم الاسم الأعظم، وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان، ويدفنه تحت كرسيه، فلما مات سليمان عليه السلام، أخرجته الشياطين، فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكفراً، وقالوا: هذا الذي كان سليمان يعمل به فأكفره جُهّال الناس، وسبّوه، ووقف علماؤهم، فلم يزل جهالهم يسبونه، حتى نزلت الآية فبرَّأَتْه.

تعقيب على رواية ابن عباس:

وقد أورد الإمام ابن كثير هذه هذه الرواية عن ابن عباس(١).

وإذا نظرنا في هذه الرواية، فإننا لا نراها مُسْنَدَة إلى رسول الله ﷺ، لأن ابن عبّاس لم يرفعها إلى الرسول عليه السلام، ولذلك فهي موقوفة على ابن عباس رضي الله عنهما.

(١) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ١ : ١٩٢.

وكلام ابن عباس فيها إنما هو عن أحداث سابقة، وتلك الأحداث أصبحتْ من غيب الماضي، ومعلوم أن غيب الماضي لا نأخذه إلاَّ من كتاب الله، وما صحّ من حديث رسول الله ﷺ، ولا نقبل كلام أي إنسان عن ذلك الغيب إلاَّ إذا بيَّن دليلَه، المعتمِد على كتاب الله، أو حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام.

وبما أن كلام ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ السابق، لم يَعتمد على هذا، فنحن مضطرون إلى عدم قبوله، بل إلى التوقف فيه.

وقد علَّق المحقق أحمد شاكر في «عمدة التفسير» على الرواية السابقة: «إسناده الذي نقله ابن كثير ـ وحذفناه ـ إسناد صحيح. وهذا موقوف من كلام ابن عباس. ونحن نقف فيه فلا نقول شيئاً. وقد أطال ابن كثير في نقل أخبار في هذا المعنى. رحمه الله وإيانا، وغفر لنا وله»(١).

من هم الشياطين؟

وهناك ارتباطٌ وثيق بين السحر والشياطين، لأن السحر وسيلة من وسائل الشياطين في استهواء الناس وإغوائهم، وقيادِهم والتأثير فيهم.

والشياطين هنا كلمة عامة، تنطبق على صنفين منهم:

الصنف الأول: وهو الذي تنصرف إليه كلمة «شياطين» عند إطلاقها، وهذا الصنف هو شياطين الجن، الذين لا نراهم، ولكنهم يوسوسون لنا ويزينون لنا المعاصي والكفر والانحراف.

الصنف الثاني: وهو شياطين الإنس من البشر، وهم الكافرون الذين

(١) المرجع السابق: ١:١٩٢ حاشية.

يستعين بهم شياطين الجن، وأبرزُ مَنْ يمثل هذا الصنف هم اليهود، الذين هم أكثر الناس سحراً وكفراً وشيطنةً وإغواء.

مَنْ هم الشياطين الذين أكثروا من تلاوة السحر ونسبته إلى سليمان؟ من هم أكثر الشياطين تلاوة لذلك السحر؟.

إنهم اليهود!.

يتلون على ملك سليمان لأنه كان نبياً لهم، وملكاً عليهم. ولأنه حَكَمَ الجن والشياطين أيضاً.

ولأنهم هم المستفيدون من رواية تلك الأكاذيب، ونَشْرها بين الناس، حتى يسترهبوا الناس ويُغْووهم ويُخضِعوهم لهم.

معنى «تتلو الشياطين على ملك سليمان»:

اختلف المفسرون في معنى كلمة «تتلو». وقد ذكر الإمام ابن جرير في تفسيره أهم معانيها المحتَمَلة.

قال بعضهم: تتلو معناها تحدِّث وتَروي، وتتكلم به وتُخبر، نحو «تلاوة الرجل للقرآن» وهي قراءته.

وقال آخرون: ما تتلو: ما تَتْبعَه وتَرويه وتعمل به.

وعندما أراد ابن جرير التوضيح، جمع بين المعنيين، واعتبر الكلمة دالةً عليهما معاً.

قال: «هو يتلو كذا» في كلام العرب معنيان:

أحدهما: الاتِّباع، يقال: تلوتُ فلاناً: إذا مشيتُ خلفه، وتَبِعْتُ أثره.

والآخر: القراءة والدراسة، تقول: فلان يتلو القرآن، بمعنى أنه يقرؤه ويدرسه.

وقد يجوز أن تكون الشياطين تلتْ ذلك دراسة ورواية وعملاً، فتكون متَّبعتَه بالعمل، ودَارِسَتَه بالرواية، فاتبعت اليهود منهاجها في ذلك، وعملتْ به، وروتْه[1].

الشياطين تَروي وتُخبر وتُحدث الأكاذيب على ملك سليمان.

واليهود يتَّبعون ما تتلوه الشياطين، ويعملون به، وينقلونه للآخرين، ويتلونه هم بدورهم للآخرين.

أما قوله «على ملك سليمان» فإن حرف الجر «على» بمعنى «في» عند الإمام الطبري، قال: «على ملك سليمان» في ملك سليمان، وذلك أن العرب تضع «في» موضع «على»، و«على» في موضع «في» من ذلك قوله تعالى: ﴿ولَأُصَلِّبَنَّكُمْ في جُذوعِ النَّخْلِ﴾[2] يعني به: على جذوع النخل، وكما قالوا: فعلتُ كذا في عهد كذا، وعلى عهد كذا، بمعنى واحد»[3].

وعندما تكون «على» بمعنى «في» يكون معنى الآية: إن الشياطين كانت تتحدث بالكذب وترويه وتخبر به، في فترة ملك سليمان، عندما كان حاكماً على بني إسرائيل، أي كانت تفعل ذلك في حياة سليمان عليه السلام.

أما عند الإمام ابن كثير فإن معنى «تتلو» تكذب، و«على» على ظاهرها: «ما تتلو الشياطين: أي ما ترويه وتخبر به وتُحدِّثه الشياطين على ملك سليمان، وعدّاه بـ«على» لأنه ضَمَّن «تتلو» تكذب، وقال ابن جرير: «على» ههنا بمعنى «في» أي: تتلو في ملك سليمان. والتضمين أحسن وأولى»[4].

---

(١) أنظر تفسير الطبري ٢: ٤٠٩.
(٢) سورة طه: آية ٧١.
(٣) تفسير الطبري ٢: ٤١١ ــ ٤١٢.
(٤) عمدة التفسير ١: ١٩٣.

السحر كفر والساحر كافر:

حاربت الآية السحر والساحرين، وحارب هاروت وماروت السحر والساحرين.

وعند إمعان النظر في الآية، فإننا نجدها تعتبر السحر كفراً، وتعتبر الساحر كافراً، والأدلة على ذلك من الآية هي:

١ ــ نفيُها للسحر عن سليمان بهذه العبارة: «وما كفر سليمان» أي إن سليمان لم يكن ساحراً، ولم يكن يتعامل بالسحر.

إن الآية عندما نفت السحر عن سليمان، نفت عنه الكفر، وهذا يدل على التلازم بين السحر والكفر، والارتباط الوثيق بينهما.

٢ ــ إثبات الكفر للشياطين حالة تعليمهم السحر للناس: «ولكن الشياطين كفروا يُعَلِّمون الناس السحر». إن الشياطين قد كفروا لأنهم علَّموا الناس السحر، أي كفروا عندما مارسوا السحر وعملوا به وعلَّموه للآخرين.

وموقع جملة «يعلمون الناس السحر» في محل نصب على الحال، لأنها جملة حالية، أي كفر الشياطين حالة تعليمهم الناس السحر.

٣ ــ تحذيرُ الملكين هاروت وماروت للناس من ممارسة السحر والعمل به، ورد بهذه الصيغة: «وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُر».

ومعلوم أن اختيار الكلمات مقصود في القرآن. حيث يوحي هذا الاختيار بما يوحي به.

قالا: إنما نحن فتنة واختبار، وابتلاءٌ وامتحان، فلا تعمل بالسحر، لا تكفر، لم يقولا له: لا تَسْحَر، بل قالا: لا تكفر، وما هذا إلَّا للتلازم والارتباط بين السحر والكفر.

وهذا من لطائف الاستدلالات القرآنية:

فعندما أراد القرآن نفي السحر عن سليمان، نفى عنه الكفر.

وعندما أراد الملكان نهي الناس عن ممارسة السحر نهياهم عن الكفر.

٤ ـ الرسول عليه الصلاة والسلام يَعْتبر السحر كفراً، ويَعتبر مَنْ صدَّق العراف والكاهن كافراً.

قال ابن حجر في فتح الباري: «وورد في ذم الكهانة ما أخرجه أصحاب السنن وصححه الحاكم من حديث أبي هريرة رَفَعَه: «مَنْ أتى كاهناً أو عرَّافاً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد».

وله شاهد من حديث جابر وعمران بن حصين، أخرجهما البزار بسندَيْن جيدَيْن...

وأخرجه أبو يعلى من حديث ابن مسعود بسند جيد، لكن لم يصرح برفعه، ومثله لا يُقال بالرأي..»[1].

هل «ما» نافية أو موصولة؟:

وقف المفسرون طويلاً أمام قوله: «وَما أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبابِلَ هاروتَ ومَاروتَ».

فقد اتفقوا على أن الواو في «وما أنزل» عاطفة، وأن هذه الجملة معطوفة على ما سبق.

لكنهم اختلفوا في الجملة التي عُطفت عليها.

ومنشأ اختلافهم في المعطوف عليه، هو اختلافُهم في «ما» هل هي حرف نفي، أو اسم موصول بمعنى الذي؟.

(١) فتح الباري لابن حجر ٧: ٢١٧.

سنقف مع الإمام ابن جرير الطبري في اختياره وترجيحه، ومع الإمام ابن كثير في التعقيب عليه. ونرجح القول المناسب إن شاء الله.

القول الأول: أن «ما» معناها الجَحد والنفي، فهي حرفُ نفي، بمعنى «لَمْ» وهذا القول منسوب إلى الإمام ابن عباس.

وقد وضَّحَ الطبري هذا الرأي بقوله: «فتأويل الآية ـ على هذا المعنى ـ واتبعوا الذي تتلو الشياطين على ملك سليمان من السحر، وما كفر سليمان، ولا أنزل الله السحر على الملَكين ـ ولكن الشياطين كفروا، يُعلِّمون الناس السحر ـ ببابل هاروت وماروت.

فيكون حينئذ قوله «ببابل هاروت وماروت» من المؤخَّر الذي معناه التقديم»[1].

وعلى هذا القول يكون المراد بالمَلَكين: جبريل وميكائيل.

ويكون «هاروت وماروت» اسمين لرجلين من الشياطين، ويعلمان الناس السحر ببابل[2].

وعلى هذا القول تكون معطوفة على قوله «ما كفر سليمان».

أي أن القرآن نفى كفرَ سليمان، ونفى إنزالَ السحر على الملكين ببابل، ولكن الشياطين كذبتْ ونسبتْ السحرَ والكُفْرَ لسليمان عليه السلام، وكذَبت عندما ادعتْ إنزال السحر على الملكين ببابل.

القول الثاني: أن «ما» اسم موصول بمعنى «الذي».

وهذا القول نسبه الطبري إلى عبد الله بن مسعود وقتادة والزهري والسُّدِّي، وغيرهم.

---

(١) تفسير الطبري ٢ : ٤١٩.

(٢) المرجع السابق ٢ : ٤٢٠.

قال الطبري في توضيح هذا القول: «فمعنى الآية على هذا القول: واتبعت اليهودُ الذي تلت الشياطين على ملك سليمان، واتبعت الذي أُنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت»[1].

وقد رجح الطبري هذا القول.

لكن الإمام ابن كثير عقب على شيخه الطبري، وردَّ ترجيحه، وعلَّق عليه قائلاً: «ثم شرع ابن جرير في رد هذا القول، وأن «ما» بمعنى الذي، وأطال القول في ذلك، وادّعى أن هاروت وماروت مَلَكان، أنزلهما الله في الأرض، وأذن لهما في تعليم السحر، اختباراً لِعِباده وامتحاناً، بعد أن بين لعباده أن ذلك مما ينهى عنه على ألسنة الرسل. وادعى أن هاروت وماروت مُطيعان في ذلك، لأنهما امتثلا ما أُمِرا به.

وهذا الذي سلكه غريب جداً!»[2].

لكن الإمام أحمد شاكر علق على تعليق ابن كثير بقوله: «ولستُ أستنكر ما قاله أبو جعفر، كما استنكره ابن كثير. ولو أنت أنصفْتَ وتتبعْتَ كلام أبي جعفر، لرأيت فيه حجةً بيِّنَةً ساطعةً على صواب مذهبه الذي ذهب إليه، ولرأيت دقةً ولُطْفاً في تناول المعاني، وتدبير الألفاظ، لا تكاد تجدهما في غير هذا التفسير الجليل القدر»[3].

كيف تعلم الملائكة السحر؟

تساءل الإمام الطبري عن مهمة الملَكين ببابل:

بما أن الله أنزلهما على بابل، ليعلما الناس هناك السحر، فهل يجوز أن يُنزل الله عليهما السحر؟ وكيف جاز لهما أن يعلماه للناس؟ وقد أجاب الإمام الطبري على ذلك:

(١) تفسير الطبري ٢ : ٤٢١.

(٢) عمدة التفسير ١ : ١٩٤.

(٣) تفسير الطبري ٢ : ٤٢٢ حاشية.

إن الله عزّ وجل قد أنزل الخير والشر كله، وبيَّن جميع ذلك لعباده، فأوحاه إلى رسله، وأمرهم بتعليم خلقه، وتعريفهم ما يحل لهم مما يَحْرم عليهم، وذلك كالزنا والسرقة وسائر المعاصي التي عرَّفَهُموها، ونهاهم عن ركوبها، فالسحر أحد تلك المعاصي، التي أخبرهم بها، ونهاهم عن العمل بها.

وليس في العلم بالسحر إثم، كما لا إثم في العلم بصنعة الخمر، ونحتْ الأصنام والطنابير والملاعب. وإنما الإثم في العمل به، وأن يضرَّ به من لا يحل ضرُّه به.

فليس في إنزال الله إياه على المَلَكين، ولا في تعليم المَلَكين مَنْ علَّماه من الناس إثم، إذ كان تعليمهما من علَّماه ذلك، بإذن الله لهما بتعليمه، بعد أن يخبراه بأنهما فتنة، وينهياه عن السحر والعمل به والكفر، وإنما الأثم على مَنْ يتعلمُه منهما ويعملُ به. إذ كان الله تعالى ذكره قد نهاه عن تعلمه والعمل به، ولو كان الله أباح لبني آدم أن يتعلموا ذلك، لم يكن مَنْ تَعَلَّمَهُ حرجاً، كما لم يكونا حرِجين لعلمهما به، إذ كان علمهما بذلك عن تنزيل الله إليهما»[1].

ولا يُضير المَلَكين مخالفةُ الناس لهما، وارتكابُهم ما نهياهم عنه، وممارستُهم للسحر، واستخدامُه في التفريق بين المرء وزوجه، والأمر كما قال الإمام الطبري:

«وقد عُبِد من دون الله جماعةٌ من أولياء الله، فلم يكن ذلك لهم ضائراً، إذ لم يكن ذلك بأمرهم إياهم به، بل عَبَدَ بعضُهم والمعبود عنه ناه.

فكذلك الملكان، غير ضائِرهما سِحْرُ مَنْ سَحَر، ممن تعلم ذلك منهما، بعد نهيهما إياه عنه، وعظتِهما له، بقولهما «إنما نحن فتنة فلا تكفر». إذ كانا قد أدَّيا ما أُمرا بقيلهما ذلك»[2].

---

(١) تفسير الطبري ٢ : ٤٢٢ ـ ٤٢٣.

(٢) المرجع السابق ٢ : ٤٢٦ ـ ٤٢٧.

ذكْر «ما» في الآية:

ذُكرت «ما» في الآية تسعَ مرات. وكانت أحياناً حرف نفي بمعنى «لم» وأحياناً اسم موصول بمعنى «الذي».

١ ـ واتبعوا ما تتلو الشياطين: هنا اسم موصول بمعنى «الذي» أي اتبعوا الذي تتلوه الشياطين.

٢ ـ وما كفر سليمان: هنا حرف نفي تنفي الكفر عن سليمان.

٣ ـ وما أنزل على الملكين: الراجح هنا أنها اسم موصول. أي اتبعوا السحر الذي أُنزل على الملكين.

٤ ـ وما يعلِّمان من أحد حتى يقولا: هنا حرف نفي، أي لا يعلِّمان أحداً حتى يحذراه.

٥ ـ ما يفرقون به: هنا اسم موصول. أي يتعلمون الذي يفرقون به بين المرء وزوجه.

٦ ـ وما هم بضارين به من أحد إلَّا بإذن الله: هنا حرف نفي.

٧ ـ يتعلمون ما يضرهم: هنا اسم موصول.

٨ ـ ما له في الآخرة من خلاق: هنا حرف نفي.

٩ ـ لبئس ما شروا به أنفسهم: هنا اسم موصول بمعنى الذي.

وأنت عندما تمعن النظر في ورود «ما» في الآية، ترى أنها منسقة بترتيب متدرج، فهي اسم موصول، ثم حرف نفي، ثم اسم موصول، ثم حرف نفي، وهكذا، وهذا الترتيب ملحوظ في الأسلوب القرآني.

أنواع السحر:

السحر أنواع، فمنه الحقيقي، ومنه التخييلي.

قال الإمام الراغب في أنواع السحر:

«السحر يقال على معانٍ:

الأول: الخداع، وتخييلاتٌ لا حقيقة لها، نحو ما يفعله المشعبذ، بصرْف الأبصار عمّا يفعله لخفّة يده، وما يفعله النمّام، بقول مزخرف شائق للأسماع، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿سَحَروا أَعْيُنَ النّاس، وَاسْتَرْهَبُوْهُمْ، وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمْ﴾[1]. وَقَالَ: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنّهَا تَسْعَى﴾[2].

الثاني: استجلاب معاونة الشيطان، بضربٍ من التقرّب إليه، كقوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنزّلُ الشّياطينْ؟ تَنَزّلُ عَلَى كُلّ أَفّاكٍ أَثِيمٍ﴾[3]. وعَلى ذَلِكَ قَولُهُ تَعالَى: ﴿وَلكِنّ الشّيَاطِيْنَ كَفَرُوا، يُعَلّمُونَ النَّاسَ السَّحرَ﴾.

الثالث: مَا يذهب إليه الأغتامُ السحرة، وهو اسم لفعل، يزعمون أنَّ من قوّته، أنْ يغيّر الصور والطبائع، فيجعل الإنسان حماراً، ولا حقيقة لذلك عند المحصّلين.

الرابع: وَقَدْ تُصُوِّرَ من السحر تارة حسْنُه. فقيل: إنّ من البيان لسحرا. وتارة دقّةُ فعله، حتى قالت الأطباء: الطبيعة ساحرة. وسمّوا الغذاء سحراً، من حيث إنّه يدقّ ويلطف تأثيره»[4].

أمّا الإمام فخر الدين الرازي فقد ذكر أنواعاً من السحر. هي:

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٦٦.

(٢) سورة طـه: آية ٦٦.

(٣) سورة الشعراء: آيتا ٢٢١ ــ ٢٢٢.

(٤) المفردات للراغب: ٢٢٦.

الأوّل: سحْر الكِلدانيين والكَسْدانيين، الـذين كانـوا فـي قديم الـدهر، وهم قومٌ يعبدون الكواكب، ويزعمون أنّها المدبّرة لهذا العالم.

الثـاني: سحْـر أصحـاب الأوهـام والنفـوس القـويّـة في تـأثيـرهم في الآخرين، وسِحرهم لهم.

الثالث: الاستعانة بالجنّ والأرواح الأرضية.

الرابـع: التخيّلات، والأخذ بالعيون.

الخامس: الأعمال العجيبة التي تظهـر من تركيب الآلات المـركّبة على النِّسب الهندسية تارة، وعلى ضروب الخيلاء أخرى. وكان سحْر سحَرة فرعون من هذا الضرب.

السادس: الاستعانة بخواص الأدوية، مثل أن يجعـل فـي طعامـه بعض الأدويـة المبلِّدة، المزيلة للعقـل، والـدُّخُنِ المُسْكِـرة، نحو دمـاغ الحمـار إذا تناوله الإنسان تبلّد عقله وقلّت فطنته.

السـابـع: تعليق القلب، وهو أن يـدّعي السـاحـر أنـه قـد عـرف الإسم الأعظم، وأنّ الجنّ يطيعونهُ، وينقادون له فـي أكثر الأمور، فإذا اتفق أن يكون السّامـع لذلك ضعيف العقل قليل التمييز، اعتقد أنّه حقّ، وتعلّق قلبهُ بِذَلِكَ، وحصل فـي نفسه نوع من الرعب والخوف، وإذا حصل الخوف ضعفت القوى الحسّاسة، فحينئذٍ يتمكن الساحر من أن يفعَل حينئـذٍ ما يشـاء، وإن مَن جَرّب الأمور وعرف أحـوال أهل العلم، علم أن لتعلق القلب أثـراً عظيمـاً فـي تنفيذ الأعمال وإخفاء الأسرار.

الثامن: السعي بالنّميمة من وجوه خفيفة لطيفة(١).

---

(١) أنظر التفسير الكبير للرازي ٣: ٢٠٦ ـ ٢١٣.

هل للسحر تأثير أم هو تخييل؟

عرفنا أنّ السحر أنواع، منهـا ما هـو حقيقي، ومنها مـا هو تخييلي يقـوم على الوهم والرهبة والخداع.

وقـد اختلف المسلمـون فـي السحـر، هـل هـو حقيقي لـه تـأثير فـي المسحور، أم هو تخييلي لا حقيقة له ولا تأثير؟

الإمام الطبري يرى أنّه لا حقيقة له، وأنّه يقوم على التخييل والخداع.

وفـي ذلـك يقول: «هـو خُدعٌ ومخـاريق ومعانٍ يفعلهـا السّاحـر، حتى يُخيَّـل للمسحور الشيءُ أنّه بخلاف مـا هو بِـهِ، نظيـر الذي يـرى السـراب من بعيد، فيخيّل إليـه أنّه مـاءٌ، ويرى الشيء من بعيـد فيُثبته بخـلاف ما هـو على حقيقتـه. وكراكب السفينـة السائـرة سيراً حثيثـاً، يخيّل إليـه أنّـه مـا عـاين من الأشجـار والجبال سـائرٌ معـه، فكذلـك المسحور، ذلـك صفته، يحسب بعـد الذي وصل إليه من سحر الساحر، أنّ الذي يراه أو يفعله، بخـلاف الذي هـو به على حقيقته وتأثيره»[١].

أما الإمام الرازي فقد ذهب إلى أنّ السحر له حقيقة وتأثير، وأن الساحر يقدر على الضر بإذن الله.

قـال: «وأمّا أهـل السنّة فجـوّزوا أن يقْـدر السـاحـر على أن يـطيـر فـي الهواء، ويقلب الحمار إنساناً والإنسـان حماراً، إلاّ أنّهم قـالوا: إنّ الله تعـالى هو الخالق لهذه الأشياء، عندما يقرأ السـاحـر رُقى مخصوصـة وكلمات معينـة، فأمّا أن يكون المؤثّرُ النجومَ والفلك فلا.

وقد احتجوا على وقوع هذا النوع من السحر، بالقرآن والخبر.

(١) تفسير الطبري ٢ : ٤٣٦.

أمّـا القرآن فقـوله تعـالَى: ﴿وَمَا هُمْ بِضارّينَ بِهِ مِنْ أَحَـدٍ إلّا بِإِذْنِ الله﴾ والاستثناء يدل على حصول الآثار بسببه.

وأمّا الأخبار فهي واردة عنه ﷺ، متواترةً وآحاداً»[1].

وأمّا المحدّثون فيرون أنّ السحر له حقيقـة، وأنّ الساحـر يقدر بـإذن الله على التأثير فـي المسحورين.

قال الإمام ابن حجر فـي الفتح: «واختُلف فـي السحر:

فقيـل: هـو تخييـل فقط، ولا حقيقـة لـه. وهـذا اختيـار أبـي جعفـر الأستـرابـاذي من الشـافعيـة، وأبـي بكـر الـرازي من الحنفيـة، وابن حـزم الظاهري، وطائفة.

وقـال النووي: والصـحيـح أنّ له حقيقـة، وبه قـطـع الجمهور، وعليـه عامة العلماء، ويدل عليه الكتاب والسنّة الصحيحة.

لكن محل النزاع: هـل يقـع بالسحـر انقلابُ عيْن أوْلا؟ فمـن قـال إنّه تخييل فقط، منـع ذلك.

ومن قـالوا: إنّ لـه حقيقة. اختلفـوا: هـل لـه تـأثيـر فقط، بحيث يُغيِّـر المزاج فيكون نوعاً من الأمـراض، أو ينتهي إلى الإحالـة بحيث يُصيّر الجمادَ حيواناً وعكسه؟

فالّذي عليه الجمهور هو الأوّل. وذهبت طائفة قليلة إلى الثاني.

وقـال المازري: جمهـور العلماء على إثبـات السحر، وأن لـه حقيقـة. ونفى بعضهم حقيقتَه، وأضاف مـا يقـع منه إلى خيـالاتٍ باطلة، وهـو مردود،

---

(١) تفسير الرازي ٣: ٢١٣ باختصار.

لورود النقل بإثبات السحر، ولأن العقل لا ينكر أن الله قد يخرق العادة عند نطق الساحر بكلام ملفّق أو تركيب أجسام، أو مزْجٍ بين قوى، على ترتيب مخصوص»[1].

سِحْر رسول الله ﷺ:

الراجحُ ما ذهب إليه جمهور أهل السنّة: مِنْ أنّ السحر له حقيقة وتأثير، وأن الساحر يقْدر على أن يؤثّر في خصمه وأن يضره، لكن بإذن الله.

هذا هو الراجح لأنه دلّت عليه النصوص، من القرآن والحديث.

أما القرآن فمنه ما ورد في قصّة هاروت وماروت. وسنعود لذلك بعد قليل بإذن الله.

وأمّا الحديث، فحادثة سحْر اليهوديّ لرسول الله ﷺ. هذه الحادثة التي أوردها الإمام البخاري في عدة مواضع من صحيحه:

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: سَحَرَ رسولَ الله ﷺ رجُلٌ من بني زريق، يقال له: لَبيدُ بن الأعْصَمْ، حتى كان رسول الله ﷺ، يُخيَّل إليه، أنّهُ كان يفعل الشيء وما فعله. حتى إذا كان ذات يوم ـ أو ذات ليلة ـ وهو عندي، لكنه دعا ودعا. ثم قال: يا عائشة: أَشعرتِ أنّ الله أفتاني فيما استفتيته فيه؟

أتاني رجلان، فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجليَّ، فقال أحدهما للآخر: وما وجَع الرجل؟

فقال: مطْبوب.

قال: مَن طبَّه؟

(١) فتح الباري للإمام ابن حجر ١٠: ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

قال: لبيدُ بن الأعصمْ.

قال: فـي أيِّ شيء؟

قال: فـي مشْط ومشاطَةُ، وجُفّ طَلْعِ نَخْلَةٍ ذَكَرْ.

قال: وأين هو؟

قال: فـي بـئر ذَرْوَان.

فأتاها رسول الله ﷺ، فـي ناس من أصحابه.

فجاء فقال: يا عائشـة: كأنَّ مـاءها نقـاعةُ الحِنّـاءِ، وكأنَّ رؤوس نخلهـا رؤوس الشّياطين.

قلت: يا رسول الله: أفَلا استخرجْتَهُ؟

قال: قد عافاني الله، فكرهتُ أن أُثير على الناس فيه شرّاً.

فأمر بها فدُفنتْ»(١).

ورواه البخـاري فـي كتاب الـطب، باب هـل يُستخرج السحـر؟ بروايـة أخرى فيها بعض الإضافات، قال:

«عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ سُحِـر، حتى كان يـرى أنه يـأتي النساء ولا يـأتيهنّ ــ قال: سفيـان راوي الحديث: وهـذا أشدّ ما يكون من السّحر، إذا كان كذا ــ

فقال يا عائشة: أعلمتِ أن الله قـد أفتاني فيما استفتيتُه؟ أتـاني رجلان، فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجليّ، فقال الذي عند رأسي للآخـر: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب. قال ومَنْ طبَّـهُ؟ قال: لبيـد بن الأعصمْ ــ رجل من بني زريق، حليف ليهود، كان منافقاً ــ قال وفيمَ؟ قال: في مشْط ومَشـاطة. قـال: وأين؟ قال: فـي جُفّ طَلَعَـةٍ ذَكَرْ، تَحت رَعُـوفَـةٍ، فـي بـئـر ذروان.

(١) صحيح البخاري (٧٦) كتاب الطب (٤٧) باب السحر. حديث (٥٧٦٣).

قالت: فأتى النبيُّ ﷺ البئرَ حتى استخرجه.

فقال: هذه البئر التي أُريتُها، وكأنّ ماءَها نقاعةُ الحِنّاء، وكأنّ نخلها رؤوس الشياطين. قال: فاستُخْرِج.

قالت: فقلت: أفلا ــ أي تَنَشَّرْتَ ــ؟ فقال: أمّا واللَّهُ قد شفاني، وأكره أن أثير على أحد من الناس شرّاً[1].

وقد تكلّم ابن حجر على الحديثين كلاماً مطوَّلاً،ونختار منه شرح بعض الكلمات فيهما.

فقول عائشة عن سحر رسول الله ﷺ أنّه كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهنّ: إن هذا من باب التخيُّل والظن. وقد استدل القاضي عياض بذلك «على أن السحر إنّما تسلّط على جسده، وظواهر جوارحه، لا على تمييزه ومُعتقَده»[2].

وسحْر رسولِ الله ﷺ، لا يتعارض مع عصمةِ الرسول عليه السلام، وحفظِه وصونِه من الشياطين: «فصون النّبيّ ﷺ من الشياطين، لا يمنع إرادتهم كيدَه، وما ناله من ضرر السحر لا يُدخِل نقصاً على ما يتعلق بالتبليغ، بل هو من جنس ما كان يناله من ضرر سائر الأمراض، من ضعفٍ عن الكلام، أو عجزٍ عن بعض الفعل، أو حدوثِ تخيُّل لا يستمر، بل يزول، ويبطل الله كيدَ الشياطين»[2].

وقول أحد الملَكين لصاحبه عن الرسول عليه السلام: إنّه مطبوب، يعني: إنّه مسحور، وكنُّوا عن السحر بالطب تفاؤلاً، كما قالوا للَّديغ سليم[3].

---

(١) صحيح البخاري (٧٦) كتاب الطب(٤٩) باب: هل يستخرج السحر؟ حديث: (٥٧٦٥).

(٢) فتح الباري ١٠: ٢٢٧.

(٣) المرجع السابق: ١٠: ٢٢٨.

وقوْل أحدهما إن الذي سحره هو لبيد بن الأعصم. ورد عند مسلم «سحَر النبيَّ يهوديّ من يهود بني زريق هو لبيد بن الأعصمْ»[1].

وبيّن الواقدي أن هذا السحر وقع، لما رجع الرسول ﷺ، من الحديبية، في المحرم من السنة السابعة، حيث جاءت رؤساء اليهود إلى لبيد بن الأعصم ــ وكان حليفاً في بني زريق وكان يهودياً ساحراً ــ وطلبوا منه أن يجعل للرسول ﷺ سحْراً يؤثّر فيه، على أن يعطوه ثلاثة دنانير»[1].

وإن أخت لبيد قالت له: إن يكن نبياً فسيخبره الله، وإلاَّ فسوف يذهله السحر حتى يَذهب عقلُه[2].

أما المشط الذي استخدمه لبيد بن الأعصم في السحر، فهو الآلة المعروفة، التي يسرَّح بها شعرُ الرأس واللحية[3].

وأمّا المشاطةُ فهي: ما يخرج من الشعر إذا مشَّطه صاحبه بالمشط.

وَجُفّ الطَّلعَةِ الذَكَر الذي وضع الساحر فيه المشط والمشاطة، هو: الغشاءُ الرقيق الذي يكون على الطَّلْع. والطلع هو ثمر النخيل، ويطلق على الذكر والأنثى»[3].

ولف الساحر لبيد المشط والمشاطة بغشاء الطلع، ووضعه تحت «رعوفة» بئر ذروان. والراعوفة هي: حجرٌ يوضع على رأس البئر، لا يُستطاع قلعُه، يقف عليه الشخص الذي يأخذ الماء من البئر. وقد يكون أسفل البئر[4].

وبئر ذروان: هي بئر بني زريق.

---

(١) فتح الباري ١٠ : ٢٢٦.
(٢) المرجع السابق ١٠ : ٢٢٧.
(٣) المرجع السابق ١٠ : ٢٢٩.
(٤) المرجع السابق ١٠ : ٢٣٤.

وقـول عـائشـة لـرسـول الله ﷺ: ألا تنشّرت؟ وقـولـه لهـا: إنّ الله قد شفانـي.

والنُّشرَة هـي ضرب من العلاج، يعالَج به من يظُن أنّ بهِ سحـراً، حيث بهـا يحـل السحـر عن المسحـور، ولا يقـدر على هـذا إلّا رجـل يعـرف السحر»[1].

وقد روى الإمامُ البيهقي فـي دلائل النبوة زيـادةً على ذلك: أنّ الـرسول عليه الصلاة والسلام بعث رجلاً إلى بئر ذروان. «فنزل الرجل فـاستخرج جُفّ طلْعة من تحت الراعـوفة، فـإذا فيها مشط رسـول الله ﷺ، ومن مُراطـة رأسه، وإذا تمثـال من شمـع لرسـول الله ﷺ، وإذا فيهـا إِبَـر مغـروزة، وإذا وتـر فيـه إحدى عشرة عقدة.

فأتاه جبريل عليه السلام بـالمعوِّذتين. فقـال: يا محمـد «قل أعـوذ برب الفلق» وحلّ عقدة «من شر ما خلق» وحـل عقدة. حتى فـرغ منها ثم قـال «قل أعوذ برب الناس» وحل عقدة. حتى فرغ منها. وحلّ العقد كلّها.

وجعل لا ينزع إبرةً إلا وجد لها ألما، ثم يجدُ بعد ذلك راحة.

فقيل: يا رسول الله: لو قتلتَ اليهودي. فقال رسول الله ﷺ: قد عافاني الله عزّ وجلّ، وما وراءه من عذاب الله أشد»[2].

وقـد يستبعدُ بعضُ المسلمين حـادثـة سحـر رسـول الله ﷺ، ويعتبـرهـا متعارضةً مـع عصمة رسول الله ﷺ، وحفظِه من الشياطين.

ولا داعي لذلك الاستبعاد، بعدما ثبتت الحادثة فـي كل كتب الحديث، فهي من المتَّفق عليـه بين البخـاري ومسلم، وهي مـذكـورة عنـد كـل كتب الحديث والسيرة والتفسير.

---

(١) فتح الباري ١٠: ٢٣٣.
(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٧: ٩٤ وانظر فتح الباري ١٠: ٢٣٠.

أمّا عن التوفيق بين الحادثة وبين العصمة، فسأكتفي فيه بذكر كلام الإمام «المازري» الذي أورده الإمام النووي في شرحه لصحيح الإمام مسلم:

قال المازري: «وقد أنكر بعضُ المبتدعة، هذا الحديث، بسببٍ آخر، فزعم أنّه يحطُّ منصب النبوة، ويشكِّك فيها، وأنّ تجويزَهُ يمنع الثقة بالشرع.

وهذا الذي ادَّعاه هؤلاء المبتدعة باطل.

لأن الدلائل القطعية قد قامت على صدْقه وصِحته، وعصمتُه فيما يتعلق بالتبليغ، والمعجزة شاهدة بذلك. وتجويز ما قام الدليل بخلافه باطل.

فأما ما يتعلق ببعض أمور الدنيا، التي لم يُبعث بسببها، ولا كان مفضَّلاً من أجلها، وهو مما يعرض للبشر:

فغيرُ بعيد أن يخيَّل إليه من أمور الدنيا، ما لا حقيقة له.

وقد قيل: إنه إنما كان يُخيَّل إليه أنه وطىء زوجاتِه، وليس بواطىء، وقد يتخيلُ الإنسانُ مثل هذا في المنام، فلا يبعد تخيُّله في اليقظة، ولا حقيقة له.

وقيل إنه يخيل إليه أنه فعله، وما فعله، ولكن لا يَعتقد صحةَ ما يتخيلُه، فتكون اعتقاداته على السداد.

قال القاضي عياض: وقد جاءت روايات هذا الحديث مبيِّنة أن السحر إنما تسلَّط على جسده وظواهرِ جوارحه، لا على عقله وقلبه واعتقاده.

ويكون معنى قوله في الحديث: «حتى يظن أنه يأتي أهله ولا يأتيهن»، ويروى «يخيل إليه»، أي يَظهر له من نشاطه ومتقدِّم عادته، القدرةُ عليهن، فإذا دنا منهن أخذتْه أخذةُ السحر، فلم يأتهن، ولم يتمكن من ذلك، كما يعتري المسحور.

وكل ما جاء في الروايات من أنه يخيَّل إليه فعلُ شيء لم يفعله، ونحوه، فمحمول على التخيُّل بالبصر، لا لخلل تطرق إلى العقل.

وليس في ذلك ما يُدخل لَبساً على الرسالة، ولا طعناً لأهل الضلالة»(١).

السحر الحلال: إن من البيان لسِحراً:

عرفنا أن السحر يطلق على كل ما لطُف وخَفي مدخله ودقّ وأثّر في الناس.

ونقرر هنا أن السحر نوعان:

نوع مذموم منكَر باطل، يحاربه الإسلام ويرفضه وينقضه، وهو معظم ممارسات السحرة وأعمالهم.

ونوع محمود ممدوح مرغوب فيه.. حلال.

وكلامنا هنا عن النوع الثاني الحلال.

روى البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم، أنه قدِم رجلان من المشرق، فخطبا، فعجب الناس لبيانهما. فقال رسول الله ﷺ: «إن من البيان لسِحراً، أو إن بعض البيان سحر»(٢).

وهذه القصة التي أوردها البخاري موجزة، ذكرها كتّاب السيرة مفصلة.

ونأخذ رواية الإمام البيهقي في دلائل النبوة:

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: جلس إلى رسول الله ﷺ، قَيْسُ بنُ عاصِم، والزِّبْرِقانُ بنُ بَدْر، وعمْرو بن الأهتَمْ، التمِيميُّون. ففخر

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٤: ١٧٤ ــ ١٧٥.
(٢) صحيح البخاري (٧٦) كتاب الطب (٥١) إن من البيان لسحراً. حديث ٥٧٦٧.

الـزبرقـان، فقال: يـا رسول الله: أنـا سيد تميم والمطـاعُ فيهم، والمُجـابُ، أمنعهم من الـظلم، وآخذ لهم بحقـوقهم، وهذا يعلم ذلـك ــ يعني عمـرو بن الأهتم ــ .

فقال عمرو بن الأهتم: إنـه لشديـد العارضـة، مانـعٌ لجانِبـهِ، مُطاعٌ في أُذنيهِ.

فقال الزبرقان بن بـدر: والله يا رسـول الله، لقد علم مني غيـرَ ما قـال، وما منعه أن يتكلم إلا الحسد.

فقـال عمرو بن الأهتم: أنـا أحسدك؛ فـوالله إنك لئيمُ الخـال، حـديثُ المال، أحمقُ الولد، مُضَيَّـع في العشيرة.

والله يـا رسول الله، لقـد صدقتُ فيمـا قُلت أولاً، وما كَـذبتُ فيما قلتُ آخراً. ولكني رجل إذا رضيتُ قلتُ أحسنَ ما علمت، وإذا غضبتُ قلتُ أقبحَ ما وجدت، ولقد صدقت في الأولى والأخرى جميعاً.

فقال النبـي ﷺ: إن من البيان لسحراً»[1].

وقد قال الإمام الخطابـي في المراد بالبيان هنا:

البيان إثنان:

أحدهما: ما تقـع به إبانة عن المراد بأي وجه كان.

والآخر: ما دَخَلتْهُ الصَّنعة؛ بحيثُ يروق السامعين، ويَسْتَميـل قلوبهم. وهـو الـذي يشبَّـه بـالسحـر إذا خَلَبَ القلب، وغلب على النفس، حتى يُحـوِّل الشيء عن حقيقته، ويصرفه عن جهته، فيلوح للناظِر في معرض غيره.

وهذا إذا صُرف إلى الحق يُمدحُ، إذا صُرف إلى الباطلِ يُذَم.

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٥: ٣١٦ ــ ٣١٧. وانظر فتح الباري ١٠: ٢٣٧.

وقد حمل بعضهم الحديثَ على المدح، والحثِّ على تحسين الكلام، وتحبير الألفاظ»[1].

أما ابن بطَّال فقد ذكر الإمامُ ابن حجر قوله في شرح الحديث:

«أحسنُ ما يُقال في هذا: إن هذا الحديثَ ليس ذماً للبيان كله، ولا مدحاً لقوله «من البيان» فأتى بلفظة «من» التي للتبعيض. وكيف يُذم البيان، وقد امتنَّ الله به على عبادة ﴿خَلَقَ الإنْسانَ. عَلَّمَهُ البَيانَ﴾[2].

وعلق ابن حجر على كلام ابن بطال: «وقد اتفق العلماء على مدح الإيجاز، والإتيان بالمعاني الكثيرة بالألفاظ اليسيرة، وعلى مدْح الإطناب في مقام الخطابة بحسب المقام. نَعَم الإفراطُ في كل شيء مذموم، وخير الأمور أوسطها»[3].

إنما نحن فتنة:

ماذا كان يقول المَلَكان لأهل بابل، وهما يعلمانهم السحر؟ كانا يقولان: «إِنَّما نَحْنُ فِتْنةٌ فلا تَكْفُر».

قرّر أن الله أنزلهما على بابل فتنةً لأهلها، وكانت مهِمتُهما فتنةً لأهلها، وكان تعليمُهما فتنةً لأهلها.

والفتنة هي: الابتلاء والامتحان والاختبار، كما قال موسى عليه السلام لربه: «قال: رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيّاي. أَتُهْلِكُنا بِمَا فَعَلَ السُّفَهاء مِنّا؟ إنْ هِيَ إلَّا فِتْنَتُكَ، تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاء، وَتَهْدِي مَنْ تَشَاء»[4].

أي هي ابتلاؤك لنا. ونتيجةُ هذه الفتنة والامتحان والابتلاء مختلفةٌ متباينة، فمن الناس من يضل بها، فيسقط في الامتحان، ومن الناس من يهتدي بها، ويزدادُ إيماناً، فينجح في الإمتحان.

---

(١) فتح الباري ١٠: ٢٣٧.

(٢) سورة الرحمن: آيتا ٣ ــ ٤.

(٣) فتح الباري ١٠: ٢٣٨.

(٤) سورة الأعراف: ١٥٥.

وكان هاروت وماروت فتنةً للبابليين، وكان تعليمهما السحر فتنة لهم.

لقد أراد المَلَكان تحذير البابليين من ممارسة السحر، إنهما يعلمانهم السحر ليكشفا حقيقته، ويعرِّفاهم على طبيعته، أمّا أن لا يثبت هؤلاء أمام إغراء السحر وممارستِه والعمل بِه، وإضرار الآخرين به، فهذا معناه أنهم سقطوا في الامتحان.

كانا فتنة، وحذَّرا الناس من السحر والكفر والسقوط، ولكن الناس لم يُحسنوا التعامل مع الفتنة، لذلك سقطوا فيها، فمارسوا السحر وكفروا.

قال الأستاذ الإمام سيد قطب «ولقد مضى في تاريخ البشرية من الآيات والابتلاءات ما يناسب حالتَها، وإدراكَها في كل طور من أطوار حياتها.

فإذا جاء الاختبار في صورة مَلَكين ـ أو في صورة رجلَيْن طيبيْن كالملائكة ـ فليس هذا غريباً ولا شاذّاً، بالقياس إلى شتى الصُّور وشتى الابتلاءات الخارقة، التي مرت بها البشرية، وهي تحبو، وهي تخطو، وهي تقفو أشعة الشعلة الإلهية المنيرة، في غياهب الليل البهيم»[١].

الناس في هذه الحياة، يفتنهم الله ويبتليهم ويمتحنهم، لكن كم من هؤلاء من يلحظ معنى الفتنة في الحياة؟ وكم من هؤلاء من يحسن التعامل مع أدوات الفتنة ووسائلها؟ وكم من هؤلاء من ينجح في هذه الفتنة ويكون من الفائزين؟

قال تعالى: ﴿الَّذي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[٢].

---

(١) الظلال ١: ٩٧ ـ ٧٨.

(٢) سورة الملك: آية ٢.

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً. أَتَصْبِرون؟ وَكَانَ رَبُّكَ بَصيراً﴾[1].

الرجل والمرأة: كل منهما زوج للآخر:

أثبت القرآن حقيقةً لبعض أنواع السحر، وجعل للساحر قدرة على التفريق بين المرء وزوجه.

فأهل بابل خالفوا وصيةَ هاروت وماروت، ومارسوا السحر، وعملوا به، واستخدموه في الأذى والضرر، والتفريق بين المرء وزوجه.

قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِه﴾.

المَرْء هو الرجل، والمرأة هي الأنثى، يُقَالَ: مَرْءٌ وامْرُؤٌ، ومَرْأَةٌ وامْرأة. ويثنى فيقال: هذان امْرَءان، كما يقال: هاتان امرأتان.

لكنه لا يُجمع. فيقال: هؤلاء رجال. بدل هؤلاء امرؤو صدق.

أما كلمة «زوج» فهي تطلق على كل من الرجل والمرأة، بل تطلق على كل قرينيْن مقترنيْن معاً.

قال الإمام الراغب: «زوج: يُقال لكل واحد من القرينيْن من الذكر والأنثى، في الحيوانات المتزاوجة زوج، ولكل قرينيْن فيها وفي غيرها زوج، كالخفِّ والنعل، ولكل ما يَقترنُ بآخر مماثلاً له أو مضاداً، زوج، قال تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ والأُنْثَى﴾[2]. وقال: ﴿يَا آدمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُك الْجَنَّة﴾[3].

---

(١) سورة الفرقان: آية ٢٠.

(٢) سورة القيامة: آية ٣٩.

(٣) سورة البقرة: يَة ٣٥.

وزوجة لغة رديئة، وجمعُها زوجات قال الشاعر:

فَبَكَا بَنَاتي شَجْوَهُنَّ وَزَوْجَتي

وجمع الزوج أزواج.

وقال تعالى: «وَمِنْ كُلِّ شَيءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْن»[1].

وهذا فيه تنبيهُ على أن الأشياء كلَّها مركبةٌ من جوهر وعَرَض، ومادةٍ وصورة، وأن لا شيء يتعرى من تركيب، يقتضي كونَه مَصْنوعاً، وأنه لا بد من صانع، تنبيهاً أنه تعالى هو الفرد.

وقوله: ﴿خلقنا زوجين﴾ فبيَّنُ أن كل ما في العالم زوج، من حيث أن له ضِداً أو مِثْلاً أو تركيباً ما، بل ما ينفكّ بوجه من تركيب.

وإنمَا ذَكر ههنا زوجين، تنبيهاً أن الشيء وإن لم يكن له ضد ولا مثْل، فإنه لا ينفك من تركيب جوهر وعَرَض، وذلك زوجان»[2].

الرجل زوج للمرأة، قال تعالى: ﴿فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾[3].

والمرأة زوج للرجل، قال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهاتُهُمْ﴾[4].

فكل منهما زوج للآخر.

وهناك لفتة لطيفة من إطلاق كلمة «الزوج» على كل منهما: إن الرجل

---

(١) سورة الذريات: آية ٤٩.

(٢) المفردات للراغب: ٢١٥ ـ ٢١٦.

(٣) سورة البقرة: آية ٢٣٢.

(٤) سورة الأحزاب: آية ٦.

بمفرده ناقص، لا يكون كياناً مستقلاً. وإن المرأة بمفردها ناقصة لا تكون كياناً مستقلاً. ولذلك لا بدّ من اجتماعهما واقترانهما واتفاقهما ليكونا معاً كياناً مستقلاً.

كذلك هناك جوانب في الرجل لا تكمِّلها إلّا المرأة، وبدونها يبقى الرجل ناقصاً. وهناك جوانب نقْص عند المرأة، لا يكمِّلها إلّا الرجل عندما يقترن بها، وبدونه تبقى المرأة ناقصة.

الرجل يكمِّل نقص المرأة فهو لها زوج، والمرأة تكمِّل نقص الرجل فهي له زوج. ولذلك كل منهما زوج للآخر.

الساحر يفرّق بين الزوجين:

أثبت القرآن للساحر قدرةً على التفريق بين الزوجين، فقال عن أهل بابل: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِه﴾.

وهذا فيه إشارة إلى أن بعض أنواع السحر لها حقيقةٌ وتأثير في الآخرين، فالسحرة يفرقون بالسحر بين المرء وزوجه.

ولاحظ الفاعل في قوله: «يفرقون» إنه «واو الجماعة» وهي عائدة إلى السحرة. والفاعل هو الذي يقوم بالفعل، أي أن السحرة يقدرون على التفريق بين المرء وزوجه.

إن التفريق بين المرء وزوجه، وإحلالَ الخصام والنزاع محلَّ المحبة والاتفاق، هي رسالةُ الشيطان الأساسية، وهي مهمةُ جنوده، عندما يرسلهم لإغواء الناس والتفريق بينهم. وإن الجنديَّ المقدَّم من هؤلاء عنده، هو الذي يقْدر على التفريق بين المرء وزوجه، فبذلك ينال الحَظْوة والمنزلة عند شيطانه الحاقد الكبير!.

وهذا ما بيَّنه رسول الله ﷺ.

فقد روى مسلم عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الماء. ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَاياه. فَأَدْناهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتنةً. يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فيقُول: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا فيقُول: مَا صَنَعْتَ شَيْئاً. ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فيقول: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ. فَيُدْنيهِ مِنْه، وَيَقُول: نِعْمَ أَنْت»(١).

قلنا: إن هذه العبارة «يُفرقون بين المرء وزوجه» تدل على أن السحر قد يؤثِّر في الآخرين، وأن الساحر قد يفرق به بين المرء وزوجه لكنّ الإمام الطبري يرى أن السحر لا حقيقة له، وأنه تخييل وخداع.

وحَمَل التفريق بين الزوجين في الآية، على الناحية التخييلية. قال: «فتفريقُه بين المرء وزوجه: تخييلُه بِسحره إِلَى كُل واحد منهما شخصَ الآخر، على خلاف ما هو به في حقيقته، من حُسْن وجمالٍ، حتى يقبِّحه عنده، فينصرفَ بوجهه ويعرض عنه، حتى يُحْدِث الزوجُ لامرأته فراقاً. فيكون الساحر مفرِّقاً بينهما بإحداثه السبب الذي كان منه فرقةُ ما بينهما.

وإنّ العرب تضيف الشيء إلى مسبِّبه من أجل تسبُّبه، فكذلك تفريق الساحر بسحره بين المرء وزوجه.

وقد أورد الطبري قول قتادة في التفريق: «وتفريقُهما أن يُؤخَذ كل واحد منهما عن صاحبه، ويُبَغَّض كل واحد منهما إلى صاحبه»(٢).

فنسبةُ التفريق إلى السحرة نسبةٌ مجازية، وليست حقيقية، ويبقى السحر تخيلياً تمثيلياً، لا حقيقة له. وإنما يقوم على الإيحاء النفسي، والمسحور هو الذي يستجيب لذلك التخييل والإيحاء أو لا يستجيب، فإذا لم يستجب

---

(١) مسلم (٥٠) كتاب صفات المنافقين (١٦) باب تحريش الشيطان. حديث رقم (٢٨١٣).

(٢) تفسير الطبري ٢ : ٤٤٧.

وبقي في مناعة فإن الساحر عاجزٌ عن التأثير فيه، وإن السحر لم يضره، أما إذا استجاب لذلك الإيحاء واستسلم لذلك التخييل، فهو الذي اختار واستسلم، وقام بكرْهِ وبغضِ زوجه، فحصل التفريق بينهما.

هذا رأي الطبري في تأثير السحر، وفي كونه مفرِّقاً بين المرء وزوجه. ونحن معه في هذا التأويل والتفسير، لكننا نجعله مقصوراً على بعض صورالسحر وأنواعه، ولا نعمّمه على كلٍّ تلك الصور والأنواع، ولسنا مع الطبري في التعميم والشمول، فمن السحر ما له حقيقةٌ وتأثير، وليس مجرد تمثيل وتخييل.

وحول هذا المعنى يقول الأستاذ الإمام سيد قطب: «وقد تكون صورةً من صور السحر، القدرةُ على التأثير والإيحاءإمّا في الحواس والأفكار، وإمّا في الأشياء والأجسام..

وإن كان السحر الذي ذكر القرآن وقوعَه من سحرة فرعون، كان مجرد تخييل لا حقيقة له: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ ولا مانع أن يكون مثل هذا التأثير وسيلةً للتفريق بين المرء وزوجه، وبين الصديق وصديقه، فالانفعالات تنشأ من التأثرات. وإن كانت الوسائل والآثار، والأسباب والمسبّبات، لا تقع كلُّها إلا بإذن الله»[1].

السحر سبب للتفريق بين المرء وزوجه. بإذن الله.

والساحر يقدر على التفريق بين المرء وزوجه. بإذن الله.

ولا يهم بعد ذلك إن كان التفريق لأن السحر له حقيقة وتأثير ــ فهذا موجود ومسلَّم به ــ أو أن التفريق عن طريق الإيحاء النفسي في نفس المسحور ــ كما قال الإمامان الطبري وسيد قطب ــ.

---

(١) الظلال ١ : ٩٧.

السحر يضر بإذن الله:

بعدما أثبت القرآن للساحر قدرةً على التفريق بين المرء وزوجه، ربط هذا بإذن اللهوأمره. قال: «فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ. وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ».

وإذْن الله هنا معناه: علْم الله سبحانه، وقضاؤه، والتخليةُ بين المسحور وبين السحر، بحيث يضره ذلك السحر[1].

وهذه الحقيقة القرآنية يقدّمها القرآن هنا، في قصّة هاروت وماروت، وأثناء الحديث عن ضرر السحر للناس، وإيذاء الساحر للآخرين. يقدّمها القرآن لحرصه على صفاء العقيدة ونصاعة الإيمان، وتجريد كل الأشياءوالقوى والأسباب والظواهر من القدرة الذاتية والتأثير الذاتي، والضر والنفع الذاتي.

إن الإيمان بالله يعني - في جملة ما يعني - أن الله كان عالماً بكل ما كان وما سيكون حتى قيام الساعة، وأن علمه بالأشياء قبل وقوعها. وإنّه يعني - في جملة ما يعني - أن كل شيء يحدث في هذا الكون بأمر الله وإذنه وإرادته ومشيئته وقضائه، وأن شيئاًلن يحدث إذالم يشأه الله ولم يقدّره ولم يأذن بِهِ، ولو أراده كل النّاس. وأن ما أراده الله وشاءه وقدّره فلا بد أن يقع، ولو وقف في وجهه كل الناس.

إن الأشخاص والقوى والأسباب لا تعمل إلّابإذن الله، ولا تؤثر ولا تضر ولا تنفع إلّا بإذنه، وإن الله يعطلها إذا لم يشأ أن تعمل، ويوقفُها عندما يشاء. فما هي إلا أسباب فقط، بيد المسبِّب المقدِّر المريد سبحانه.

وهكذا السحر.

السحر يضر، نعم. والسحر يؤذي، نعم. والسحر يفرق بين المرء وزوجه، نعم.

---

(١) انظر تفسير الطبري٢: ٤٤٩ - ٤٥٠.

لكنّه لا يعمل هذا إلّا بإذن الله وعلمه ومشيئته وقضائه، سبحانه. وإذا لم يشأ الله أن يضر فلن يضر، وإذا لم يشأ الله أن يفرق بين المرء وزوجه، فلن يفرق، «وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلّا بِإِذْنِ الله».

قال الأستاذ الإمام سيد قطب في هذا المعنى: «فبإذن الله تفعل الأسباب فعلَها، وتُنشىء آثارها، وتحقق نتائجَها.

وهذه قاعدة كلية في التصور، لا بد من وضوحها في ضمير المؤمن تماماً.

وأقرب ما يمثل هذه القاعدة في مثل هذا المقام، أنّك إذا عرَّضْتَ يدك للنار فإنها تحترق، ولكن هذا الاحتراق لا يكون إلا بإذن الله. -فالله هو الذي أودع النار خاصية الحرق، وأودع يدك خاصية الاحتراق بها، وهو قادر على أن يوقف هذه الخاصية، حين لا يأذن، لحكمة خاصّة يريدها، كما وقع لإبراهيم ـ عليه السلام ـ.

وكذلك هذا السحر الذي يفرقون به بين المرء وزوجه، يُنشىء هذا الأَثَرَ بإذن الله، وهو قادر على أن يوقف هذه الخاصية فيه، حين لا يأذن، لحكمة خاصة يريدها.

وهكذا بقية ما نتعارف عليه، بأنه مؤثِّرات وآثار. كل مؤثِّر مودَعٌ خاصية التأثير بإذن الله. فهو يعمل بهذا الإذن، ويمكن أن يوقِف مفعولَه، كما أعطاه هذا المفعولَ حين يشاء..» (١).

وإيمان المؤمن بهذه الحقيقة الإيمانية، يحقّق إيمانه بالله كما يريد الله، وإنّه يُبعدُ عن نفسه كل صورة من صور الشرك الجلي أو الخفي بالله، إنه لا يجعل الأسبابَ أو القوى أو الأشخاص شركاءَ لله، أو آلهة فاعلة من دون الله.

---

(١) الظلال: ١:٩٦.

ثم إن إيمانه بهذه الحقيقة الإيمانية، يُضْفي على حياته المعاني الإيجابية الحيّة، من العزّة والجرأة والشجاعة والإقدام، لأنه لا يخشى إلاّ الله، ولا يرجو إلاّ الله، ولا يخضع إلاّ لله، ولا يذل إلاّ لله.

وهذا يسكُبُ عليه معاني السعادة والهناء، والأمن والأمل، والرضى واليقين. وهذه المعاني يحتاجها كلُّ إنسان، ويخسر كلّ شيء إذا فقدها..

العلم الضارّ:

ماذا تعلَّم أهلُ بابل؟ لقد تعلموا السحر.

وماذا عملوا بذلك العلم؟ لقد استخدموه في إيقاع الضرر، والتفريق بين المرء وزوجه.

كان بمقدورهم استخدامُ العلم فيما ينفع، ينفعهم وينفع الآخرين، ولكنّهم أبَوْا ذلك، واستخدموه فيما يضر ويؤذي.

وقد سجل القرآنُ هذا التصرف العجيب بقوله: «وَيَتَعَلَّمونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ، وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاه مَالَهُ في الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقْ، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونْ».

وإن الإنسان البصير ليتعجب من أولئك، ويأسىٰ لهم ويحزن لِمَا أصابهم، حيث تعلّموا ما يضرّهم ولا ينفعهم، كان بمقدورهم استخدامُ العلم فيما ينفع، فحوّلوه إلى ما يضرّ. فأوقع الضرر والشرّ بهم.

من العلم ما ينفع، ومن العلم ما يضرّ!

وتعلُّم العِلْمِ شاق وعسير، ويحتاج إلى جهود ونفقات وأوقات، يعلمها كل من أنفقها ليتعلم.

والإنسان يجد راحةً ولذةً في طلب العلم، ويستعذب كل ما يبذله في

سبيل تعلُّمه، لأنه ينظر إلى النهاية والثمرة، فتحدُوه إلى متابعة المسيرة.

فكيف إذا بذل طالب العلم ما بذل، وشقي في تحصيل العلم ما شقي، ثم ينظر في حصيلة ما جنى واكتسب، فإذا به يضرُّه ولا ينفعه. كم ستكون خسارته؟ ألا تنظرُ لهذا الخاسر نظرة إشفاق وحزن؟ ألا تعتقد بأنّه لو بقي جاهلاً لكان خيراً له؟ كما قال الشاعر الجرجاني:

وَلَمْ أَبْتَذِلْ فِي خِدْمَةِ العِلْمِ مُهْجَتي لِأَخْدِمَ مَنْ لَاقَيْتُ لَكِنْ لَأُخْدَمَا
أَأَشْقَىٰ بِهِ غَرْسَاً وَأَجْنِيْهِ ذِلَّةً إِذَنْ فَاتِّبَاعُ الجَهْلِ قَدْ كَانَ أَسْلَمَا

وإذا نظرتَ إلى الذين يطلبون العلوم الدنيوية اليوم، فكم من هؤلاء من يتعلمون ما ينفعهم، وكم من هؤلاء من يتعلمون ما يضرهم. كم من العلوم اليومَ ما تضرُّ أصحابها ولا تنفعهم، ويحققون بها الشر والأذى، بدل الخير والنفع.

العلوم التي تردُنا من العالم الغربي، معظمها مما يضرّ ولا ينفع، وإلا فما هو النفع في الموسيقى والرسم والنحت والتمثيل والسياحة والآثار؟؟.

لو كانوا يعلمون:

وردَتْ هذه العبارة «لو كانوا يعلمون» مرتين في قصّة هاروت وماروت:

المرة الأولى: في سياق ذمّ أهل بابل لتعلّمهم السحر، واستخدامه فيما يضرّ «وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ في الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَو كَانُوا يَعْلَمُون».

وفي هذا نفيٌ للعلم عنهم، فلو كانوا يعلمون، لما تعلّموا ما يضرّهم ولا ينفعهم، ولو كانوا يعلمون لما تركوا الآخرة، وَلَمَا زهدوا في نصيبهم منها، ولو كانوا يعملون لما باعوا أنفسهم للباطل والشر والأذى والشيطان.

هل هناك صاحب علمٍ نافع يتصرف هذا التصرف؟ هل هناك صاحب علم يؤْثر الدنيا على الآخرة؟ هل هناك من يزهد في الآخرة وخيراتها ونعيمها، ليُقبل على الشّر والباطل والشّيطان؟.

كل من فعل هذا، نوقن أنّه لا علم عنده، ولو حمل أرفع الشهادات العلمية، وأمضى في العلم سنوات عمره!

المرة الثانية: في سياق دعوتهم إلى البديل النافع، والطريق الصحيح، الذي يجب أن يقودهم له العَلم: «وَلَوْ أَنَّهُمْ آمنوا واتَّقَوْا، لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ الله خَيْرٌ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونْ».

لَو كَانوا يعلمون لاختاروا الإِيمان والتقوى، لو كانوا يعلمون لآثروا ثواب الله، وطلبوا الخير الذي عند الله.

وبما أنّهم لم يفعلوا ذلك، فهم لا يعلمون، وبما أنّ العلم لم يأخذ بأيديهم إلى ذلك فهو غيرُ موجود.

ولا ننسى ما ذكره القرآن عن سوء تصرُّف اليهود، وسوء نظرتهم للحقّ. قبل حديثه عن هاروت وماروت، واتِّباع اليهود للسحر، حيث قال:
«وَلَمّاجَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ الله مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ، نَبَذَ فَرِيْقٌ مِنَ الذِيْنَ أُتُوا الكِتابَ، كِتَابَ اللَّهِ، وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمونْ».

اليهود هناك تصرفوا تصرُّف الذين لا يعلمون، وهم هنا يسيرون في طريق الذين لا يعلمون، ولو كانوا يعلمون لما فعلوا ما فعلوا.

العلم المعْتَبَرُ هو الذي ينفع صاحبه ولا يضرُّه، والعلم المقبول هو الذي ينفع الآخرين. فإن لم يكن كذلك، فكأنّه غيرُ موجود، وأصحابه يكونون من الذين لايعلمون، ولو ظنّوا أنّهم يعلمون، فالعلم بنتيجته وثمرته!!.

٢

قِصَّة الَّذِي مَرَّ عليه السلام عَلَى القَرْيَة

قِصّةُ الَّذي مَرَّ على القَرْيَة

القصّة في سياقها القرآني :

قال تعالى : ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا

قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ

فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ

قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ

قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ

قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ

فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ

فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾[1].

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٥٩ .

تفصيلات القصة إسرائيليات:

أورد كثير من المفسرين والإخباريين تفصيلاتٍ لقصة الذي مرّ على القرية. وفسّروا بهذه التفصيلات كلام الله. وهذه التفصيلات لم تُنقل بحديث صحيح عن رَسُولِ الله ﷺ. ولذلك فهي من الإسرائيليات، التي يبدو عليها طابع الاختلاق والادعاء والبطلان.

قالت تلك الإسرائيليات: إن الذي مرّ على هذه القرية هو «عزير» وأن تلك هي «بيت المقدس» بعدما دمرها «بختنصر» وأجلى اليهود منها إلى بابل.

ونورد فيما يلي رواية واحدة من تلك التفصيلات الإسرائيلية، لنحذِّر منها:

روى السيوطي في الدر المنثور عن ابن عباس وكعب الأحبار والحسن البصري ووهب بن منبه قالوا:

إن «عُزَيْراً» كان عبداً صالحاً. خرج ذات يوم إلى «ضَيْعَةٍ» له يتعاهدها. فلما انصرف انتهى إلى خِربةٍ ـ وهي خرائب وأطلال بيت المقدس ـ وحين قامت الظهيرة، أصابه الحر، فدخل الخربة وهو على حمار له، فنزل عن حماره، ومعه سلَّة فيها تين، وسلَّة فيها عنب، فنزل في ظل تلك الخربة.

وأخرج قصعة معه، فاعتصر من العنب الذي كان معه في القصعة، ثم أخرج خبزاً يابساً معه، فألقاه في تلك القصعة، ليبتل ليأكله، ثم استلقى على قفاه، وأسند رجليه إلى الحائط.

فنظر سُقف تلك البيوت، ورأى منها ما فيها، وهي قائمة على عُرشها، وقد باد أهلها، ورأى عظاماً بالية، فقال: «أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا». فلم يشك أن الله يحييها، ولكن قالها تعجباً.

فبعث الله ملك الموت، فقبض روحه. فأماته الله مائة عام.

فلمـا أتت عليه مـائةُ عـام، وكان فيمـا بين ذلك في بني إسـرائيل أمـورٌ وأحـداث، فبعث الله إلى «عُزَيْـر» ملَكاً، فخلق قلبَـه ليعقل بـه، وعينيه لينـظر بهمـا، فيعقل كيف يحيـى الله المـوتى، ثم ركَّب خلقـه وهـو ينـظر، ثم كسـا عظامَه اللحم والشعر والجلد، ثم نفـخ فيه الروح، كل ذلك يرى ويعقل.

فاستوى جالساً فقال له الملَك: كم لبثتَ؟ قال: لبثتُ يومـاً ــ وذلك أنـه كـان نام في صـدر النهار عنـد الـظهيـرة، وبُعث في آخـر النهـار والشمس لم تغب ــ أو بعض يوم، ولم يتم لي يوم.

فقال له الملك: بل لبثتَ مائةَ عام. فانظر إلى طعامك وشـرابك، يعني بالطعام الخبزَ اليابس، وبالشراب العصيرَ الذي اعتصره في القصعـة، فإذا همـا على حالهما، لم يتغيـرا، فذلك قوله «لم يَتَسَنَّهْ» أي لم يتغيـر. وكذلـك التين والعنب غضٌّ لم يتغير عن حاله.

وكأنه أنكر ذلك في قلبه.

فقال له الملَك: أنكرتَ ما قلتُ لَكَ، أُنظر إلىحمارك. فنظر إلى حمـاره قد بليت عظامه وصارت نخرة! فنادى الملَك عظام الحمـار فأجـابت، وأقبلت من كل ناحية، حتَّى ركَّبها الملَك وعزيرٌ ينظر إليها، ثم ألبسهـا العروق والعصب، ثم كسـاها اللحم، ثم أنبت عليهـا الجلد والشعر، ثم نفـح فيـه الملَك، فقام الحمار، رافعاً رأسه وأذنيه إلى السماء ناهقاً، فذلك قوله تعالى: ﴿وَانْـظُرْ إلى حِمارِك، وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنـاسِ، وَانْظُر إلى العِـظَامِ كَيْـفَ نُنْشِزُهَـا ثُمّ نَكْسُوهَـا لَحْماً﴾ يعني انظر إلى عظام حمارك، كيف يرْكب بعضهاً بعضاً في أوصالهـا، حتى إذا صارت عظاماً صارت حمـاراً بلا لحم، ثم انـظر كيف نكسوها لحماً. «فلما تبيَّن له قال: أعلم أن الله على كل شيء قدير» من إحياء الموتى وغيره.

فـركب حماره حتى أتى محلَّتـه فأنكـره الناسُ، وأنـكـر النـاسَ، وأنكـر

منـازلَه. فـانطلق على وهْم منـه، حتى أتى منـزلـه، فـإذا هـو بعجـوز عميـاء مُقعَدة، قد أتى عليها مائةٌ وعشرون سنـة، كانت أَمَـةً لهم، خرج عنهم «عُزَيْر» وهي بنت عشرين سنة، وكانت عرفتْه وعقلتْه.

فقال لها عزير: يا هذه أهذا منزل عزير؟

قالت نعم. وبكت. وقالت: مـا رأيت أحداً من كـذا وكذا يـذكر عـزيراً، وقد نسيه الناس.

قال: فإني أنا عزير.

قالت: سبحان الله! فإن عزيراً قد فقدناه منـذ مائـة سنة، فلم نسمـع لـه بذكر!.

قال: فإني أنا عزير، كان الله قد أماتني مائة سنة، ثم بعثني!.

قالت: فإن عزيراً كان رجلاً مستجاب الدعوة، يدعو للمريض ولصاحب البلاء بالعافية والشفاء، فادع الله أن يرد عليّ بصري حتى أراك، فإن كنتَ عزيراً عرفتُكَ.

فدعا ربّه، ومسـح يده على عينيها ففتَحَتْهُما، وأخذ بيدهـا وقال: قـومي بإذن الله، فأطلق الله رجلَها فقامت صحيحة، كأنّما نشطت من عِقال.

فنظرت إليه، فقالت أشهد أنّك عزير.

فانطلقتْ إلى مَحَلَّة بني إسـرائيل، وهم فـي أنـديتهم ومجالسهم. وابنٌ لعزير شيخٌ ابنُ مائة وثمان عشرة سنة، وبنو بنيه شيوخٌ فـي المجلس.

فنادتهم فقالت: هذا عزير قد جاءكم!

فكذّبوها.

فقـالت: أنا مـولاتكم فلانـة، دعا لي ربـه، فـردَّ عليَّ بصـري، وأطلق رجلي، وزعم أن الله كان أماته مائة سنة، ثم بعثه.

فنهض الناس، فأقبلوا إليه، فنظر إليه ابنه، وقال: كانت لأبي شامةٌ سوداء بين كتفيه! فكشف عن كتفيه، فإذا هو عزير!.

فقالت بنو إسرائيل: فإنه لم يكن فينا أحد حفظ التوراة غيرَ عزير، وقد حرَّق بختنصر التوراة، ولم يبقَ منها شيء إلَّا ما حفظت الرجال، فاكتبْها لنا.

وكان أبوه «سَروخا» قد دفن التوراة أيام بختنصر، في موضع لم يعرفه أحد غير عزير، فانطلق بهم إلى ذلك الموضع، فحفره، فاستخرج التوراة، وكان قد عَفِن الورق ودَرَسَ الكتاب.

فجلس في ظل شجرة، وبنو إسرائيل حوله، فجدد لهم التوراة، فنزل من السماء شهابان حتى دخلا جوفه، فتذكر التوراة، فجددها لبني إسرائيل.

فمن ثَمَّ قالت اليهود: عُزَيْر ابن الله. للذي كان من أمر الشِّهابَيْن، وتجديدِه للتوراة، وقيامِه بأمر بني إسرائيل.

وكان جدّد لهم التوراة بأرض السواد، بدير «حِزْقيل». والقرية التي مات فيها يقال لها «سابر آباد»[1].

رأي الطبري في هذه التفصيلات:

للإمام ابن جرير الطبري رأيٌ سديد في تفصيلات الذي مرَّ على القرية، ونقدٌ علمي رصين على تفصيلات قصته.

قال: «وَأَوْلى الأقوال في ذلك بالصواب، أن يقال: إن الله تعالى ذكْرُه، عجَّب نبيّه ﷺ ممن قال ـ إذ رأى قرية خاويةً على عروشها ـ «أنّى يحيي هذه الله بعد موتها؟» مع علمه أنه ابتدأ خلقَها من غير شيء، فلم يقنعه علمه بقدرته على ابتدائها، حتى قال: أنّى يحيي الله بعد موتها!

(١) الدر المنثور للسيوطي ٢: ٢٧ ـ ٢٩.

ولا بيان عندنا من الوجه الذي يصحّ من قِبَله البيان، على اسم قائل ذلك.

وجائز أن يكون ذلك «عزيراً»، وجائز أن يكون «أورميا» ولا حاجة بنا إلى معرفةِ اسمه، إذ لم يكن المقصود بالآية تعريفَ الخلق اسمَ قائل ذلك.

وإنما المقصود بها تعريفُ المنكرين قدرةَ الله على إحيائه خَلْقَهُ بعد مماتهم، وإعادتِهم بعد فنائهم، وأنه الذي بيده الحياة والموت ــ من قريش ومَنْ كان يكذِّب بذلك من سائر العرب ــ وتثبيت الحجة بذلك، على مَن كان بين ظهراني مهاجَر رسول الله ﷺ، من يهود بني إسرائيل، باطلاعه نبيَّه محمداً ﷺ على ما يزيل شكَّهم في نبوته، ويقطع عذرَهم في رسالته.

إذ كانت هذه الأنباء التي أوحاها إلى نبيّه محمد ﷺ في كتابه، من الأنباء التي لم يكن يعلمها محمد ﷺ وقومه، ولم يكن علم ذلك إلّا عند أهل الكتاب، ولم يكن محمد ﷺ منهم، بل كان أمّياً، وقومُه أمّيّون.

فكان معلوماً بذلك عند أهل الكتاب أن محمداً ﷺ، لم يعلم ذلك إلّا بوحي من الله إليه.

ولو كان المقصود بذلك الخبرَ عن اسم قائل ذلك، لكانت الدلالة منصوبةً عليه نصباً يقطع العذر، ويزيل الشك. ولكن القصد كان إلى ذم قيله، فأبان تعالى ذِكْرُهُ ذلك لخلقه»[1].

ورأي سيد قطب منها:

وللأستاذ الإمام سيد قطب رأيٌ لطيف، وموقف رصين من تلك التفصيلات الإسرائيلية.

---

(١) تفسير الطبري ٥: ٤٤١ ــ ٤٤٢.

قال: «مَنْ هو الذي مرَّ على قرية؟ ما هذه القرية التي مرّ عليها وهي خاوية على عروشها؟

إن القرآن لم يُفصح عنهما شيئاً، ولو شاء الله لأفصح، ولو كانت حكمةُ النص لا تتحقق إلاّ بهذا الإفصاح ما أهمله في القرآن.

فلنقف نحن ــ على طريقتنا في هذه الظلال ــ عند تلك الظلال.

إن المشهد ليرتسم للحس قوياً واضحاً موحياً.. مشهد الموت والبلى والخواء.. يرتسم بالوصف «وهي خاوية على عروشها». محطّمة على قواعدها. ويرتسم من خلال مشاعر الرجل الذي مرّ على القرية. هذه المشاعر التي ينضح بها تعبيره: أَنّى يحيي هذه الله بعد موتها؟»[1].

السياق الذي وردت فيه القصة:

وردت قصة الذي مرّ على قرية في سياق خاص، هو سياق الحديث عن الحياة والموت.

سبقتْها إشارةٌ إلى قصة إبراهيم الخليل عليه السلام مع الملِك الذي ادّعى الربوبية، ومناقشةِ إبراهيم له، وإقامتِه الحجّةَ عليه.

وجاءت بعدها إشارةٌ إلى قصة إبراهيم عليه السلام، مع مثال عملي للحياة والبعث، وهو الطيور التي أَتْته سعياً.

وحتى نعيش في جو «الحياة والموت» ونلحظ الظلال العامة للسياق، نورد الآيات الثلاث:

---

(١) الظلال ١: ٢٩٩.

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ

إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ

قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ

قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ
ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ
مَوْتِهَا ۖ

فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ

قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ

قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ

قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ

فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ
ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا
لَحْمًا ۚ

فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ

قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ

قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا

وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾[١].

قال الأستاذ الإمام سيد قطب عن موضوع الآيات الثلاث: «هذه الآيات الثلاث تتناول موضوعاً واحداً في جملته: سرُّ الحياة والموت، وحقيقةُ الحياة والموت.

وهي بهذا تؤلف جانباً من جوانب التصور الإسلامي، يُضاف إلى القواعد التي قررتها الآيات السابقة، منذ مطلع هذا الجزء، وتتصل اتصالاً مباشراً بآية الكرسي، وما قررتْه من صفات الله تعالى..

وهي جميعاً تمثّل جانباً من جوانب الجهد الطويل المتجلّي في القرآن، لإنشاء التصور الصحيح لحقائق هذا الوجود، في ضمير المسلم وفي إدراكه»[٢].

أنّى يحيي هذه الله بعد موتها؟

لمّا شاهَد ذلك الرجل القرية، وهي خاويةٌ على عروشها، انطلق لسانه بهذا التساؤل العجيب: ﴿قال أَنّى يُحْيي هٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِها؟﴾.

وهل تساءَلَ هذا التساؤلَ لأنه يشكّ في قدرة الله على إحياء الموتى، وإحياءِ تلك القرية بعد موتها؟ وهل مبعث التساؤل هو شكُّه في القدرة الربّانية؟

بعض المفسرين قال بهذا، واعتبره لذلك شاكّاً في قدرة الله، ومعلوم أنّ الشك في قدرة الله المطلَقة كفرٌ، وأن الشاكّ في ذلك كافرٌ وليس مؤمناً.

---

(١) سورة البقرة: آيات ٢٥٨ ــ ٢٦٠.

(٢) الظلال ١: ٢٩٦.

فكيف يكون شاكّاً بالله، أَيْ كافراً به، مع قولهم بأنه «عزير» وأنه كان نبياً؟

لكن جمهورَ المفسرين على أن الرجل كان مؤمناً بالله، مؤمناً بقدرة الله المطلقة، مؤمناً ببعث الله للموتى.

قال سيد قطب: «إن المشهد ليرتَسم للحس قوياً واضحاً موحِياً. مشهد الموت والبلى والخواء.. يرتسم بالوصف ﴿وهي خاويةٌ على عروشها﴾ محطمةٌ على قواعدها. ويرتسم من خلال مشاعر الرجل الذي مرَّ على القرية. هذه المشاعر التي ينضح بها تعبيره ﴿أنّى يحيي هذه الله بعد موتها؟﴾».

إن القائل ليعرف أن الله هناك. ولكن مشهدَ البلى والخواء ووقْعَه العنيف في حسّه جعله يحار: كيف يحيي هذه الله بعد موتها؟ وهذا أقصى ما يبلغه مشهد من العنف والعمق في الإيحاء. وهكذا يلقي التعبيرُ ظلالَه وإيحاءاتِهِ، فيرسم المشهد كأنما هو اللحظة شاخِص تجاه الأبصار والمشاعر.

أَنّى يحيي هذه الله بعد موتها؟

كيف تدبّ الحياة في الموات؟»[1].

تساؤل الرجل إذن، لم يكن لشكّه في قدرة الله على إحياء الموتى. وإنما كان نتيجةَ المفاجأة مما يراه أمامه. قريةٌ ميتة خاوية على عروشها، كيف يحييها الله.

ثم الرجل قال: أنّى يحيي هذه الله بعد موتها؟ ولم يقل: هل يحيي هذه الله بعد موتها؟.

صحيح أن الكلمتين «أنّى» و«هل» للاستفهام. لكن السائل يعبِّر بهل

(١) الظلال ١ : ٢٩٩.

إذا شك في قدرة وقوة صاحبه على فعل الشيء. عندما يقول له «هل تقدر على حمل هذا؟»، أما إذا قال له: «أنّى أنت تحمل هذا؟» فإنه يسأل عن الكيفية.

فالرجل كان يحب أن يعرف كيف يحيي الله القرية بعد موتها. يحب أن يرى هذا، أو يطلعَ عليه.

وهذا التساؤل كتساؤل إبراهيم عليه السلام، الذي ذكرتْه الآية السابقة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيم: رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى؟ قَالَ: أَوَلَمْ تُؤْمِنْ؟ قَالَ: بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي... ﴾[1]، وهذه كتلك، لأن السياق واحد.

معجزات في قصة الذي مر على القرية:

يقدِّم لنا القرآن ـ وهو يعرض قصة الذي مرّ على القرية ـ معجزاتٍ ربانية في موضوع الحياة والموت والبعث والصلاح والفساد، وهي تدل على قدرة الله المطلقة، التي لا تخضع لقوانين الكون ونواميسه وسننه، لأن الله هو الذي خلق النَواميس والسنن، وجعلها تحكم حياة البشر، ولكنها لا تحكم الله سبحانه، ولا تقيدُ إرادته ومشيئته.

من هذه المعجزات:

١ ـ أماتهُ الله لهذا الرجلِ مائةَ عام، ثم بعثْه له: «فأماته الله مائة عام ثم بعثه».

وكان ذلك الموت والبعث جواباً على تساؤله «أنَّىٰ يحيي هذه اللَّهُ بعد موتها؟» حيث أراه الله بعينيه تجربةً عملية، جرت معه شخصياً، أخذ منها الجواب على تساؤله. فها هو قد مات مائة عام ثم بُعث، والله الذي فعل هذا به قادر على إحياء القرية بعد موتها.

«لم يقل له كيف. إنما أراه في عالم الواقع كيف! فالمشاعر والتأثرات تكون أحياناً من العنف والعمق بحيث لا تعالَج بالبرهان العقلي، ولا حتى

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٥٩.

بالمنطق الوجداني، ولا تعالَج كذلك بالواقع العام الذي يراه العيان.. إنما يكون العلاج بالتجربة الشخصية الذاتية المباشرة، التي يمتلىء بها الحس، ويطمئن بها القلب، دون كلام!»[1].

٢ ـ موتُ حماره، وبقاءُ عظامه، هيكلاً عظمياً، مجرَّداً من اللحم والدم والوبر. وهو ما نأخذه من قوله ﴿وانظر إلى حمارك، ولنجعلك آية للناس﴾.

ثم بعْثُ الله لذلك الحمار، بطريقةٍ معجزةٍ، رآها الرجل أمام عينيه: ﴿وَانْظُرْ إلى العِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْماً﴾. حيث رأى الهيكلَ العظميَّ للحمار، ثم رأى ـ وبالتدريج العجيب المعجز ـ اللحم ينبت على العظام شيئاً فشيئاً، ويكسوها تباعاً، حتى تكامَلَ تركيبُ اللحم عليها، وعاد للحمار جسمُهُ الذي كان لهُ.

ثم أعاد الله له روحَه، فسرتْ في جسمه، ودبَّتْ فيه الحياة!.

٣ ـ عَدَم تغيُّر طعامِه وشرابِه طيلة هذه السنوات المائة! ﴿فَانْظُرْ إلى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾. حيث بقي محتفظاً بفائدته وقيمته، وصالحاً للاستعمال البشري، لم تصل إليه عفونة، ولم يتطرقْ إليه فساد.

ويبدو لنا الاعجاز الباهر في هذا الاختيار الرباني:

فالمتوقَّع أن تطول حياته ـ وفق نظرة البشر وتقديراتهم ـ أماته الله، وهو ذلك الرجل وحماره.

والمتوقَّع منه سرعة الفساد والخراب والعفونة والبلى، وهو الطعام والشراب، أبقاه الله صالحاً طيباً مقبولاً، بدون تغيُّر أو تعفُّن، لمدة مائة سنة.

لقد ازداد ذلك الرجل المؤمن إيماناً ويقيناً، وتصديقاً واطمئناناً، لمّا شاهد تلك المعجزات معه.

---

(١) الظلال ١ : ٣٠٠.

ولقد ازددنا نحن الذين نقرأ هذه القصة في القرآن، ونتابع في كل مرة لقطاتها ــ بتلهُّف وتأثر وانفعال ــ إيماناً ويقيناً، وتصديقاً واطمئناناً، عندما قرأنا عن تلك المعجزات الربانية الباهرة.

كان موته موتاً خاصاً:

قد يعتبر بعضهم أن موتَ ذلك الرجل مائة عام ثم بعْثَه، متعارضٌ مع النصوص الأخرى التي تقرر أن الإنسان عندما يموت، لا ترجع له روحه إلا عند البعث يوم القيامة.

من تلك النصوص قوله تعالى: ﴿حَتّى إذا جاءَ أَحَدَهُمُ المَوْتُ قال: رَبِّ ارْجِعُونِ .لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيما تَرَكْتُ. كَلّا: إِنهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾(١).

ومنها قوله تعالى: ﴿ما يَنْظُرُونَ إلَّا صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وهُمْ يَخِصّمون، فلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً، وَلَا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾(٢).

ولكننا لا نرى تعارضاً في ذلك:

فتلك النصوص تقرر حقيقةً قاطعةً، وهي أن الإنسان عندما يموت لا يعود للحياة الدنيا، ولا يرجع إليها، إنه قد غادر هذه الحياة الدنيا، وروحُه تعود لجسده في قبره، ويبقى فيها منعَّماً أو معذَّباً ــ حسب عمله في الدنيا ــ إلى يوم القيامة، حيث يبعثه الله مع المبعوثين من قبورهم.

لكنه الإنسان الذي يموت موتاً حقيقياً، وينتهي أجله في الدنيا نهائياً، ويَستوفي ذلك الأجلَ الذي كتبه الله له قبل خلق الكون.

أما إذا قدَّر الله لرجل أو جماعة، أن يموت موتاً خاصاً، وقدَّر أن يكون له بقيةٌ من الأجل الذي قدَّره الله له منذ الأزل، فإن ذلك الموت ليس هو الموت الحقيقي النهائي الذي تنتفي معه العودة للحياة الدنيا.

---

(١) سورة المؤمنون: آيتا ٩٩ ــ ١٠٠.

(٢) سورة يٓس: آيتا ٤٩ ــ ٥٠.

ولذلك عندما طلب الشهداءُ من الله العودة للدنيا، ليقاتلوا ويُقتلوا في سبيله مرة أُخرى، لم يستجب لطلبهم، لأن الله قرر أن لا يرجعوا للدنيا:

فقد روى مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «أَرْواحُهُمْ في جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ. لها قناديلُ مُعَلَّقةٌ بالعَرْش. تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ. ثُمَّ تأوي إلى تِلْكَ القَناديل. فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ إِطْلاعَةً. فقال: هَلْ تَشْتَهونَ شَيْئاً؟ قالوا: أَيُّ شَيْءٍ نَشْتَهِي؟ وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا. فَفَعَلَ ذٰلِكَ بِهِمْ ثَلاثَ مَرَّات. فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكوا مِنَ أَنْ يَسْأَلوا، قالوا: يا رَبِّ: نُريدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْواحَنا في أَجْسادِنا حَتّى نُقْتَلُ في سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى. فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حاجَةً تُرِكوا»[1].

فهذا الرجل الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه، لم يكن موته هذا هو الحقيقيُّ النهائيّ، وإنما كان موتاً خاصاً، ليريه آياتٍ عملية من نفسه وطعامه وحماره، ويُري الآخرين آيات من قصته ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلناس﴾.

وبعد أن بعثه الله، عاش حياته الباقية له، واستوفى أجله الذي قدّره الله له. ثم مات الموت الحقيقي، كما يموت سائر البشر.

وليس هو أول منْ مات هذا الموت الخاص، ثم بُعث ليستكمل أجله. فقد أخبرنا القرآن الكريم عن مجموعات ثلاثة، جرى لها ما جرى له:

الأولى: فريق من بني إسرائيل زمن موسى عليه السلام، عندما طلبوا منه أن يروا اللّهَ جهرة، فأماتهم الله ثم بعثهم: ﴿وإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسَى: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّى نرى اللّهَ جَهْرَةً، فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُون. ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون﴾[2].

---

(١) مسلم (٣٣) كتاب الإمارة (٣٣) باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة. حديث (١٨٨٧).

(٢) سورة البقرة: آيتا ٥٥ ـ ٥٦.

الثانية: الذين خرجوا من ديارهم وهم ألـوف، فأمـاتهم الله ثم أحياهم: ﴿أَلَمْ تـَرَ إِلى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ، وَهُمْ أُلوفٌ، حَذَرَ الْمَـوْت، فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ: مُوتوا. ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾(١).

الثالثة: أَصحاب الكهف، الذين أماتهم الله ثلاثمائة سنة وتسع سنوات: ﴿وَلَبِثُوا في كَهْفِهِمْ ثَلاَثِمِائَةٍ سِنين، وَازْدادوا تِسْعاً﴾(٢).

من أدلّة البعث في القرآن:

من أكثـر الأمـور التي كـان يستغـربهـا الكفّار ويستبعـدونهـا، البعثُ والحساب يوم القيامة. كيف تُعاد أرواحهم في أجسادهم بعدما بليت وصـارت تراباً؟

وقد سجل القرآن شبهاتهم، وردّ عليها وفنّدها، في كثير من آياته، منها قوله تعالى: ﴿وقَال الَّـذينَ كَفَرُوا: هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُل يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُـلَّ مُمَزَقٌ إِنكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَـديدٍ؟ أَفْتَـرى عَلى اللَّهِ كَـذِبـاً؟ أَمْ بِـه جِنَّـة؟ بَـل اللذين لا يُؤمِنُونَ بالآخِرَةِفي العذاب والضلالِ البَعِيدِ﴾(٣).

وأورد القـرآن عدة أدلـة للبعث، ليقرر هـذه العقيدة في النفـوس، وهي أدلة يقينية صادقة، منتَزَعة من واقـع الحياة ومن أشياء يراها الناس ويعيشونهـا، فلا يشكُّون فيها لحظـة.

من أشهر هذه الأدلة:

١ ــ خلْق السمـوات على ضخـامتهـا وسَعتهـا، وخلْق الأرض على كبرها. فالله القوي القادر الذي خلق السمـوات، قادر على بعث هـذا الإنسان

(١) سورة البقرة: آية ٢٤٣.
(٢) سورة الكهف: آية ٢٥.
(٣) سورة سبأ: آيتا ٧ ــ ٨.

الصغير الضئيل. قال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذي خَلَقَ السَّمواتِ وَالْأَرْضَ ـ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ ـ بِقادِرٍ عَلى أَن يُحْيِيَ المَوْتى؟ بَلَى إنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير﴾[1].

٢ ـ حالةُ الأرض قَبْلَ نزول الماء عليها. كيف تكون ميْتة مجدِبة، وكيف تدب فيها الحياة بعد نزول الماء عليها، وتُنتج ما تنتج من أصناف النبات. فالذي أحياها بعد المَوات قادر على أن يُحيي الأموات من قبورهم. قال تعالى: ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرى الأَرْضَ خاشِعَة، فإذا أَنْزَلنا عليْها الماءَ اهتَزّتْ وَرَبَتْ، إنَّ الّذي أَحْياها لَمُحْيِ المَوْتَى. إنّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ﴾[2].

٣ ـ الانسانُ نفسه، وكيف خلقه الله من العدم. وأطوارُ حياته منذ أَنْ كان نطفة، ثم مراحل حياته في رحم أمه، ثم مراحل حياته على وجه الأرض، ثم موته ودفنه تحت التراب. فالله الذي خلقه، ورعاه في مراحل حياته، قادر على أنْ يبعثه يوم القيامة. قال تعالى: ﴿يا أَيُّها النّاس: إنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِنَ البَعْثِ، فَإنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ، ثُمّ من عَلَقَة، ثُمّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَة، لِنُبيِّنَ لَكُمْ، وَنُقِرُّ في الأرْحامِ ما نَشاءُ إلى أَجَلٍ مُسَمّى، ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً، ثُمّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفّى، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العُمُر، لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيئاً. وَتَرى الأَرْضَ هامِدَة، فَإذا أَنْزَلْنا عليها الماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ، وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهيج. ذٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الحَقّ، وأَنَّهُ يُحْيِي المَوْتَى، وأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدير. وأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فيها، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ في القُبور﴾[3].

٤ ـ قُدرةُ الله على خلقِ المتناقِضَات المتضادّات، فالله خلق الليلَ

(١) سورة الأحقاق: آية ٣٣.

(٢) سورة فصلت: آية ٣٩.

(٣) سورة الحج: آيتا ٥ ـ ٧.

والنهار، والظلامَ والنور، والماءَ والنار، والأخضرَ واليابس، والحياةَ والموت، وهو قادر على بعث الإنسان حياً بعد موته. قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لنا مَثَلاً، وَنَسِيَ خَلْقَهُ. قال: مَنْ يُحْيِي العِظامَ وَهِيَ رَميم؟ قُلْ: يُحْييها الذي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّة، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَليم. الذي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ ناراً، فإذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُون. أَوَلَيْسَ الّذي خَلَقَ السَّمواتِ وَالأرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ؟ بَلى. وهُوَ الخلاّقُ العَليم. إنما أَمْرُهُ إِذَا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون﴾[1].

٥ ــ معلوم لدى الناس أن إعادةَ الشيء مرة ثانية، من قِبَلِ الإنسان، أهونُ عليه من إنشائه أول مرة. وقد استخدم القرآن هذه البديهية دليلاً على البعث، فالله خلق الإنسان أول مرة، وأنشأه من العدم، وهو قادر على إعادته للحياة مرة ثانية، وبعْثِهِ من جديد. لأن الإعادةَ أهونُ عليه من الإنشاء ــ وهذا بالنسبة للإنسان، أما بالنسبة لله فإنه ليس أمامه صعب، فالكل عنده هيّن، لأنه فعّال لما يريد، ولا يُعجزه شيء في الأرضِ ولا في السماء، وإذا أرادَ شيئاً فيقول له: كن فيكون ــ قال تعالى: ﴿وهُوَ الذي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ، وَلَهُ المَثَلُ الأعْلَى في السّمواتِ وَالأَرْضِ، وَهُوَ العزِيْزُ الحَكِيمُ﴾[2].

٦ ــ أحال القرآن على دليلٍ عملي يومي، يَحْدُث لكل إنسان منّا يومياً! إنه أمْر النوم واليقظة. كلُّ واحد منا يعمل في يومه ونهاره، وفي الليل يدب إليه النعاس، ويسيطر عليه النوم فينام. وهو نائم يكون ميتاً، حيث تخرج روحه من جسده، وعندما يستيقظ يرُدُّ الله إليه روحه، ويبعثه من موته. إن النومَ موت. والاستيقاظَ بَعْثٌ. وبما أن الله يُجري هذا الأمر لكل منا يومياً، فهو قادر على بعث الأموات يوم القيامة.

---

(١) سورة يٰسن: آيتا ٧٨ ــ ٨٢.

(٢) سورة الروم: آية ٢٧.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتوفّاكُم في الليل، وَيَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ، ثُمّ يَبْعَثُكُمْ فِيْهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُسَمّىً، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ، ثُمّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونْ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوفّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا، والتي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِها، فَيُمْسِكُ التي قَضَى عَلَيْهَا الموتَ، وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إلى أَجَلٍ مُسَمّى، إن في ذٰلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتفكّرون﴾(٢).

٧ ــ يقدم القرآن معجزاتٍ ربّانية دليلاً على البعث. منها:

﴿الذينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ المَوْتِ. فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ: مُوتوا. ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾(٣).

وما حصل مع إبراهيم عليه السلام، حيث قال له الله: ﴿خُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ، فَصُرْهُنَّ إِلَيْك، ثُمَّ اجْعَلْ على كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً. ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَك سَعْياً﴾(٤).

وما جرى مع الرجل المؤمن الذي مر على قرية، وقال: ﴿أنَّى يُحْيِي هٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا؟ فَأَمَاتهُ اللَّهُ مِائَةَ عامٍ ثُمَّ بَعَثَه﴾(٥).

وما جرى مع أصحاب الكهف، حيث أماتهم الله ثلاثمائة وتسع سنوات. ثم بعثهم: ﴿ثُمَّ بَعَثْناهُمْ، لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً﴾(٦).

---

(١) سورة الأنعام: آية ٦٠.

(٢) سورة الزمر: آية ٤٢.

(٣) سورة البقرة: آية ٢٤٣.

(٤) سورة البقرة: آية ٢٦٠.

(٥) سورة البقرة: آية ٢٥٩.

(٦) سورة الكهف: آية ١٢

قرآت في كلمات الآية:

هناك قراءات في ثلاث كلمات من الآية، ونورد فيما يلي تلك القراءات وتوجيهها، من كتاب «حُجَّةُ القراءات» لابن زنجلة:

الأولى قوله: «لَمْ يَتَسَنَّهْ» في جملة: «فَانْظُرْ إلى طَعَامِكَ وشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ».

قال الإمام ابن زنجلة:

قرأ حمزة والكِسائي «لم يَتَسَنَّ» بحذف الهاء في الوصل. أي لم تغيِّرْهُ السِّنون. والهاء زائدة للوقف.

وحجتُهما: أن العرب تقول في جمع السَّنة: سنوات. وفي تصغيرها سُنَيَّة. فالهاء زيدت لبيان الحركة في حال الوقف، فإذا وصل القارىء قراءته، اتصلت النون بما بعدها، فاستُغْني عن الهاء حينئذٍ، فطَرَحها لزوال السبب الذي أدخلها من أجله. وكان في الأصل «لم يتسنّى» فحُذِفَت الألفُ للجزم، وكان الفرّاءُ يقول: «لم يَتَسَنَّهْ». لم يتغير. من قوله «من حمأ مَسْنون» وكان الأصل«لم يتسَّنْ»ثم قُلبت النون الأخيرة ياءً، استثقالاً لثلاث نونات متواليات.

وقرأ الباقون: «لم يتسنّه» بإثبات الهاء في الوصل. أي لم تأتِ عليه السِّنون. فالهاء لام الفعل، وسكونها علامة الجزم.

وحجتُهم: أن العرب تقول: سَانَهْتُ مُسَانَهَةً. وفي التصغير «سُنيهَة» فلهذا أثبتوا الهاء في الوصل لأنها لام الفعل[1].

وخلاصة هاتين القراءتين. أنّهم اختلفوا في الفعل الماضي الذي أُخذ منه الفعل المضارع «يتسنّه».

---

(١) حجة القراءات لابن زنجلة: ١٤٢ ــ ١٤٣.

فعند حمزة والكسائي هو «سَنَنَ» ومضارعه «يَسْنَنُ» فالنون فيه أصلية، والهاءُ زائدة للوقف. وهو بمعنى التغير وعند الباقين، الماضي هو «سَنَهَ» ومضارعه «يَسْنَهُ» فالهاء فيه أصيلة، والمعنى واحد: أي لم يتغير.

الثانية: قوله: قوله «نُنْشِزُهَا» في جملة «كَيْفَ نُنْشِزُهَا»:

قال الإمام ابن زنجلة:

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: «نَنْشُرُها» بالراء. أي: كيف نُحييها. وحجتهم قوله قبلها﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِها؟﴾.

ولو كانت بالزاي «ننشزها» لكان معناها: كيف نرفعها من الأرض إلى الجسد. وذلك الرجل لم يكن في شك في رفع العظام، إنما شكُّه في إحياء الموتى. فقيل له: انظر كيف نَنْشُرُ العظام فنحييها.

وقرأ الباقون: «كَيْفَ نُنْشِزُهَا» بالزاي. أي نرفعها.

وحجتهم قوله: ﴿وَانْظُرْ إِلى العِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا﴾ وذلك أن العظام إنما توصَف بتأليفها،وجمْع بعضها إلى بعض، إذا كانت نفسها لا توصف بالحياة.

وحجةٌ أخرى: قوله«ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمَاً» دل على أنها قبل أن يكسوها اللحم غيرُ أحياء، لأن العظم لا يكون حيّاً وليس عليه لحم. فلما قال: «ثم نكسوها لحماً» عُلم بذلك أنّه لم يحيها قبل أن يكسوها اللحم»[1].

فالخلاصة أنّها: إمّا أن تكون بالراء «نَنْشُرُهَا» وهو من النشور بمعنى الإحياء. أي إن الله نَشَر العظام، وجعل الحياة تدبّ فيها.

وإمّا أن تكون بالزاي «نُنْشِزُهَا» وهو من النشوز بمعنى الارتفاع. أي أنّ الله يُنْشِزُ العظام ويرفعها عن الأرض، ويركّب بينها، ثم يكسوها اللحم.

(١) حجة القراءات: ١٤٤.

الثالثة: قوله «اعلم» من جملة «قال: أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِير».

قال الإمام ابن زنجلة:

قرأ حمزة والكسائي: «قَالَ: إِعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْر» جَزْمَاً عَلَى الأَمْر مِنَ الله.

وحجتُهما: قراءةُ ابن مسعود «قيلَ آعْلَمْ أَنَّ الله على كل شيء قدير».

وكان ابن عباس يقرؤها أيضاً: «قال: اعْلَمْ» ويقول: أهو خير أم إبراهيم، إذ قيل له: «وَاعْلَمْ أَنَّ الله عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ».

وحجةٌ أخرى: وهي التوفيق بين ذلك وسائرِ ما تقدَّمه، إذ كان جرى ذلك كلّه بالأمر. فقيل: فانظر إلى طعامك. وانظر إلى حمارك. وانظر إلى العظام. وكذلك أيضاً قوله: «إعلم أن الله» إذ كان في سياق ذلك.

قال الزّجّاج: من قرأ «إِعْلَمْ» فتأويله: أنّه يُقبل على نفسه فيقول: إعلم أيّها الإنسان أنّ الله على كلّ شيء قدير.

وقرأ الباقون: «قال: أَعلمُ» رفعاً على الخبر عن نفس المتكلّم.

وحجتهم: ما روى في التفسير قالوا: لمّا عاين من قدرة الله ما عاين قال: أَعْلَمُ أن الله على كل شيء قدير. قالوا: فلا وجه لأن يؤمر بأن الله على كل شيء قدير، وقد عاين وشاهد ما كان يستفهم عنه.

وقال الزّجّاج: ليس تأويل قوله: أَعْلَمُ أنّ الله على كل شيء قدير، أنّه ليس يعلم قبل ما شاهد، ولكن تأويله: إنّي علمتُ ما كنتُ أعلمه غيباً، مشاهدةً»[1].

---

(١) حجة القراءات: ١٤٤ ــ ١٤٥.

والخلاصة أنّها إمّا أن تكون «إِعْلَمْ» فعل أمر، فيأمره الله أن يعلم بعدما شاهد. أو يأمر هو نفسه أن تعلم.

وإما أن تكون فعلاً مضارعاً «أَعْلَمُ» أي أنّه يعترف بأنّـه علم، ويقرر عن نفسه حقيقة علمه.

في ختام كلامنا عن القراءات في الآية، نقرر أنّ هذه القراءات من عند الله، وليست باجتهاد القراء، ويجب قبولها، ولا يجوز الترجيح بينها.

إلى أيّة عظام ينظر؟

أمر الله ذلك الرجل أن ينظر إلى العظام. فقال له: «وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً».

وقد اختلف المفسرون في العظام التي أُمر أن ينظر إليها. هل هي عظامه هو؟ أم هي عظام حماره؟.

ذهب بعضهم إلى الأوّل. وقالوا إن الله بعثه بالتدريج، وإن الروح أول ما دبّت في قلبه، ثم في عينيه، حيث كان ينظر بعينيه إلى هيكله العظمي، وهو مجرد عظام بدون لحم، ثم رأى كسوتها بلحمه بالتدريج.

وهذا القول مردود، لأنه يَفترضُ حدوث أمور لذلك الرجل، لم يدل عليها حديث صحيح عن رسول الله ﷺ. فهي مستمدَّة من الإسرائيليات.

وذهب المحققون من المفسرين إلى الثاني، حيث أمره الله أن ينظر حوله، ليرى معجزاتٍ لله، تدل على قدرة الله على البعث وإحياء الموتى. ومنها عظام حماره.

قال الأستاذ الإمام سيد قطب: «أيّة عظام؟ عظامه هو؟ لو كان الأمر كذلك ـ كما يقول بعض المفسرين إن عظامه هي التي تعرَّتْ من

اللحم ــ للفت هـذا نظرَه عنـدما استيقظ، ووخـزَ حسّه كـذلـك، وَلَمـا كـانت إجابته «لبثتُ يوماً أو بعض يوم».

لذلك نرجّح أن الحمار هو الذي تعرَّتْ عظامُه وتفسّخت. ثم كانت الآية هي ضمُّ هذه العظام بعضها إلى بعض، وكسوتها باللحم، وردُّهـا إلى الحياة، على مرأى من صاحبه الذي لم يمسَّه البلى. ولم يُصب طعامَه ولا شرابه التعفن.

ليكـون هـذا التبـاين في المصـائـر، والجميع في مكـان واحـد، معـرَّضـون لمؤثـرات جـويّـة وبيئيـة واحـدة، آيـةً أخـرى على القـدرة التي لا يعجزها شيء، والتي تتصرف مطلَقَة من كل قيد، وليدرك الرجل كيف يحيي هذه الله بعد موتها»[1].

ونقف لحظة أمام كلمـة «كيف» في العبارة: «وانـظر إلَى العظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمّ نَكْسوها لَحْمَاً» حيث يُدعىٰ ذلك الرجل للوقوف على «الكيفية» كيفيةِ رفـع العـظام، وكيفيـةِ الجمـع بينهـا، وتـرتيبِهـا مـع بعضهـا، وتـوصيلِهـا مـع بعضها، بتناسق وانسجام، حتّى تكون هيكلاً عظميـاً متكامـلاً. ثم تُكْسى بعد ذلك باللحم، وهو يُدعى إلى الوقوف على «كيفية» كسائها باللحم.

وهذا التوجيه إلى إمعان النظر وملاحظةِ «الكيفية» يوحي لنا بأهمية معرفة «كيفية» الحقائق والظواهر المادية التي تحيط بنا، ومحاولة إنفاذِ النظرات فيها، وتحليلِها مادّياً وعمليّاً.

ولعل هذا التوجيه القرآني، كان هـو ــ وأمثالـه من التوجيهـات القرآنيـة الكثيرة التي تدعـو إلى ملاحـظة الكيفية للظواهـر الماديـة ــ من أكبر الحـوافز على تـوجُّه علمـاء المسلمين نحو «كيفيـات» العلوم الماديّـة، والوقـوف عليهـا وعلى تفصيـلاتها وجـزئيّاتهـا، وإيثارهم النـاحية العمليـة للعلوم على النـاحيـة

(١) الظلال ١ : ٣٠٠.

النظرية الذهنية، وتأسيسِهم للمنهج العلمي التجريبي المادي التطبيقي للعلوم، وسيرِهم فيه خطوات، قبل أن تغرب شمس التقدم العلمي عندهم، لتشرِق على العالَم الغربيّ، الذي أَخذَ منهجَ المسلمين التجريبيّ العلميّ وجَعَلَهُ أساس النهضة العلمية الغربية المعاصرة.

فالقرآن يحثّنا على الناحية العلمية التجريبية «المَعْمَلِيّة» وعلى الوقوف على «كيفية» حدوث الظواهر الكونية والفلكية.

قال تعالى: «أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَمَاءِ فَوْقَهُمْ: كَيْفَ بَنَيْنَاهَا، وَزَيَّنّاهَا، وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوج»(١).

وَقال تَعَالَى: «أَفلاَ يَنْظُرُوْنَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ، وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ»(٢).

العلم بعد التبيّن:

لمّا شاهد ذلك الرجل معجزات الله أمامه، وعرف أنّ الله أحياه بعد مائة سنة من موته، وتبيّن له الأمر، قال: «أَعْلَمُ أَنّ اَللهَ عَلَى كُلِّ شيء قَدِيْر».

ونقف لحظة أمام هذه الجملة، لنفهم عنها بعض ما توحي بِه:

إنّ الرجل مؤمنٌ بقدرة الله المطلقةِ، غيرُ شاك فيها، وعندما قال: أنّى يحيي هذه الله بعد موتها؟ لم يكن شاكاً في قدرة الله، وإنّما كان يريد أن يرى تجربة عمليّة واقعيّة، فَتَمَّت له التجربة، تمت معه هو شخصيّاً.

لكن إيمانه بقدرة الله زاد بعد ملاحظة تلك التجربة، ولم يبقَ على ما هو عليه قبلها.

---

(١) سورة قٓ: آية ٦.

(٢) سورة الغاشية: آيتا ١٧ ــ ٢٠.

ثم هذه التجربة العملية الميدانية، أوْجَدتْ عنده العلم اليقيني الواثق الجازم. وقد أخبَرنا عن أثرها عليه بقوله: «فلمّا تبيّن له قال: أعلم أن الله على كل شيء قدير».

لقد حصَلَ منها على العلم والجزم واليقين، وهذه أمور تُقوي الإيمان وتزيده.

ولعل هذا يقودنا إلى ملاحظة أثر الدليل العملي والنموذج الواقعي والمثال الحسّي، على تثبيت الحقائق النظرية ورسوخها والإيمان بها. . وهذا ملاحَظ عند الناس. فالطبيب تَبقى معلوماته الطبية نَظريةً ذهنية، ولا ترسخ وتثبت عنده إلا إذا ذهب للمعمل والمختبر، وقام بتجارب فيه، قام بها بيده، ولاحَظَها بعينيه.

وقل مثلَ هذا في المهندس والسائق والمعلم وغيرهم.

وفي قصّة إبراهيم عليه السلام مع طيوره ـ التي وردت بعد قصة ذلك الرجل ـ إشارةٌ إلى أهمّية التجربة العملية، وإلى أثرها في الإيمان والعلم والجزم واليقين: «خُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ، فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ، ثُمّ اجْعَلْ على كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً، ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا. وَاعْلَمْ أَنَّ الله عَزِيزٌ حَكيم».

فالرجل المؤمن قال بعدما شاهد المعجزات: «أَعْلَمُ أن الله على كل شيء قدير».

وإبراهيم عليه السلام، يأمره الله بالعلم بعد التجربة «واعْلَمْ أنّ الله عزيزحكيم».

وكأن هذه الأمثلة القرآنية تدعونا إلى الالتفات إلى الأمثلة والنماذج والتجارب العملية، التي تُصدِّق وتثبت المعلومات النظرية الذهنية، وأن نستخدمها في عرض حقائق الدين وقضاياه.

سيد قطب يناقش الماديين :

وقف سيد قطب وقفةً لطيفةً، حيث اعتبر قصة الذي مرّ على القرية، وما تحمله من معجزات ربانية حول قدرة اللَّه على الموت والحياة، فرصة مناسبة لمناقشة الأفكار المادية. فناقش الماديين الملحدين الذين ينكرون قدرة الله والبعث بعد الموت، وَيْنفون وجود الله. ونورد فيما يلي كلامه في مناقشتهم:

«أمّا كيف وقعت الخارقة؟ فكما تقع كل خارقة! كما وقعت خارقة الحياة الأولى. الخارقة التي ننسى كثيراً أنها وقعت، وأننا لا ندري كيف وقعتْ! ولا ندري كذلك كيف جاءت، إلا أنها جاءت من عند الله، بالطريق التي أرادها الله . .

وهذا «دارون» أكبر علماء الحياة يظل ينزل في نظريته بالحياة درجة درجة، ويتعمق أغوارها قاعاً قاعاً، حتى يردَّها إلى الخلية الأولى. ثم يقف بها هناك.

إنه يجهل مصدر الحياة في هذه الخلية الأولى. ولكنه لا يريد أن يسلِّم بما ينبغي أن يسلِّم به الإدراك البشري، والذي يلح على المنطق الفطري إلحاحاً شديداً. وهو أنه لا بد من واهب، وهب الحياة لهذه الخلية الأولى.

لا يريد أن يسلِّم، لأسباب ليست علمية، وإنما هي تاريخية في صراعه مع الكنيسة! فإذا به يقول: (إن تفسير شؤون الحياة بوجود خالق، يكون بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة، في وضع ميكانيكيٍّ بحت!).

أيُّ وضع ميكانيكي؟! إن الميكانيكية هي أبعد شيء عن هذا الأمر، الذي يَفرض على الإدراك فرضاً، أن يبحث عن مصدر لهذا السر القائم تجاه الأبصار والبصائر!.

وإنه ــ هو نفسه ــ ليجفل من ضغط المنطق الفطري، الذي يُلجيء

الادراك البشري إلجاءً إلى الاعتراف بما وراء الخلية الأولى، فيُرجع كلَّ شيء إلى «السبب الأول»! ولا يقول: ما هو هذا السبب الأول؟ ما هو هذا السبب الذي يملك إيجاد الحياة أول مرة، ثم يملك ـ حسب نظريته هو، وهي محل نظر طويل ـ توجيهَ الخلية الأولى في طريقها، الذي افترض هو أنها سارت فيه صعداً، دون أي طريق آخر غير الذي كان! إنه الهروب والمراء والمحال.

ونعود إلى خارقة القرية لنسأل: وما الذي يفسر أن ينال البلى شيئاً، ويترك شيئاً، في مكان واحد وفي ظروف واحدة؟ إن خارقة خلق الحياة أول مرة أو خارقة رجْعها كذلك، لا تفسِّر هذا الاختلاف في مصائر أشياء ذات ظروف واحدة.

إن الذي يفسِّر هذه الظاهرة هو طَلاقةُ المشيئة. طلاقتها من التقيد بما نحسبه نحن قانوناً كلياً لازماً ملزِماً، لا سبيل إلى مخالفته أو الاستثناءِ منه.

وحسباننا هذا خطأٌ بالقياس إلى المشيئة المطلقة: خطأ منشوه أننا نفرض تقديراتِنا نحن ومقرراتنا العقلية أو «العلمية!» على الله سبحانه! وهو خطأ يتمثل في أخطاء كثيرة:

فأوّلاً: مالنا نحن نحاكم القدرة المطلقة إلى قانون نحن قائلوه؟ قانونٌ مستَمَدٌّ من تجاربنا المحدودة الوسائل، ومن تفسيرنا لهذه التجارب ونحن محدودو الإدراك؟

وثانياً: فهبه قانوناً من قوانين الكون أدركْناه. فمن ذا الذي قال لنا: إنه قانون كلي نهائي مطلق؟ وأنْ ليس وراءه قانون سواه.

وثالثاً: هبْهُ كان قانوناً نهائياً مطلقاً. فالمشيئة الطليقة تُنشِئُ القانون، ولكنها ليست مقيَّدةً به. إنّما هو الاختيار في كل حال»[1].

---

(١) الظلال ١: ٣٠٠ ـ ٣٠١.

٣

قِصَّةُ ٱبْنَيْ آدَمَ

قِصَّةُ ٱبْنَيْ آدَم

القصة في العرض القرآني :

قال تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ

قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ

قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾

فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾

فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ

قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾

مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ

أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾[1].

نجاح الشيطان في إغواء ابن آدم:

أخذ الشيطان على نفسه عهداً أمام الله ــ بعدما رفض السجود لآدم ــ أن يبذل كل جهده في إغواء بني آدم، وذلك في قوله: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي، لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيم. ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ، وَمِنْ خَلْفِهِمْ، وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ، وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ، وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِين﴾[2].

وأهبط الله آدم والشيطان إلى الأرض، وأخبره بعداوة الشيطان له ولبنيه، وحذرهم من هذه العداوة، فقال: ﴿يَا بَنِي آدَم، لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَان. كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّة، يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا، لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا. إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ. إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُون﴾[3].

وأمرنا الله أن نتخذ الشيطان عدواً، وأن نحذر وساوسه ونزغاته، وقال لنا: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوّ، فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً، إِنَّما يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِير﴾[4].

وكان آدم عليه السلام نبياً، أرسله الله إلى أولاده ليذكِّرهم بالله، ويحذِّرهم من الشيطان.

---

(١) سورة المائدة: آيات ٢٧ ــ ٣٢.
(٢) سورة الأعراف: آيتا ١٦ ــ ١٧.
(٣) سورة الأعراف: آية ٢٧.
(٤) سورة فاطر: آية ٦.

والدليل على نبوّة آدم، أن أبا ذر الغفاري ـ رضي الله عنه ـ سأل رسول الله ﷺ، فقال:

يا رسول الله: كم الأنبياء؟.

قال: مائة ألف وأربعةٌ وعشرون ألفاً.

قلت: يا رسول الله: كم الرسل منهم؟.

قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر. جم غفير.

قلت: يا رسول الله: من كان أولهم؟.

قال: آدم.

قلت: يا رسول الله: نبي مرسل؟.

قال: نعم. خلقه الله بيده، ثم نفخ فيه من روحه»[1].

ومارس الشيطان وظيفتَه الشيطانية ضد أولاد آدم، ووسوس لهم، وزيَّن لهم المنكر والعصيان.

ونجح الشيطان في إغواء أحد أولاد آدم، فاستحوذ عليه، واستماله إلى صفه، وأوقعه في الشر، حيث ارتكب جريمة قتْل أخيه.

وتقص هذه الآيات قصة ذلك الابن الضال، وتخبرنا بجريمته البشعة التي ارتكبها بإيحاءٍ وتوجيه من الشيطان.

القصة عند رواة الإسرائيليات:

ذكر بعض المفسرين والمؤرخين والإخباريين رواياتٍ وأخباراً عن قصة ابنَيْ آدم، فصَّلوا فيها بعض الأحداث، وأخذوها عن الإسرائيليات والأساطير.

ونحن هنا نورد أبرز تلك الإسرائيليات، لننبِّه عليها، ونحذِّر منها، وندعو إلى عدم روايتها وذكرها إلّا من أجل التحذير والتنبيه.

---

(١) رواه أحمد وابن حبان وابن سعد وأبو داود الطيالسي.

قـالوا: لمـا أهبط الله آدم وزوْجـه حـواء إلى الأرض، كـان يـولَـد لهمـا الأولاد، وكانت حواء تحمل في كل بـطن ذكراً وأنثى. وقـد وُلِدَ لهمـا أربعون مولوداً: عشرون ذكراً، وعشرون أنثـى.

وقد أمر الله آدم أن يفرِّق بينهم في النكاح، فكان يزوِّج غلام هذا البطن لجارية البطن الآخر، ويزوج جارية هذا البطن لغلام البطن الآخر.

وُلد له بعد هبوطـه إلى الأرض بمائـة سنة، ذكـر وأنثى في بطن واحـد. فسمّى الذكر «قابيل» وسمّى الأنثى «إِقليما». وبعد سنتين ولـد له ذكـر وأنثى، فسمّى الذكر «هابيل» وسمّى الأنثى «لَبودا».

أمر آدم أن يتزوج قابيل لبودا، وأن يتزوج هابيل إقليما.

ولكن قابيل رفض إلّا الزواج من أخته «إقليما» لكونها أجمل وأحسن من «لبودا».

وبسبب الخلاف قال لهما آدم: قَرِّبَـا قُربـاناً. فـأيّكم يُقبل قـربانـه، فهو أحَقُّ بهـا.

وكان قابيل مزارعاً صاحب زرع. وكان هابيل راعياً صاحب ماشية.

فاختار هابيل كبشـاً سميناً من خيـار ماشيتـه، واختار قـابيل «حـزمة» من السنابل، ولما رأى فيها سنبلة عظيمة فركها وأكلهـا.

فنزلت النار، وأكلت قربان هابيل، وتـركت قربـان قابيـل. وما زال كبش هابيل يرتـع في الجنة، حتى فُدِيَ به إسماعيل ــ عليه السلام ــ.

وقد غضب قابيل لمّا ردَّ الله قربانه، وحسد أخاه، وحقد عليه، وقال له: لأقتلنّك. قال له أخوه: ولماذا؟ قال: لأن الله قبل قربـانك ولم يقبـل قربـاني. وتنكح أختي الحسناء وأنكح أختك الدَّميمة.

فقال له أخوه هابيل: إنما يتقبّل الله من المتقين. لئن بسطت إليَّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك. إني أخاف الله رب العالمين. وكان هابيل أقوى وأشد من قابيل، لكنَّ خوف الله منعه من أن يبسط يده بالسوء لأخيه.

وجاء قابيل ليقتل هابيل، فزاغ هابيل منه، وفرَّ إلى رؤوس الجبال. فجاءه قابيل يوماً وهو نائم، ورفع حجراً ضخماً ليقتله، ولم يَدْرِ كيف يقتله. فتمثّل له الشيطان، وأخذ طيراً أمامه، ووضع رأسه على حجر، ثم شدخه بحجر آخر. ففعل قابيل ذلك بأخيه، وحطَّم رأسه فقتله.

وكان عمر هابيل لمّا قُتِل عشرين سنة!.

وكان قَتْلُه على قمة جبل قاسيون بدمشق.

ولمّا قُتِل هابيل رجفت الأرض بما عليها سبعة أيام، واشْتاكَ الشجر، وتغيّرت الأطعمة، وتحمَّضت الفواكه، ومُرَّ الماء، واغبرّت الأرض.

وكان آدم بمكة، فاستغرب مما جرى، فلما ذهب إلى الهند ليستطلع الخبر، علِمَ أن قابيل قد قتل هابيل.

ولم يدْرِ قابيل ماذا يفعل بجثة أخيه، وناداه الله: يا قابيل أين أخوك هابيل؟ قال: ما أدري. ما كُنتُ عليه رقيباً؟ فقال له الله: إن دم أخيك ليناديني من الأرض، فلِمَ قتلتَ أخاكَ؟ قال: فأين دمه إنْ كنتُ قتلتُه؟ ــ وكانت الأرض قد شربت دمه ــ فحرَّم الله على الأرض يومئذ أن تشرب دماً بعده أبداً.

ولم يدْرِ قابيل كيف يتصرف بجثة أخيه، فحملها على ظهره سنة كاملة، حتى أنْتنت. وكانت السباع والطيور تنتظر أين يرمي بها لتأكلها.

وبعث الله له غرابَيْن، فاقتتلا. فقتل أحدُهما الآخر. ثم حفر الغراب

القاتل بمنقاره ورجليه في الأرض حفرة، ثم وضع فيها جثة الغراب القتيل، ودَفَنَه. وقابيل ينظر. فقام وحفر لأخيه ثم دفنه.

ولمّا عَلِم آدم ـ عليه السلام ـ بما جرى، رثى ابنَه القتيل بشِعْر ـ عربي عمودي! ـ فقال:

تغيَّرَت البلادُ وَمَنْ عَلَيْها فَوَجْهُ الأرضِ مغبَرٌّ قبيحُ
تَغَيَّرَ كُلُّ ذي لون وَطَعْم وَقَلَّ بَشاشَةَ الوجهُ الصبيحُ
وقابيلٌ أذاق الموت هابيل فواحَزَناً لَقَدْ فُقِدَ المليحُ

فردَّت عليه حواء قائلة:

دع الشكوى فقد هلكا جميعاً بموتٍ ليس بالثمن الربيحِ
وما يُغْني البكاءُ عن البواكي إذا ما المرء غُيِّبَ في الضريحِ
فإبْكِ النفس وانزل عن هواها فلستَ مُخَلَّداً بعد الذبيحِ

فأجابهما إبليس شامتاً بهما:

تنحَّ عن البلادِ وساكنيها ففي الجناتِ ضاق بك الفسيحُ
وكنتَ بها وزوجَكَ في رخاء وقلبُكَ من أذى الدنيا مُريحُ
فما زالت مكايدتي ومكري إلى أن فاتك الثمنُ الربيحُ

ومكث آدم بعد قتل هابيل مائة سنة حزيناً لا يضحك. فأتى إليه الملك وقال له: حيّاك الله وبيّاك، وبشّره بغلام. فضحك.

أما قابيل فقد قيل له: إذهب. فذهب طريداً شريداً مرعوباً. فأخذ بيد أخته «إقليما» وذهب بها إلى عدن في اليمن!

فأتاه الشيطان فقال له: إنما أكلت النار قربان أخيك لأنه كان يخدم النار ويعبدها. فبنى قابيل بيتاً للنار وعَبَدَها.

وكان لقابيل ولد أعمى، ومعه ابن له. فقال الابن لأبيه: هذا أبوك قابيل، فرماه بما كان في يده، فقتله. وهكذا كانت نهايته.

وقيَّد الله قابيل يديه إلى رجليه، ووجهَه إلى الشمس، يدور معها حيث دارت ليذوق حرّها. وعليه في الصيف حظيرةُ نار، وفي الشتاء حظيرة ثلج. إلى يوم القيامة![1].

رفْض تلك الإسرائيليات:

لا يظنَّنَّ أحد أننا أوردنا تلك الإسرائيليات حول قصّة ابنَيْ آدم، راضين بها، مصدّقين لها، واثقين فيها، أو أننا نقبلها ونعتمدها ونفسّر بها كلام الله سبحانه.

إننا أوردناها محذِّرين منها منبِّهين عليها، داعين إلى رفْضها وترْكها، وذكرناها من باب «عرفتُ الشر لا للشر، لكن لتوقِّيه». ورويناها على طريقة علماء الحديث الذين كانوا يوردون الأحاديث الموضوعة، ويروونها، ثم ينبِّهون على وضعها لئلا يغترَّ أحد بها.

إننا لا نريد لأحد أن يغترَّ بما يقرأه أو يسمعه من هذه الروايات، كما أننا ـ استنباطاً من منهج القرآن والسنّة في قصص السابقين ـ لا نجيز لأحد أن يروي تلك الروايات الإسرائيلية في كتابته أو في حديثه، إلّا ليحذِّر منها وينبِّه عليها.

ونحن مع الأستاذ الإمام محمد رشيد رضا في رفْضه لتلك الإسرائيليات، حيث يقول: «وقد ذكروا في ذلك رواياتٍ غريبة، لا يمكن أن يُعرَف مثلُها إلّا بوحي من الله. وهي لم تُرْوَ عن أحد من رسل الله. ومنها أن آدم رثى هابيل بشعر عربي.

---

(١) انظر هذه الإسرائيليات في عرائس المجالس: ٣٧ ـ ٤١ وفي الدر المنثور ٣: ٥٤ ـ ٦٤.

فنُعْرِض عن هذه الروايات التي لا تصحّ، ولا تفيد. ووصْف ما قصّه الله تعالى بالحق، يُشعر بأن ما يلوكه الناس في ذلك مما سواه بـاطل»[١].

ونحن مع الأستاذ الإمام سيد قطب في رفضه لتلك الإسرائيليات، حيث يقـول: «ولا يُحـدد السياق القرآني لا زمان ولا مكان ولا أسمـاء القصة. وعلى الرغم من ورود بعض الآثار والروايات عن «قابيل وهابيل» وأنهما هما ابنـا آدم في هـذه القصـة، وورود تفصيـلات عن القضيـة بينهمـا، والنـزاع على أختين لهما. فإنناـنُـؤْثِر أن نستبقي القصة ــ كما وردتْ ــ مجمَلة بـدون تحديـد. لأن هذه الروايات كلَّها موضـع شك في أنهـا مأخـوذة عن أهل الكتـاب ــ والقصة واردة في العهد القديم محددةٌ فيها الأسماء والزمان والمكان على النحـو الذي تذكره الروايات ــ. »[٢].

هما ابنا آدم من صلبه:

ذهب بعض المفسـرين إلى أن ابنَيْ آدم المذكـورة قصتهمـا، لم يكـونـا ولديْه من صلبه، وإنما كانا من ذريته ونسله، وبالتحديد كانا من بني إسرائيل.

ودليلهم على ذلك قول الله في آخر القصّة: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَـا عَلَى بَنِي إِسْـرائيل﴾، فَقَتْـل أحد الأخَـوَين لـلآخـر، ليس سبباً لكتـابـة القصـاصِ والعقاب على بني إسرائيل، لـو كانا ولدَيْن لآدم من صلبه.

وذهب بعض العلمـاء إلى أن قصـة ابنيْ آدم قصـة تمثيليـة خيـاليـة، ولم تَحدث على أرض الواقع، وإنما مثَّل القرآن بهـا لطبيعـة الخير والشـر عند الناس، وصوَّر لنا نموذجين بشريَّيْن لكل من الخير والشرّ.

---

(١) تفسير المنار ٦: ٣٤١.

(٢) الظلال ٢: ٨٧٥.

لكن جمهور العلماء والمفسرين على أن القصة حقيقية واقعية، حدثت فعلاً في عالم الواقع. وذهب الجمهور إلى أن ابنَيْ آدم، هما ولداه من صلبه، عاشا معه، وجرَت قصتهما في عهده ـ عليه السلام ـ!

إن الأصل في قصص القرآن أن يكون لها بُعْد واقعي، ووجودٌ حقيقي، وشخصياتُ القصص القرآني شخصيات حقيقية، وأحداثُه حدثت فعلاً في فترة من فترات التاريخ الماضي.

وإن ابنَيْ آدم ليسا من بني إسرائيل، لبُعْد الفترة الزمنية بين آدم وبني إسرائيل، فلو كانا من بني إسرائيل لما جهل القاتل كيفية دفْن أخيه، حتى يدلّه عليه الغراب، لأنه لا أحد من بني إسرائيل يجهل كيفية دفن الموتى. فاقتداء القاتل بالغراب في الدفن، وتعلُّمُه منه دفنَ أخيه، دليل على أن الحادثة وقعت في «طفولة» البشرية على وجه الأرض، ويبدو أنها أول جريمة قتل متعمَّد على وجه الأرض! ـ والله أعلم ـ.

والدليل على كونهما ولديْن لآدم من صلبه، قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾، والابن يُطلق على الولد من الصلب، ويُطلق على الابن من النسب مجازاً، والقاعدة في التعامل مع القرآن، هي حمل اللفظ القرآني على حقيقته اللغوية، ولا نَعْدِل عن الحقيقة إلى المجاز، إلاّ عند تعذُّر حمله على الحقيقة. وهنا لا محذور من حمله على الحقيقة.

ثم إنّ مما يدل على ذلك أيضاً، الحديثَ الصحيحَ عن رسول الله ﷺ، حيث روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال:

قال رسول الله ﷺ: «لا تُقْتَلُ نَفسٌ ظُلْماً، إلاّ كانَ على ابْنِ آدَمَ الأَوَّلَ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ»[1].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأنبياء: ٦٠ باب خلق آدم: ١ حديث رقم: ٣٣٣٥، ورواه مسلم في كتاب القسامة: ٢٨ باب بيان إثم من سنَّ القتل: ٨ حديث رقم: ١٦٧٧.

يدلّ الحديث على أن ابن آدم كان ولده من صلبه، لأنه يقول «ابن آدم الأول» والأوَّلية هنا أوَّلية زمانية تاريخية.

ويُحَمِّل الحديث ابنَ آدم الأول القاتل الظالم نصيباً من دم كل نفس تُقْتل ظلماً، منذ عهده حتى قيام الساعة.

وتَخَيَّلْ كم من الناس قد قُتل ظلماً فيما مضى من تاريخ البشرية! وكم من الناس سيُقتل ظلماً في مستقبل البشرية حتى قيام الساعة! وعندها تَخَيَّلْ مقدار الإثم الذي يحمله ابن آدم الآول!

ويقدِّمُ الحديثُ التعليلَ لمسؤولية ابن آدم القاتل عن كل قتلٍ ظالم، فهو «أوّل من سنَّ القتل».

وهذه الأوَّلية كذلك أوّليَّة تاريخية زمانية، فهو أوّل من قتل، وهو أوّل قاتل. وهو بذلك قد فتح باب سفك الدماء، ودعا الظالمين المعتدين إلى الاقتداء به في جريمته.

وفي هذا يقول رسول الله ﷺ: «مَنْ سَنَّ في الإسلام سُنَّةً حَسَنَة، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ. مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْء. وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا، وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْء»(١).

معنى أن يتلو القصة بالحق:

نقف لحظة أمام قول الله ﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق﴾.

ما معنى الحق هنا؟

---

(١) رواه مسلم في كتاب الزكاة: ١٢ باب الحث على الصدقة ٢٠، حديث: ١٠١٧، وفي كتاب العلم: ٤٧ باب من سنَّ سنَّة حسنة أو سيِّئة: ٦ حديث: ١٠١٧.

إنه الصدق والصحة والصواب، بمعنى أن لا تؤخَذ قصتُهما إلاّ مِن الأخبار الصحيحة، والروايات الصادقة، من الأحاديث الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ.

إن المسلم إذا التزم بهذا المنهج في التعامل مع قصص القرآن ــ ومنها قصة ابنَيْ آدم ــ فإنه يكون قد حقَّق في علمه وكلامه هذه الصفة، وتلا على الناس تلك القصص بالحق!

لهذا نقول إلى كل الذين ذهبوا إلى الإسرائيليات في قصة ابنَيْ آدم، وأوردوا منها تفصيلات لأحداث القصة: إنكم لم تلتزموا بهذا التوجيه القرآني في تلاوة القصة ﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق﴾. ولهذا جاء الكثير من كلامهم حولها، فاقداً لصفة الحق التي اشْترطها القرآن. ومن ثَمَّ جاء فاقداً لصفة العلمية والمنهجية، وهي صفة ضرورية للأفكار والعلوم والمعارف.

تقبُّل القربان من أحدهما:

اختلف الأَخَوان على أمر ــ لا ندري ما هو ــ واحتكما إلى أبيهما آدم عليه السلام. فطلب من كل منهما أن يقدّم قرباناً إلى الله، فمن كان الحق معه، تقبّل الله قربانه، وما على الآخر إلاّ أن يتراجع عن موقفه، لأنه ليس ليس على الحق!.

والقربان هو شيء خاص ــ لا نملك تحديده ــ يقرِّبُه كل منهما إلى الله، قد يكون طعاماً أو شراباً أو متاعاً، وقد يكون حيواناً أو زرعاً، وقد يكون غير ذلك.

قرَّبا قُرباناً، فتُقُبِّل من أحدهما، ولم يُتَقَبَّل من الآخر.

ولا ندري كيف تقبَّل الله القربان، بل إن القرآن يدعونا إلى عدم البحث في كيفية تقبُّل القربان، لأن البحث في ذلك لا فائدة منه، ولا ثمرة له،

ولا نملك الأداة التي نبحث فيه من خلالها، فيكون البحث مضيعةً للوقت، وإنفاقاً للجهد العقلي فيما لا خير فيه.

قال سيد قطب في الظلال:

«والفعل مبني للمجهول، ليشير بناؤه هكذا إلى أن القبولَ وعدمَه موكول إلى قوة غيبية، وإلى كيفية غيبية.

وهذه الصياغة تفيدنا أمرين:

الأول: ألاّ نبحث عن كيفية هذا التقبُّل، ولا نخوض فيه كما خاضت كتب التفسير، في روايات نرجح أنها مأخوذة عن أساطير العهد القديم.

الثاني: الإيحاء بأن الذي قُبل قربانه، لا جريرة له، توجب الحفيظة عليه، وتبييت قتله. فالأمر لم يكن له يدٌ فيه. وإنما تولتْه قوة غيبية بكيفية غيبية، تعلو على إدراك كليهما، وعلى مشيئته»[1].

حقد الحاقد في قوله «لأقتلنك»:

تمكَّن الشر من قلب الأخ الحاقد على أخيه، واستحوذ عليه الشيطان، فأغلق قلبَه عن الاستجابة للحق، أو الرجوع للصواب.

لقد عرَف هذا الأخ أنه ليس على حق، وإنما هو مع أخيه، لأن الله تقبَّل قربانه. والأصل أن يتراجع عن موقفه، وأن يتراجع عن رأيه.

لكن أنّى له أن يفعل هذا، والشيطان قد سيطر عليه، وألغى كل محاولة منه للتفكير الهادىء، وأغلق عنده كل باب للمراجعة والتراجع، ولم يُبْقِ عنده إلاّ شيئاً واحداً، هو: الإصرارُ على الخطأ، والانتصارُ للرأي الباطل، والنفس الشريرة.

---

(١) في ظلال القرآن ٢ : ٨٧٥.

وليتَ الشيطان اكتفى من ذلك الأخ الحاقد بذلك! وهل يَقبل الشيطان من أوليائه الوقوفَ عند مرحلة من مراحل الباطل؟ إنه يقودهم في الباطل من مرحلة إلى مرحلة أخرى أشنع، وينقل خطواتهم من باطل إلى باطل أكبر.. وهكذا.

لقد نقل الشيطان ذلك الأخ الحاقد إلى مرحلة أخطر. إنها التفكير في قتل أخيه، والتصميم على ذلك!

ومجرد تفكير الأخ بقتل أخيه جريمة عظمى، فكيف إذا حوَّل هذه الفكرة إلى عزم وتصميم؟ وكيف إذا انتقل من العزم والتصميم إلى التوكيد البالغ؟ وكيف إذا انتقل بعد ذلك إلى الفعل والتنفيذ؟.

الكلمة الفاجرة التي جهر بها الأخ الحاقد «لأقتلنك» تحمل عدة إشارات:

١ ــ إنها تشير إلى تمكُّن الشيطان من نفسه، واستحواذه عليه.

٢ ــ إنها تشير إلى تكبُّره وعناده، وعدم استجابته للحق الذي مع أخيه.

٣ ــ إنها تترجم عن الحقد الأسود الذي ملأ قلبه.

٤ ــ إنها تعني زوال كل معاني الأخوّة والإنسانية من قلبه تجاه أخيه.

طبيعة أخيه في رده على تهديده:

بماذا أجاب الأخ المؤمن أخاه على تهديده؟

قال له: ﴿إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ المُتَّقين. لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَني ما أَنَا بِباسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ، إِنّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ العَالَمين. إِنّي أُريدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّار، وَذٰلِكَ جَزاءُ الظَّالِمين﴾.

وعندما نقارن بين الأخوين، من خلال كلام كل منهما، ونحاول التعرُّف على طبيعة كل منهما، ندرك أنهما نموذجان مختلفان، ورجلان متغايران.

وحـول هذا المعنى يقـول سيد قـطب: (هذه القصـة تقدِّم لنـا نمـوذجـاً لطبيعة الشر والعدوان، ونموذجاً كذلك من العدوان الصارخ الذي لا مبرِّر لـه. كمـا تقدم لنـا نموذجـاً لطبيعـة الخير والسمـاحة، ونمـوذجاً كـذلك من الـطيبة والوداعة، وتَقفهما وجهاً لوجه، كل منهما يتصرف وِفْقَ طبيعته)[1].

وسر اختلاف موقفي الأخوين، هـو ما يـدين كل منهمـا، وما يفكـر فيه، فأقوال الإنسان وأفعاله مرتبطة بتصوره وفكره.

كان الحاقد الظالم مستجيباً للشيطان، ولذلك قال ما قال وفعل ما فعل.

وكان المؤمن الوادع مستجيباً للحق مؤمناً بالله، ولذلك قال ما قال.

ولا ننسى أنهما أخوان شقيقان، أبوهما واحد، وأمهما واحدة، وجمعَهما رحم واحد، ورضعا من ثدي واحد، وعاشا في بيت واحد.

ومع هذه الـوحدة والاتفـاق في الأمور الخـارجية، اختلفـا تصوراً وفكـراً وموقفاً وسلوكاً وقولاً وفعلاً..

ولعلّ في هذا إشارةً إلى «المسؤولية الفردية» التي جعلهـا الله للإنسـان، والقدرة على اختيار الموقف والتصرف والطريق، التي مكَّن الله الإنسان منهـا. فالإنسان مخيَّر في الطريق الذي يسلكه، والتصرف الذي يقوم به، والله يحمّله تبعة اختياره، ويرتّب على ذلك نتيجته التي تنتـج عنه.

إنما يتقبَّل الله من المتقين:

يقدم لنا الأخ المؤمن قاعدة قرآنية إيمانية ثابتة، وأسـاساً مـطرداً في وزْن الأقوال والآراء، وفي اعتماد الأفعال والتصرفات، وقبولهـا عند الله، وذلـك في قوله ﴿إنما يتقبَّل الله من المتقين﴾.

---

(١) في ظلال القرآن ٢: ٨٧٤.

﴿إنما يتقبَّل الله من المتقين﴾، بهذا الحصر والتوكيد. إن الله لا يتقبَّل إلّا من المتقين، وإن التقوى هي شرطٌ لقبول الأعمال عند الله، والإيمان أساسٌ لاعتمادها ورجاءِ الانتفاعِ منها.

لماذا الإيمان والتقوى أساس قبول الأعمال عند الله . ؟

لأن الأعمال لا تُرادُ لذاتها، فلا نفع فيها عندما تكون مجرَّدةً من معناها، منقطعة عن حياتها.

فكما أن الثمرة لا تنبت إلّا على شجرة، فكذلك العمل لا يكون صالحاً صادقاً صحيحاً، ولا يُقبلُ عند الله، إلّا إذا انبثق من الإيمان، ونتج عن التقوى.

وإن الله لا يريد الأعمال مجرّدة، وإنما يريد أثرها في نفوس أصحابها، يريد قلوبهم ومشاعرهم، ويريد تربيتهم وتقويمهم من خلال الأعمال. إن المهم هو أن يحصل المؤمن على التقوى، وأن تملأ عليه حياته ووجوده.

قال تعالى عن الحكمة من ذبح الهَدْي والأضاحي: ﴿وَالبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ الله، لَكُمْ فيها خَيْر، فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوافّ، فَإذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا القَانِعَ وَالمُعْتَرّ، كَذٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون. لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا، وَلٰكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ، كَذٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى ما هَدَاكُمْ، وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِين﴾[1].

وقد روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهِ لا يَنْظُرُ إِلى صُوَرِكُم وَأَمْوالِكُمْ، وَلٰكِنْ يَنْظُرُ إِلى قُلوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»[2].

---

(١) سورة الحج: آيتا ٣٦ ــ ٣٧.

(٢) رواه مسلم: كتاب البر والصلة رقم ٤٥، باب تحريم ظلم المسلم ١٠، حديث رقم ٢٥٦٤.

وإذا لم تصدر الأعمال عن الإيمان، ولم تَنتج عن التقوى، فإنها تكون مردودة عند الله ﴿وَقَدِمْنَا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ ، فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورا﴾[1].

وقد كان الصالحون من المسلمين يقفون طويلاً أمام قوله ﴿إنما يتقبَّل الله من المتقين﴾، فيقومون بالعبادات والطاعات والقربات، ومع ذلك يخافون أن لا يقبلها الله منهم، ويخشون أن لا يكونوا من المتقين.

وقد ذكروا أقوالاً في ذلك.

قال الصحابي الجليل أبو الدرداء: (لئن أستيقن أن الله تقبَّل مني صلاة واحدة، أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها، لأن الله يقول: ﴿إنما يتقبّل الله من المتقين﴾).

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (لا يقلُّ عمل مع تقوى، وكيف يقلّ ما يُتَقَبَّل؟).

وقال الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يوصي أحد عماله: (أوصيك بتقوى الله الذي لا يَقبل غيرها، ولا يرحم إلاّ عليها، ولا يثيب إلاّ عليها، فإن الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل).

وقال عامر بن عبد قيس: (آية في كتاب الله، أحبُّ إليَّ من الدنيا جميعاً، أن يجعلني الله من المتقين، فإنه قال: إنما يتقبّل الله من المتقين).

وقد دخل سائل إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، فقال لابنه: أعطه ديناراً، فأعطاه. فلما انصرف قال ابنه: تقبَّل الله منك يا أبتاه. فقال: لو علمتُ أن الله تقبَّل مني سجدة واحدة، أو صدقة درهم، لم يكن غائب أحب إليَّ من الموت، تدري ممن يتقبَّل الله؟! إنما يتقبَّل الله من المتقين.

---

(١) سورة الفرقان: آية ٢٣.

وكان مطرِّف بن عبد الله يقول في دعائه: اللهم تقبَّل مني صيام يوم، اللهم اكتب لي حسنة، ثم يقول: (إنما يتقبَّل الله من المتقين).

ولمّا كان عامر بن عبد الله على فراش الموت، بكى. فقيل له: ما يبكيك؟ قال: آية في كتاب الله. فقيل له: أيَّةُ آية؟ قال: ﴿إنما يتقبَّل الله من المتقين﴾[1].

المؤمن لا يفكر في قتل أخيه:

بعد أن قدَّم الأخ المؤمن لأخيه الظالم أساس قبول الأعمال عند الله.. ردَّ على تهديده الفاجر بقتله. وكان ردّه لطيفاً رقيقاً وادعاً: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَني، ما أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ!﴾.

ويتضمَّن هذا الردّ:

١ ـ الجواب الهادىء والرد الوادع على تهديد أخيه وتوعُّده.

٢ ـ تطمين الأخ بأنه لا يفكر في قتله، ولا يريد ذلك.

٣ ـ الدلالة على طبيعة هذا الأخ الهادئة المسالمة، ونفسه المؤمنة الراضية.

إن الأخ المؤمن لم يَرُدَّ على التهديد بتهديد مثله أو أشدّ، ولم يقابل السيئة بسيئة مثلها، ولم يتصرف بجهل يفوق جهل خصمه، كما قال ذلك الشاعر الجاهلي «عمرو بن كلثوم»:

أَلَا لا يَـجْـهَـلَنْ أَحَـدٌ عَـلَـيْـنَـا ... فَنَجْهَـلَ فَوْقَ جَهْـلِ الجَـاهِلِينَـا

إن موقف الأخ المؤمن لا يقْدر عليه إلّا عظماء الرجال.

مقابلة السيِّئة بمثلها سهلة ميسورة، وكل الناس يقدرون عليها. لكن أن تتعالى على الشر والباطل، وأن تكون أكبر من الجاهل الجهول، وأن

---

(١) انظر هذه الأقوال في الدر المنثور ٦: ٥٦ ـ ٥٧.

لا تتصرف تصرف الصبيان في نزاعاتهم، وخلافاتهم، وأن تقابل السيِّئة بالحسنة، فلن تقدر على كل هذا إلاّ إذا كنت رجلاً عظيماً، صاحب نفسٍ عظيمة، وقلب ودود رحيم، وإيمانٍ غامر، وسعادةٍ فائقة، وأخلاقٍ سامية، وصدق الله الذي يقول: ﴿وَلاَ تَسْتَوي الحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَة، إدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَن، فَإذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَة، كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيم. وَمَا يُلَقَّاهَا إلاّ الَّذِينَ صَبَرُوا، وَمَا يُلَقَّاهَا إلاّ ذُو حَظٍّ عَظِيم﴾(1).

المانع له من قتل أخيه:

إن الأخ المؤمن لن يبسط يده إلى أخيه ليقتله.

وحتى لا يسيء أخوه الحاقد تفسير موقفه هذا، وحتى لا يظن أن عدم تفكيره بقتله إنما هو لعجزه وقلة حيلته، تولَّى هو تعليل موقفه، وتقديم السبب فيه. وذلك في قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ العالَمين﴾.

إنه الخوف من الله رب العالمين.

إن الخوف من الله يوجِدُ عند المؤمن حالةً من الإيمان والتقوى والمراقبة لله، وهذه الحالة الإيمانية تمنع صاحبها من ارتكاب المحرمات، وفعل المعاصي والمنكرات.

إن الخوف من الله هو صمّام الأمان في حياة الأفراد والجماعات، وإنه أقوى حارس لهم، يمنعهم من الاعتداء والظلم والإيذاء.

ويجب على المفكِّرين والمنظِّرين والمربِّين، أن يحرصوا على تنشئة الأفراد على مراقبة الله والخوف منه، والرغبة في ثوابه، والحرص على مرضاته، ليمسكوا بالحق، ويقلعوا عن الباطل.

---

(1) سورة فُصِّلَت: آيتا ٣٤ ـ ٣٥.

وهـذا هـو التعليـل الـوحيـد الصحيـح الـذي يجب أن يعلَّل بـه ابتعـادُ الصالحين عن الحرام، ورفضُهم الوسائل والأساليب المنكرة في الحياة. ولكن الخبثاء الماكرين لا يعللون هذا التعليـل، وإنما ينسبـون امتناع الصـالحين عن الحرام والمنكر والظلم إلى عجزهم وقلةِ حيلتهم. ويدَّعي هؤلاء الماكرون أنه لو توفرت للصالحين الفرصُ والإمكانـات، لأقبلوا على المنكر والحـرام! وهذا ادعـاء باطـل، يكذبـه ذلك الـرجـل المؤمن في قـولـه: ﴿إني أخـاف الله رب العالمين!﴾.

معنى أن يبوء بالإثمين:

أضاف الرجل المؤمن سبباً آخـر يحمله على عدم قتـل أخيه، وذلـك في قوله له: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ، فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَـابِ النَّار، وَذٰلِـكَ جَزَاءُ الظَّالِمِين﴾.

وهذا يوحي بأن القاتل يبوء بالإثمين: إثم القاتل، وإثم القتيل.

أما إثم القاتل فهذا لا إشكال فيه، لأنـه ارتكب الجريمـة وقام بـالفعل، وكونه يبوء بالإثـم منطقي ومفهوم، من باب ترتُّب النتائج على المقدمات.

أما أن يبوء القاتل بإثم القتيل، فهذا فيه إشكال! فما معنى ذلك؟

هل معناه: أن القاتل يأخذ كل ذنوب القتيـل، بحيث لم يَبْـقَ على القتيل منها ذنب؟ لا أظن ذلك!

يبـدو أن معناه: أن القـاتل يبـوء بإثم القتيـل بخصوص القتـل، فلو كان القتيل هو القاتل لباء بالإثم. وعنـدما يقـع قتـال بين شخصين، فيحتمل وقـوع القتـل من كل منهمـا بنسبة متسـاوية. ولـذلك إذا التقى المسلمـان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار. القاتل في النار لكونه قتل وقام بالجريمة، والمقتول في النـار لكونـه كان حـريصـاً على قتْـل خصْمـه، والـذي منعـه من قتله أمـر لا إرادي، فوق إرادته وقدرته.

وهذا المعنى القرآني قرَّره رسول الله ﷺ.

فقد روى مسلم في صحيحه عن الأحنف بن قيس رضي الله عنه، قال: خرجتُ وأنا أريد هذا الرجل [يعني علي بن أبي طالب]، فلقيني أبو بكرة رضي الله عنه، فقال: أينَ تريد يا أحنف؟ قلت: أريد نصر ابن عم رسول الله ﷺ. فقال لي: يا أحنف! إرجع. فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِذَا تَوَاجَهَ الْمُسْلِمَان بِسَيْفَيْهِمَا، فَالقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّار، فَقُلْتُ ـ أَو قِيل ـ يا رسول الله: هَذا القَاتِلُ، فَمَا بَالُ الْمَقْتُولُ؟ قَالَ: إِنَّهُ قَدْ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ»[1].

وبما أن الأخ المؤمن لم يفكر في قتْل أخيه الظالم، فقد ألغى احتمال كونه قاتلاً، وبذلك يحوَّل هذا الاحتمال إلى القاتل، فيحمل القاتل النسبتين معاً، وعندها يبوء بالإثمين ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ، فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾.

من التفسير النفسي: تطويع النفس لصاحبها:

حاول الأخ المؤمن أن يليِّن قلب أخيه الحاقد، وأن يستعطفه، وأن يستجيش معاني الأخوة والسماحة في نفسه، وأن يُزيل وساوس الشيطان عنه، وأن يقضي على نزغات القتل عنده.

ولكن الرجل الحاقد لم يستجب لتلك المحاولات الصادقة، بل مضى قُدُماً في تنفيذ ما صمَّم عليه من القتل. وما زال بذلك الشعور الحاقد والتفكير الأسود حتى نفّذ الجريمة وقتَلَ أخاه.

وقد أخبر القرآن عن هذه الفترة التي سبقت القتل بجملة عجيبة معجزة. قال: «فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخيهِ. فَقَتَلَهُ».

معنى طَوَّعت: شجَّعت ووسَّعت وسهَّلت وزيَّنت.

---

(١) رواه مسلم: كتاب الفتن ٥٢، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما ٤. حديث رقم: ٢٨٨٨.

ونحب أن ننظر في هذه الجملة على ضوء علم النفس التحليلي، وأن نقدِّم من خلال هذا لوناً من ألوان التفسير النفسي للقرآن.

لقد كان الأخ الحاقد الظالم يعيش صراعاً نفسياً حاداً مريراً، وكانت تتجاذبه شتى النوازع والأفكار والهواجس المتعارضة المتناقضة، وكان يُصغي إلى أصوات متباينة:

كلام أخيه في استعطافه، كان يوقظ في نفسه وشعوره وكيانه معاني الخير، ويدعوه إلى أن يعدل عن القتل. فهو أخوه، وهو مسالم هادىء وادع، لا يريد قتله لأنه يخاف الله. فلماذا يقتله؟ ما هو ذنبه؟ ألأن الله تقبَّل منه قربانه؟ وماذا في ذلك؟ أليس يتقبَّل الله من المتقين؟ ثم إن هذا فضيلة لأخيه يستحق الثناء عليها، وليس جريمةً يُقتَل بسببها!

لعله كان يعيش لحظات بهذا الشعور الطيب، وتتوارد على نفسه هذه التساؤلات وغيرها، فيكاد ينحاز إلى جانب الحق، ويعدل عن القتل، ويُصغي إلى صوت العقل والمنطق.

ولكن هل يتركه الشيطان مع هذه المعاني الخيِّرة الطيِّبة؟ هل يتخلى عنه وهو أول ضحاياه من بني آدم؟

كان الشيطان يوسْوِس له ويوسْوِس، ويثير في نفسه معاني الحقد والكراهية، ويوقظ نوازع القتل والاعتداء.

وكانت نفسه الباغية الشريرة، تدعوه إلى القتل، وتلحُّ عليه إلحاحاً مستمراً، وتُطَوِّعه للقتل تطويعاً، فتسهِّله وتزيِّنه له وترغِّبه فيه، وتشجِّعه عليه.

وكانت تتولى إسكات صوت المنطق والعقل والحق، فلا تُسمعُه إلاّ صوت الحقد، ولا تُريه إلاّ صورة القتل، ولا تُقدِّم له إلاّ معاني العدوان.

وعاش ذلك البائس التعيس فترة مريرة قاسية عنيفة من هذا الصراع

النفسي الحاد العنيف، ووقع في حيرة بالغة: لمن يستجيب؟ وأي الأصوات يسمع؟ وأية طريق يسلك؟..

وأخيراً انتصر الشيطان، وانتصر الحقد والعدوان، وانتصرت نفسه الشرِّيرة الباغية. وطوَّعت له قتلَ أخيه، وسهَّلَتْهُ لـه.

قال الإمام محمد رشيد رضا حول التفسير النفسي لهذه الآية:

«ولم أرَ أحداً شرح بلاغة هذه الكلمة ﴿فطوَّعت له نفسه﴾ في هذا الموضع ببعض ما أجد لها من التفسير في نفسي. وإنها لبمكان من البلاغة يحيط بالقلب، ويضغط عليه من كل جانب.

إنني أكتب الآن، وقلبي يُشغلني عن الكتابة، بما أجد لها فيه من الأثر والانفعال.

إن هذه الكلمة تدل على تدريج وتكرار في حمل الفطرة على طاعة الحسَد الداعي إلى القتل، كتذليل الفرس والبعير الصَّعب، فهي تمثِّل لمن يفهمها ولدَ آدم، الذي زيَّن له حسده لأخيه قتله، وهو بين إقدام وإحجام، يفكر في كل كلمة من كلمات أخيه الحكيمة، فيجد في كلٍّ منها صارفاً له عن الجريمة، يدعَم ويؤيد ما في الفطرة من صوارف العقل والقرابة والهيبة، فيكرُّ الحسَد من نفسه الأمّارة على كل صارف في نفسه اللوّامة. فلا يزالان يتنازعان ويتجاذبان، حتى يغلب الحسدُ كُلًّا منها، ويجذبه إلى الطاعة.

فإطاعة صوارف الفطرة وصوارف الموعظة، لداعي الحسد، هو التطويع الذي عناه الله تعالى. فلمّا تمَّ كل ذلك قتله»(١).

---

(١) تفسير المنار ٦: ٣٤٥.

. . فقتله! :

استجاب الحاقد أخيراً لتطويع نفسه له قتلَ أخيه، وقام بجريمته، وسفَكَ دم أخيه وقتَلَه . .

«فَقَتَلَهُ». هكذا، بكلمة واحدة انتهى هذا المشهد. وأوجز القرآن الكلام عن الجريمة، ولم يفصِّلها، بل تجاوزها إلى آثارها ﴿فأصبح من الخاسرين﴾.

وهناك بعض الحِكَم من التعبير عن الجريمة بهذه الكلمة الموجزة «فَقَتَلَه»:

١ ــ رغبة القرآن في تجاوز مشهد قتل الأخِ لأخيه، لأنه لا يستحق الذكر المفصّل، ولا الوقفة المطوّلة. أليس قد حصل المحظور؟ ووقعت الجريمة؟ إن كلمة واحدة تكفي لذلك.

٢ ــ إن القرآن لا يريد أن يُبقي هذا المشهد المروّع مفصّلاً عالقاً في ذهن السّامع وشعوره، حتى لا يوجد عند السامع قبولاً له، أو اقتداءً بذلك المجرم. وإنّما يريد القرآن للسامع أن يجاوز مشهد القتل إلى ما بعده من الآثار والنتائج والخسائر، ليزيل ما قد يعلق في ذهنه من شعورٍ بالإعجاب، ورغبةٍ في الاقتداء.

٣ ــ وكأن القرآن يدعونا إلى الاكتفاء بإخباره هو عن القتل. فبما أنّه لم يفصّل تلك الجريمة، فلا يجوز لنا أن نخوض في ذلك، فنحن مُلْزَمون أن نبقى مع البيان القرآني، ونتجاوز كل كلام مفصّل عن عملية القتل، لأنه كلام أخذه مفسرون من الإسرائيليات، ولا يجوز تفسير كلام الله بالخرافات والأساطير والأكاذيب، وهي الصفة الغالبة على الإسرائيليات!

الخسارة المطلقة في قتل الأخ:

قتل الأخ أخاه! لكن ماذا استفاد من ذلك؟ هل حقّق مراده وأهدافه؟ هل نال ما وعده به شيطانه اللعين ونفسه الشّريرة؟

إنّه لم يجن من سفك دم أخيه خيراً، ولم يستفد منهُ شيئاً. لقد خسر خسارة مطلقة «فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِيْنَ».

كانت خسارته عامة شاملة، مستوعبة لكل ما في كلمة «الخسارة» من المعاني، وما فيها من الصور والظلال، وما تحمله من المظاهر.

ومن مظاهر خسارته:

١ ــ لقد خسر أخاه، عندما سفك دمَهُ.

٢ ــ لقد خسر والدَيْهِ وَأَهْلَه. حَيثُ غَضِبُوا عَلَيْهِ لِجَرِيْمَتِهِ.

٣ ــ لقد خسر معاني الأخوة التي كانت تربطه بأخيه.

٤ ــ لقدْ خَسِرَ كُلّ مَعَانِي الإنسانِيّة الخيّرة، مثل الرحمة والمودّة والتسامح.

٥ ــ لقد خسر نفسه وهدوءهُ واطمئنانه وسعادته.

٦ ــ لقد خسر حياته حيث حوّلها من حياة خيِّرة نافعة إيجابية إلى حياة شريرة ظالمةٍ معتدية.

٧ ــ لقد خسر آخرته، بأن أخرجها من رحمة الله وجنّته إلى عذابه وناره.

٨ ــ لقد خسر تاريخه، حيث صار تاريخاً للبغي والظلم والعدوان. وكان هو مثالاً لمعاني الشر والفساد، وقدوةً لكل قاتلٍ ظالم شرّير.

إلى غير ذلك من صور الخسارة ومظاهرها وألوانها، التي يلقيها قوله تعالى: «فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِيْنَ».

وهذه الخسارة كلها كان سببها استجابته لوساوس الشيطان.

وهذه الخسارة يقع فيها كل من عصى الله، لأنها نتيجةٌ طبيعيةٌ لكل ذنب ومعصية، ونهايةُ كلّ من اتّبع خطوات الشّيطانْ. وحصيلةُ الكفر والفسوق والعصيان.

ونتجاوز خسارة ذلك الأخ الحاقد الظالم، لننظر في دلالةٍ أعمّ وأشمل للخسارة تتجاوز الزمان والمكان، لتنطبق على كلّ زمان ومكان.

كلّ من سَفَكَ دَمَ أخيه فهو خاسر، وكل من قتل إنساناً بغير حق فهو خاسر. وصدق الله القائل: «مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ، أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسَاً بِغَيْرِ نفسٍ أَو فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النّاسَ جَمِيْعاً، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَاسَ جَمِيْعَاً».

وهذه الخسارة تنسحب على الأمّة المسلمة، عندما تتقاتل فيما بينها، وعندما تحل العداوة والبغضاء في قلوب أبنائها مَحَلَّ الأخوة والمحبّة والتّسامح..

ويخبرنا التاريخ خبر صدقٍ بهذه الحقيقة، فعندما كانت تجتمع الأمة على الأخوة والمحبّة والتّعاون، وتلتقي على قلب رجل واحد، كانت تربح وتنجح وتفلح وتفوز، وعندما كانت الأمة تختلف وتتنازع وتقتتل، كانت تخسر كل شيء.

وأبرز مثال على خسارة الأمة، هو ما تُعانيه في عصرها الحاضر، حيث تفرقت كلمة الأمة، فاختلف أفرادُها واقتتلوا، وتخلّوا عن وحدتهم وأخوَّتِهمْ وقوَّتِهمْ، وبذلك أصبح المسلمون الخاسرين، وكانت خسارتهم شاملة لكل

شيء، فقد خسروا دماءهم وأبناءهم. وخسروا أخلاقهم وروابطهم، وخسروا أموالهم واقتصادهم، وخسروا وجودهم وكيانهم، وخسروا تأثيرهم ومنزلتهم.

الغراب يعلم القاتل العاجز:

قتل الأخ الحاقد أخاه، ثم عجز عن التصرف، فلم يدرِ ماذا يفعل بجثّةِ أخيه، وبَدَا هذا القوي العنيد ضعيفاً عاجزاً، وأراد الله أن يريه ضعفه وعجزه، فبعث غراباً ليعلّمه. «فَبَعَثَ اللهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ. قَالَ: يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوأَةَ أَخِي».

هل كان غراباً واحداً، أم كانا غرابيْن اثنيْن؟ وهل اقتتل الغرابان؟ وهل قام القاتل منهما بالحفر في الأرض لدفن جثّة الغراب القتيل؟.

هذه أسئلة لا جواب عليها عندنا! لأن القرآن والحديث الصحيح لم يقدما الجواب عليها. ويسعنا ما وسع الصحابةَ في فهم الآية.

المهم أن القاتل عجز عن التصرف، فجاء الغراب ليعلّمه كيفية دفن الجثة، فصار الغراب يحفر في الأرض ويحفر فيها، واستمرّ حفره وبحثه فيها ـ كما يوحي الفعل المضارع «يبحث» الذي يدل على التجدّد والاستمرار ـ حتّى لفت نظر القاتل العاجز إليه، وكأنّه يدعوه إلى الاقتداء به في الحفر، وفهمَ العاجز عن الغراب إشارته، وحفر في الأرض، ودفن الجثة.

وعندما نمعن النظر في تعليم الغراب للإنسان القاتل كيفية الدفن، فإننا نخرج بعدة إشارات. منها:

١ ـ إن هذه الحادثة هي أول جريمة قتل تقع، لأن القاتل لم يعرف كيف يتخلّص من الجثّة، وهذا يدل على أنّه ابن آدم من صلبه ـ كما قلنا ـ.

٢ ـ إنها تسجل عجز الإنسان الحاقد، الذي يدّعي القوّة والفطنة والذكاء وحسن التصرف، والذي يتيه ويبطش ويظلم ويعتدي، ثم يعجز عن التصرف في مشكلة أمامه، فيأتي غرابٌ لا علم عنده، ولا وعْي ولا ذكاء، ليعلم هذا الإنسان الواعي الذكي.

٣ ـ إنها تسخر من هذا الإنسان في عجزه وتتهكّم عليه لجهله وغبائه وسذاجته، إذ بقي واقفاً عاجزاً ينتظر من يعلّمه، حتّى جاء الغراب فعلّمه.

تَبّاً للإنسان الذي يملأ الدنيا إدعاءً وتعالماً وضجة وصياحاً، ثم تخفى عليه بعض البدهيات، ويعجزُ أمام بعض الأوليّات، وكم من الأمور الأساسية تخفى على هذا الإنسان المتعالم الجهول!.

ندم القاتل ندم العاجز الخاسر لا ندم التائب:

بعدما دفن القاتل أخاه، أحسّ بندم كبير. كما قال الله عنه: «فأصبح من النّادمين».

ولم يكن ندمه ندماً إيجابياً، ولكنّه كان ندماً سلبياً. كان ندمَ العاجز الحاقد، وليس ندمَ المذنب التائب، كان ندمَ الذي شعر بالخسارة البالغة، وهو الذي كان يرجو النفع العميم.

قد يثير بعضهم هنا تساؤلاً: بما أنّ القاتل ندمَ على جريمته ـ بنص القرآن ـ فلماذا لم يتب الله عليه؟ ولماذا لم يغفر الله له؟ علماً بأن كل من أذنب، وندم على ذنبه، وتاب إلى ربّه، فإن الله يتوب عليه.

والجواب على هذا التساؤل، أنّ القاتل لو نَدِمَ نَدَمَ التائب لتاب الله عليه.

لكن القاتل لم يندم هذا الندم، إنه لم يتب، ولم يستغفر، ولم يشعر بالخطأ والإثم، ولو فعل هذا لتاب الله عليه، لأن الله يغفر الذنوب جميعاً، وكلُّ مَنْ تاب صادقاً مخلصاً، فإن الله يتوب عليه.

لقد كان ندمُ القاتل ناتجاً عن عجزه عن التصرف في الجثّة، فلمّا جاء الغراب وعلمه ذلك، كأنّه شعر بانتقاص في إنسانيته، وطعْن في قوّته وفطنته، فأحسّ بالندم البالغ.

ثم قد يكون لندمه سبب آخر: إنّه لم يحقق ما أراد من القتل، لقد خسر أخاه ونفسه وأهدافه، فكان ندمه على فوات مقصوده، وضياع آماله.

ولقد جمع القاتل بين الحسرتين، حسرة الخسارة، وحسرة الندم، «فأصبح من الخاسرين» و«فأصبح من النادمين».

فكأنّما قتل الناس جميعاً . . وكأنّما أحيا الناس جميعاً:

عقبت الآيات على قصة ابني آدم، وعلى موقف القاتل الحاقد منهما بقولها: «مِن أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ، فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَاسَ جَمِيعَاً، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعَاً».

إنّها حقيقة قرآنية قاطعة صادقة، صيغت بجملة الشرط التي تفيد الجزم واليقين:

من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنّما قتل الناس جميعاً. ومن أحياها فكأنّما أحيا النّاس جميعاً.

كل من قتل نفساً ظلماً بغير حق فَكَأَنَّمَا قتل النّاس جميعاً! كيف ولماذا؟

١ ــ إن قتْل نفس واحدة هو قتل لكل الناس! لأنه يصعب على الإنسان أن يقتل الإنسان أوّل مرة، ويبقى فترة طويلة بين إحجام وتردد وخوف ووجل ــ كما فعل ابن آدم الأول ــ ثم يتغلّب صوت الباطل والعدوان، فيقدِم على القتل، فيكسَر «الحاجز النفسي» بينه وبين القتل.

فإذا أراد هذا القاتل أن يقتل شخصاً آخر في المرة الثانية، فإن الأمر

يكون أسهل عليه، وتأنيب ضميره يكون أقلّ. وتزول المعاناة ويتلاشى التردد والخوف والوجل عند جريمة القتل الثالثة أوالرابعة أوالخامسة، وهكذا تتحول عملية القتل فيما بعد، عند ذلك القاتل المحترف، إلى مسألة طبيعية مقبولة، لا غرابة فيها، ولا تحرُّج منها، وبذلك يكون ذلك القاتل «كأنما قتل النّاس جميعاً».

٢ ـ وهناك معنى آخر توحي به جملة «فكأنّما قتل الناس جميعاً» وهو أن العدوان على النفس الواحدة. وسَفكَ دَمِهَا ظلماً، هو عدوان على كلّ الناس، وإزهاق تلك الروح عند النفس الإنسانية، كأنّه إزهاق للروح الموجودة عند كل بشر!

إن المعنى الإنساني مكرَّم عند الإنسان، وإن إنسانية الإنسان محفوظةٌ مُصانَة معتبرة، وعلى كل النّاس أن يتفقوا على إحترامها واعتبارها والمحافظة عليها. وأن يمنعوا أيَّ إنسان حاقد ظالمٍ من انتهاكها أو الاعتداء عليها وقتل صاحبها، لأنه يكون بذلك كأنما قتل الناس جميعاً.

أما قوله: «ومن أحياها فكأنّما أحيا الناس جميعاً» فيوحي لنا بأمرين:

١ ـ إن إحياء الإنسان لنفس أخيه الإنسان، ومحافظته عليها، دليلٌ على تمكُّن المعاني الإنسانية من نفسه، وتوفُّر الأخلاق الإنسانية الفاضلة فيه. وتوجيهها لسلوكه وحياته.

٢ ـ إن هذا الذي يحترم النفوس الإنسانية ويصونها، يكون قدوةً للآخرين في هذا السلوك الإنساني النبيل، ويكون هذا الإنسان صاحب أثر في تحويل النّاس إلى الجانب العملي الإيجابي، في إحيائهم لنفوس الآخرين.

وللحقيقة نقرر: إنه لا يُلحظ هذا المعنى الإنساني عند الإنسان مثل ما يُلحظ في الإسلام، ولا يكرِّم إنسانية الإنسان مثل الإسلام، ولا يحافظ

عليها أُناسٌ مثل المسلمين الملتزمين بالإسلام. والتاريخُ شاهد على مصداق هذه الحقيقة.

وصدق الشاعر القائل:

مَـلَكْنَـا فَكَـانَ العَـدْلُ مِنّا سَجِيَّـةً فَلَمّـا مَلَكْتُمْ سَـالَ بِالـدَّمِ أَبْـطَحُ
وَحَلّلْتُمْ قَتْـلَ الأَسَـارى وَطَـالَمَـا غَـدَوْنَا عَلَى الأَسْرَى نَمُنُّ وَنَصْفَحُ
فَحَسْبُكُـمُ هَـذَا التَفَـاوُتُ بَيْنَنَـا فَكُـلّ إناءٍ بِـالّـذِي فِيـهِ يَنْضَـحُ

إن أسهل شيء عند غير المسلمين هو قتل النفوس، وإزهاق الأرواح، وسفكُ الدماء، بدون سبب، كما نراه في هذا العصر!

لماذا «كتبنا على بني إسرائيل»؟

وتستوقفنا في آية التعقيب على القصة أيضاً، هذه الجملة: «من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل» فما هي الصلة بين قصة ابنيْ آدم وبين بني إسرائيل؟ ولماذا خُصِّصوا هم بالذكر دون غيرهم من الأقوام والأمم؟.

يبدو أنّ الصلة بين بني إسرائيل وبين ابنيْ آدم ـ أو ابن آدم القاتل بلفظ أدقّ ـ هي صلة القتل، وأن الرابط بينهما هو الرغبة في القتل.

ولم يفطن لهذا المعنى المفسرون الذين ذهبوا إلى أن ابني آدم المذكوريْن في القصّة، هما من بني إسرائيل، وأن نسبتهما إلى آدم إنّما نسبة عامّة باعتباره هو أبو البشر جميعاً، والذي حملهم على هذا القول، هو هذه الجملة «من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل».

وسبق أن ناقشْنا هذا الرأي، وأوردْنا الأدلّة على أنّهما ابنا آدم من صلبه، حسب ظاهر النص القرآني.

إن ذكر بني إسرائيل هنا يشير إلى بعض الحقائق:

١ ـ وحـدة الرسالات، واتفاقُها فـي أصول العقائد والتشريعات، فالقتل عدواناً حرام فـي شريعة آدم ـ عليه السلام ـ التي بلّغهـا لأولاده. وحرام فـي شريعة بني إسرائيل، وحرام فـي شريعة الإسلام.

٢ ـ إن بني إسرائيل قد تمكنت من نفوسهم فكرة القتل، وتأصَّلتْ فـي حياتهم، ورسخت فـي تاريخهم، وصبغت تصرّفاتهم وأعمالَهم، وبها تحـوّلوا إلى أكثر الشعوب رغبة فـي القتل، وممارسةً له.

وإن التاريخ البشري يسجّل مصداق هذه الإشارة. حيث نرى أن الكثيـر من جرائم القتل الفردية والجماعية، كـان وراءها اليهود.

٣ ـ وتجمـع بين ابن آدم القـاتل، وبين الكـافرين من بني إسـرائيـل، صفةٌ أخرى وهي عداؤهم للمعاني الإنسانية، وحقدهم على القيم الإيمانية، وإصرارهم على الخطأ والباطل، وحسدهم للآخرين، واعتداؤهم عليهم، بدون ذنب ارتكبوه، ومتابعتُهم للشيطان.

تلخيص لأهم دروس القصّة:

١ ـ إن ابنَيْ آدم يمثـلان نموذجين مختلفين من نمـاذج البشر: نمـوذج المؤمن الهـادىء المسالم الـوادع. ونموذج الشـرير الحـاقد الـظالم. وهـذان النموذجان لا تخلـو منهما البشرية فـي أي زمان ومكان.

٢ ـ إن الرجل القاتل قد أسلم نفسه للشيطان، وإن جريمته هي النتيجة الطبيعية للاستجابة للشيطان، واتباع خطواته.

٣ ـ إن الرجلَيْن إبنان لآدم من صلبه.

٤ ـ كون الرجل القاتل إبناً لآدم من صلبه يوحي بإشارة هامة، فمـع أنّ آدم ـ عليـه السلام ـ نبيٌّ، إلاّ أن ابنـه اختار طـريق الكفـر والبـاطـل، وقـد يكون للأنبيـاء أولاد فاسـدون كافـرون ـ مثل ابن آدم وابن نـوح ـ وقد يكـون للصالحين أبناء فـاسدون، وهـذا لا يعيب الآباء الصـالحين، بشرط أن يقـوموا بواجبهم مـع أولادهم بالدعوة والنصـح والتذكير.

٥ ـ من لوازم تلاوة القصّة بالحقّ ـ كما أمرنا الله ـ أن نكتفي بما ورد عنها في القرآن والحديث الصحيح، ولا نذهب إلى المصادر الأخرى من إسرائيليات وأساطير وخرافات.

٦ ـ وجوبُ ردّ الأمورِ المتنازع عليها إلى الله، والقبول بحكمه، وهذا دليل صدق الإيمان، وبهذا يُحل الخلاف، ويُؤْتى بالحكم الصائب.

٧ ـ إنّ الله يتقبّل من المتّقين. وكل من أحبّ أن يقبله الله، وأن يتقبل منه أعماله، فعليه أن يحقِّق فيه صفة التقوى.

٨ ـ إذا كان الحقّ مع أخيه، فعلى المؤمن أن يتنازل له، وأن لا يسمح بأي شيء أن يؤثر على علاقته مع أخيه ومحبته له.

٩ ـ لا يمكن لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلاّ خطأ.

١٠ ـ إن الذي يمنع المؤمن من سفك دم أخيه هو الخوفُ من الله رب العالمين. وليس هو الضعف والعجز والجبن وقلة الحيلة.

١١ ـ إن القاتل يبوء بإثمين: إثمُه هو لأنه قتل، وإثم القتيل فيما لو كان هو القاتل.

١٢ ـ إن القاتل أو المجرم يعيش فترة من الصراع النفسي المرير، وذلك عندما يقوم بجريمته لأول مرّة، حيث تصطرع في نفسه معاني الحق والخير، مع نزغات الشيطان ووساوس النفس.

١٣ ـ وجوب الاستعانة بالعلوم والمعارف الحديثة في توسيع مفهوم الآيات، وإضافة أبعاد جديدة لها، كما مرّ معنا في وقفتنا التحليلية أمام هذه العبارات «فطوعت له نفسه قتل أخيه» «قال يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب» «فأصبح من النادمين» «من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنّما قتل الناس جميعاً».

١٤ ــ إن المجرم، عندما يرتكب جريمته يخسر كل شيء.

١٥ ــ إن الإنسان الذي يتيه ويتجبر ويطغى، يقف أحياناً عاجزاً عن حل بعض المشكلات والمسائل السهلة الميسَّرة.

١٦ ــ الندم ندمان: ندم يقود للتوبة والمغفرة، وهو ندم التائب المنيب، وندم لا يقود لذلك، هو ندم العاجز الفاشل الخاسر.

١٧ ــ إن مَنْ أجاز لنفسه قتل إنسان بدون حق فكأنّما قتل النّاس جميعاً، لأن التحرُّج من القتل موجود قبل ارتكاب الجريمة، أمّا بعدها فإنه يزول ويتلاشى، حيث يتحول القتل إلى مهنة أو عادة أو هواية.

١٨ ــ على البشرية أن تقف أمام القتلة والمعتدين، وأن تأخذ على أيديهم، وأن تمنعهم من ممارسة «هوايتهم» الشيطانية.

١٩ ــ اليهود من أكثر الشعوب ممارسةً للقتل عدواناً وظلماً، وسفكاً لدماء الآخرين.

٢٠ ــ كل من سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، لأنه يكون قدوة للآخرين في فعل الخير، وكل من سنّ سنّة سيئة فعليه وِزْرُهَا وَوِزْر من عمل بها إلى يوم القيامة، لأنّه يكون قدوة للآخرين في فعل الشر.

ولذلك يكون على ابن آدم الأول الحاقد القاتل نصيبٌ من كل قتلٍ بغير حق إلى يوم القيامة، لأنّه أوّل من سنّ القتْل!!

٤

قِصَّةُ الَّذِي ٱنسَلَخَ مِنْ آيَاتِ ٱللهِ

قِصَّةُ الَّذِي انْسَلَخَ مِنْ آيَاتِ اللهِ

القصّة في السياق القرآني:

قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾[١].

تفصيلات القصّة إسرائيليات:

أورد المفسرون بالمأثور تفصيلاتٍ لقصّة الرجل الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها، فأتبعه الشيطان. حدَّدوا في تلك التفصيلات اسمَه وعملَه والآياتِ التي آتاها الله له، وحربَه لبني إسرائيل، وتفصيلاتِ تلك الحرب.

ونورد فيما يلي رواية عن تلك التفضيلات لنحذِّر منها:

---

(١) سورة الأعراف: آيات ١٧٥ ــ ١٧٧.

روى الطبري في تفسيره عن سالم أبي النضر، أنه حدّث: أنّ موسى عليه السلام لمّا نزل في أرض بني كنعان من أرض الشام ـ وكان «بَلْعَمْ» ببالِعَة: قرية من قرى البلقاء، فلما نزل موسى ببني إسرائيل ذلك المنزل ـ أتى قومٌ بلعم إلى بلعم، فقالوا له: يا بلعم: إن هذا موسى بن عمران في بني إسرائيل، قد جاء يخرجنا من بلادنا، ويقتلنا، ويحلها بني إسرائيل. وإنّا قومك، وليس لنا منزل، وأنت رجل مجاب الدعوة، فاخرج فادع الله عليهم.

فقال: ويلكم. نبي الله معه الملائكة والمؤمنون، كيف أذهب أدعو عليهم، وأنا أعلم من الله ما أعلم! قالوا: ما لنا من منزل. فلم يزالوا به يرققونه ويتضرعون إليه، حتى فتنوه فافتَتَن.

فركب حِمارة له، متوجهاً إلى الجبل الذي يُطلعه على عسكر بني إسرائيل، ـ وهو جبل «حُسْبان» ـ فلما سار عليها غير كثير، ربضتْ به، فنزل عنها فضربها، حتى إذا أتعبها قامت فركبها. فلم تسِرْ كثيراً حتى ربضتْ به، فضربها. فأذن الله لها فكلمتْه حجة عليه.

فقالت له: ويحك يا بلعم، أين تذهب؟ ألا ترى الملائكة أمامي تردُّني عن وجهي هذا؟ أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين تدعو عليهم؟

فلم يزل يضربها، فخلى الله سبيلَها، فانطلقت به حتى أشرفت به على رأس جبل «حسبان» على عسكر موسى وبني إسرائيل.

فجعل يدعو عليهم، فلا يدعو عليهم بشيء إلاّ صُرِف به لسانُه إلى قومه، ولا دعا لقومه بشيء إلاّ صُرف لسانه إلى بني إسرائيل. فقال له قومه: أتدري يا بلعم ما تصنع؟ إنما تدعو لهم، وتدعو علينا. قال: فهذا ما لا أملك، هذا شيء قد غلَب اللّهُ عليه.

واندلع لسانه، فوقع على صدره.

فقـال لهم: قـد ذهبتْ الآن منّي الـدنيـا والآخـرة، فلم يبقَ إلّا المكـر والحيلة، فسأمكر لكم وأحتال.

جمِّلوا النساء، وأعطوهن السلع، ثم أرسلوهن إلى العسكـر يبعنها فيـه، ومروهن فلا تمنـع امـرأة نفسها من رجـل أرادها. فـإنهـم إن زنى منهم واحد، كفيتُموهم. ففعـلوا.

فلما دخل النساء العسكر، دخلت امرأة من الكنعانيين، اسمهـا «كسبـى ابنة صور» رأس أمته، برجل من عظماء بني إسرائيـل، وهو «زمـرى بن شلوم» رأس سبط شمعون. فقام إليهـا، فأخـذ بيدهـا حين أعجبه جمـالها، ثم أقبـل بها، حتى وقف بها على مـوسى عليه السـلام، فقال لـه: إني أظنك ستقـول: هذه حرام عليك؟ فقال له موسى: أجل. هي حرام عليك، لا تقربها!

قال: فوالله لا نطيعك في هذا.

فدخل بها قبته، فوقع عليها.

وأرسل الله الطاعون في بني إسرائيل. وكان فنحاص بن العيزار صـاحب أمر موسى، وكان رجلاً قـد أُعطي بسـطة في الخلْق، وقوة في البـطش، وكان غـائبـاً حين صنـع زمـرى بن شلوم مـا صنـع. فجـاء والـطاعـون يَحـوس في بني إسرائيل، فأُخبر الخبر، فأخـذ حربتـه، وكانت من حـديد كلهـا، ثم دخل عليه القبة، وهما متضاجعان. فانتظمهما بحربته، ثم خـرج بهمـا رافعُهما إلى السماء، والحربـة قد أخـذها بـذراعه واعتمـد بمرفقـه على خاصـرته، وأسنـد الحربة إلى لحييه، وجعل يقول: اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك.

ورُفع الطاعون، وحُسِبَ مَنْ هلك من بني إسرائيل في الطاعون في تلك الساعة، فوجدوهم سبعين ألفاً.

وفي بلعم بن باعوراء أنزل الله على محمد ﷺ: «واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا. . .»[1].

رفْض تلك الإسرائيليات:

هذه التفصيلات لم تُنقل بسند صحيح عن رسول الله ﷺ، ولذلك لم يقلها عليه الصلاة والسلام.

وبما أن قصة ذلك الرجل من قصص السابقين، وبما أن تلك القصص من عالم الغيب، وذلك لا يعلمه إلاّ الله، فلا يجوز لأحد أن يخوض في تفصيلات تلك القصص، ولا أن يأخذ فيها عن أحد من البشر، ونحن ملزَمون أن نبقى مع ما ورد عن تلك القصص في آيات القرآن، والأحاديث الصحيحة للرسول عليه الصلاة والسلام.

لهذا كله نرفض تلك التفصيلات عن ذلك الرجل، ونعتبرها من الأساطير والإسرائيليات. وهذه الأساطير والإسرائيليات لا يجوز أن نفسِّر بها كلامَ الله الصادقَ المعجزَ ـ سبحانه ـ.

لقد أوردْنا تلك التفصيلات الإسرائيلية ـ على منهجنا في النظر في قصص السابقين في القرآن ـ لنحذِّر منها، وننبِّه إلى وضْعها، وندعو إلى عدم روايتها أو ذكرها إلاّ مع النص على رفضها وتركها، ولا نجيز لأحد أن يأخذها عنا معتمِداً لها، قابلاً بها، ناشِراً لها بين الآخرين.

سيد قطب وتلك التفصيلات:

أورد الأستاذ الإمام سيد قطب رأياً لطيفاً في رفض تلك التفصيلات الإسرائيلية.

---

(١) تفسير الطبري تحقيق محمود شاكر ١٣ : ٢٦٤ ـ ٢٦٧.

قال: «وبعد: فهل هو نبأ يُتلى؟ أم أنه مثل يُضرب في صورة النبأ لأنه يقع كثيراً. فهو من هذا الجانب خبر يُروى؟.

تذكر بعض الروايات أنه نبأ رجل كان صالحاً في فلسطين ـ قبل دخول بني إسرائيل ـ وتَروي بالتفصيل قصة انحرافه وانهياره، على نحو لا يأمن الذي تمرَّسَ بالإسرائيليات الكثيرة المدسوسة في كتب التفاسير، أن يكون واحدة منها، ولا يطمئن على الأقل لكل تفصيلاته التي ورد فيها.

ثم إن في هذه الروايات من الاختلاف والاضطراب ما يدعو إلى زيادة الحذر.. فقد رُوي أن الرجل من بني إسرائيل «بلعام بن باعوراء». ورُوي أنه كان من أهل فلسطين الجبابرة. ورُوي أنه كان من العرب «أمية بن أبي الصلت». ورُوي أنه كان من المعاصرين لبعثة الرسول ﷺ «أبو عامر الفاسق». ورُوي أنه كان معاصراً لموسى عليه السلام. ورُوي أنه كان بعده، على عهد يوشع بن نون، الذي حارب الجبارين ببني إسرائيل بعد تيه الأربعين سنة، على إثر رفض بني إسرائيل الدخول.. كذلك روي في تفسير الآيات التي أُعطيها، أنه كان «اسم الله الأعظم» الذي يدعو به فيُجاب. كما روي أنه كتاب مُنزل وأنه كان نبياً. ثم اختلفتْ تفصيلات النبأ بعد ذلك اختلافات شتى.

لذلك رأينا ـ على منهجنا في ظلال القرآن ـ ألا ندخل في شيء من هذا كله. بما أنه ليس في النص القرآني منه شيء. ولم يَرد من المرفوع إلى رسول الله ﷺ عنه شيء. وأن نأخذ من النبأ ما وراءه»(١).

مبهمات في قصة ذلك الرجل:

في قصة ذلك الرجل الذي انسلخ من آيات الله، مبهماتٌ لم يبيِّنْها القرآن ولا الحديث الصحيح، فلا سبيل إلى بيانها.

---

(١) الظلال ٣: ١٣٩٧.

من هذه المبهمات التي يجب الوقوف أمامها بدون محاولة للبيان:

١ ــ اسم ذلك الرجل الذي انسلخ من آيات الله، وتخلّى عن العلم، واتبع الشيطان. وقد اختلَف السابقون في تحديد اسمه، فمنهم من قال إنه «بلعم بن باعور» ــ أو بلعام بن باعوراء ــ ومنهم من قال إنه «أمية بن أبي الصلت» ومنهم من قال: إنه «أبو عامر الفاسق»، ومنهم من قال غير ذلك.

ولا نرى هذا الاختلاف والخلاف في اسمه، فلا فائدة عملية أو علمية تتوقف على معرفة اسمه، ولو كان في تحديد اسمه عِلْماً أو نفعاً أو فائدةً لحدده الله وذكره في القرآن.

ويعجبني قول الإمام الطبري معقّباً على الخلاف في اسمه: «إن الله أمر نبيه ﷺ، أن يتلو على قومه خبر رجل، كان آتاه حججه وأدلته، وهي الآيات.

وجائز أن يكون الذي آتاه الله ذلك «بلعم» وجائز أن يكون «أمية»[1].

٢ ــ الزمن الذي كان يعيش فيه ذلك الرجل، فمن الجائز أن يكون من بني إسرائيل، ومن الجائز أن يكون من الجبابرة أو الكنعانيين زمن موسى عليه السلام، أو زمن يوشع بن نون من بعد موسى، وأن يكون زمن رسول الله ﷺ وهو في مكة، أو وهو في المدينة، فلا يمكن تحديد ذلك الزمن الذي عاش فيه الرجل، أو القوم الذين كان يعيش معهم.

٣ ــ الآيات التي آتاه الله إيّاها، هل هي اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى؟ أم هي كتاب منزل عليه من الله؟ أم هي آيات عقلية معنوية؟

(١) تفسير الطبري ١٣ : ٣٥٩.

٤ ـ تفصيلاتُ انسلاخه من آيات الله، وكيفيةُ ذلك الانسلاخ، والمكان الذي تم فيه الانسلاخ.

٥ ـ كيفية اتباعه للشيطان، أو اتباع الشيطان له.

٦ ـ كيفية لهاثه المستمر كالكلب، وسبب ذلك اللهاث.

من روائع التصوير الفني في القصة:

عُرضت قصة الذي انسلخ من آيات الله، بطريقة «التصوير الفني» ـ تلك الطريقة المعجزة، المفضَّلة في التعبير القرآني، والتي استُخدمت في عرض ثلاثة أرباع موضوعات القرآن تقريباً ـ.

قال الأستاذ الإمام سيد قطب ـ رائد نظرية التصوير في القرآن ـ عن روائع التصوير في القصة: «إنه مشهد من المشاهد العجيبة، الجديدة كلَّ الجدة على ذخيرة هذه اللغة من التصورات والتصويرات.. إنسان يؤتيه الله آياته، ويخلع عليه من فضله، ويكسوه من علمه، ويعطيه الفرصة كاملة للهدى والاتصال والارتفاع.. ولكن: ها هو ذا ينسلخ من هذا كله انسلاخاً. ينسلخ كأنَّما الآيات أديمٌ له، متلبِّس بلحمه، فهو ينسلخ منها بعنف وجهد ومشقة، انسلاخَ الحي من أديمه اللاصق بكيانه.. أو ليست الكينونة البشرية متلبسة بالإيمان باللَّه تلبُّس الجلد بالكيان؟.. ها هو ذا ينسلخ من آيات الله، ويتجرد من الغطاء الواقي، والدرع الحامي، وينحرف عن الهدى ليتبع الهوى، ويهبط من الأفق المشرق ليلتصق بالطين المعتِم فيصبح غرضاً للشيطان، لا يقيه منه واق، ولا يحميه منه حام، فيتبعه ويلزمه ويستحوذ عليه.. ثم إذا نحن أولاء أمام مشهد مفزع بائس نكد.. إذا نحن بهذا المخلوق، لاصقاً بالأرض، ملوَّثاً بالطين. ثم إذا هو مسخ في هيئة الكلب، يلهث إن طورد، ويلهث إن لم يطارَد.. كل هذه المشاهد المتحركة تتتابع وتتوالى، والخيال شاخص

يتبعها في انفعال وانبهار وتأثر.. فإذا انتهى إلى المشهد الأخير منها، مشهد اللهاث الذي لا ينقطع.. سمع التعليق المرهوب الموحي، على المشهد كله:

﴿ذٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبوا بِآياتنا، فاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرون. سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذينَ كَذَّبوا بِآياتِنا، وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمون﴾[1].

ونتنقل من البيان العام الموجز للتصوير الفني في القصة، كما قدمه سيد قطب، إلى إشارات لبعض الصور الجزئية في المشهد المصوَّر الحيّ:

١ ـ قوله «فانسلخ منها» المعنى الذهني النظري أنه تخلى عن آيات الله، وترك الحق الذي فيها.

لكن الآية عَرضت هذا المعنى الذهني في صورة موحية: وكأن الآيات التي أعطيت له، التصقت به التصاقاً مباشراً، فأصبحت جلداً له. وهو عندما أراد أن يتخلى عن آيات الله، فكأنه ينسلخ من جلده. وتخيَّلْ أنت مظهر هذا البائس، وهو يقوم بمحاولات شاقة لينسلخ من جلده، وتخيَّلْ ذلك الانسلاخ الجزئي البطيء، تخيلْه وهو ينسلخ من جلد رأسه، وجلد يديه، وجلد صدره، وجلد رجليه..

وهل يمكن أن ينسلخ الإنسان من جلده؟ أو قل: وهل يمكن أن يتم سلخ جلد الإنسان؟ إذ من المعروف أن جلد الإنسان رقيق رهيف، إن عملية السلخ ـ لو تمَّت ـ ستحمل ما تحمل من العنف والشدة والقسوة والجهد والمعاناة.

فكيف إذا كان الذي سيقوم بالسلخ هو الإنسان نفسه، صاحب الجلد، وماذا يسلخ؟ إنه يسلخ جلده هو نفسه!

---

(١) الظلال ٣: ١٣٩٦ ـ ١٣٩٧.

هذه الصورة العجيبة، بثّتها كلمة «فانسلخ منها».

٢ ــ قوله «فأتْبعه الشيطان» حيث نتصور ذلك المخلوق البائس في صورة جديدة مُزْرية: نتصورُه وقد انسلخ من جلده، وخرج إلى الطريق يسير، يسير بدون جلد! ويا ليته يسير سيراً طبيعياً، إذن لهان الأمر، إنه يسير وخلفَه الشيطان، يحثه على السير بل الجري، وكلما أعْيَىٰ وحاول التوقف، يلهبه الشيطان من خلفه بالسوط، يوقعه على جسمه، جسمه المنزوعِ الجلد، وما آلم السوط على الجلد، فكيف إذا وقع على جسم مسلوخ؟.

إن الجديد في هذه الصورة أن الشيطان هو الذي يتبع خطوات ذلك الرجل، وليس الرجل هو الذي يتبع خطواته. بينما ذكر القرآن صوراً أخرى، الناس هم الذين يتبعون الشيطان، ويقتفون خطواته.

٣ ــ «ولكنه أخلد إلى الأرض» أي التصق بالأرض، وتلطخ بما عليها من أوحال وطين وقاذورات. وكان بمقدوره أن يرتفع بآيات الله، وأن يحلّق في عالم الرفعة والعزة، والصدق والالتزام، والطهر والنقاء، لكنه آثر الهبوط والسفل والسقوط والإخلاد إلى الأرض، والالتصاق بالطين. وانظر المقابلة بين الصورتين: الارتفاع في السماء والإخلاد إلى الأرض، في قوله «ولو شئنا لرفعْناه بها، ولكنه أخلد إلى الأرض». فالذي يأبى التحليق والارتفاع، فلن يكون إلاَّ ملتصقاً بالأرض هابطاً إلى أسفل، إما إرتفاعٌ وإما هبوط. إما تحليقَ وإما انحطاط.

٤ ــ قوله «واتَّبع هواه» حيث نرى هذا الرجل يتَّبع شيئاً أمامه، إنه «هواه» والهوى شيء معنوي، ولكنه في هذا المشهد المصوَّر المتحرك يتحول إلى شيء مجسَّم، بل يتحول إلى شخص حي يتحرك ويسير، وهذا الرجل المسلوخ من جلده، يسير خلفه ويتبعه، فحيثما سار الهوى، سار المسلوخ وراءه. ولا ننسى الشيطان الذي يسير خلفه يحثه على السير، ويلهب ظهره بالسياط.

بهذا المشهد المتحرك نرى الرجل المنسلخ من جلده ــ من آيات الله ــ تابعاً لهواه، متبوعاً من قبل الشيطان. ونلاحظ الحصار المحكَم عليه حتى لا يفلت، فأمامه الهوى، وخلفه الشيطان.

٥ ــ قوله «فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ: إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث، أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ». وهذه هي الغَاية في الإزراءِ على الرجل وتشويهِ منظره، وتقبيح فعله.

إنه في هذه الصورة مِثْل الكلب، وإن مثَله مثَلُ الكلب، وإنه في موقفه الجديد يُشْبه الكلب.

لكن: بماذا يشبه الكلب؟ وما هو وجه الشبه بينهما؟

إنه في اللهاث. اللهاث الدائم الذي لا ينقطع.

الكلب يلهث دائماً: إن تحمل عليه وتطرده يلهث، وإن تتركه يلهث. إن ركض يلهث، وإن سار يلهث، وإن جلس يلهث.

وذلك الرجل بعدما تخلى عن آيات الله وانسلخ منها، فهو يلهث ويلهث ويلهث، هو دائم اللهاث.

يلهث لأنه يتبع هواه، ويلهث لأنه يخلد إلى الأرض، ويلهث لأن الشيطان يحثه على السير، ويلهث لأنه ينسلخ من جلده.

مع سيد قطب في البعد الواقعي لتلك القصة:

القصص القرآني قصصٌ واقعي، بمعنى أن أحداثه حصلت في عالم الواقع، في فترة ماضية من الزمان.

كما أن القصص القرآني له «بُعْدٌ» واقعي، بمعنى أنه ينطبق على أي واقع يعيشه الناس، وأن صفات وسمات وملامح أشخاصه وأبطاله تنطبق على

أناس وأشخاص، يوجدون في أي واقع يعيشه بنو الإنسان، فكأن الآيات التي تتحدث عن السابقين، تتحدث عن أناس وأشخاص يراهم الإنسان منا أمامه، ويلحظ انطباق الآيات عليهم.

هذه صفة عامة للقصص القرآني، وما يقدِّمه من نماذج إنسانية.

أما بالنسبة لموضوعنا، فإن ما قدمتْه الآيات من تصوير وتمثيل للذي انسلخ من آيات الله، وما عرضتْه من صفاته وسماته وملامحه، وما بينتْه من حركاته وأعماله، له «بُعْد» واقعي، إذ نراه ينطبق على أشخاص في واقعنا، نراهم من حولنا، ويعيشون بيننا. إنه ينطبق على كل من تخلَّى عن العلم، وانسلخ من الدين، ووظَّف علمه الشرعي لخدمة الطواغيت والظالمين، بدل أن يوظفه لإسعاد الآخرين، ونشر الدين.

وخيرُ مَن بيَّن «البعدَ الواقعي» لتلك القصة، الأستاذ الإمام الشهيد سيد قطب، الذي ابتُلي بأناس من حملة «العلم الشرعي» الذي استخدموه في التزلف للظالمين والطواغيت.

قال: «إنه يمثل حال الذين يُكذِّبون بآيات الله، بعد أن تَبينَ لهم، فيَعرفوها ثم لا يستقيموا عليها.

وما أكثر ما يتكرر هذا النبأ في حياة البشر، ما أكثر الذين يُعْطَوْن علم دين الله، ثم لا يهتدون به، إنما يتخذون هذا العلم وسيلة لتحريف الكلم عن مواضعه، واتباع الهوى به.. هواهم وهوى المتسلطين الذين يملكون لهم ـ في وهمهم ـ عرَض الحياة الدنيا.

وكم من عالم دين رأيناه، يعلم حقيقةَ دين الله ثم يزيغ عنها. ويستخدم علمه في التحريفات المقصودة، والفتاوى المطلوبة لسلطان الأرض الزائل! يحاول أن يثبِّت بها هذا السلطان المعتدي على سلطان الله وحرماته في الأرض. جميعاً!.

لقد رأينا من هؤلاء من يَعلم ويقول: إن التشريع حق من حقوق الله ـ سبحانه ـ من ادَّعاه فقد ادّعى الألوهية، ومن ادّعى الألوهية فقد كفر. ومن أقرَّ له بهذا الحق وتابعه عليه فقد كفر أيضاً!.

ومع ذلك.. مع علمه بهذه الحقيقة التي يعلمها من الدين بالضرورة، فإنه يدعو للطواغيت الذين يدَّعون حق التشريع، ويدَّعون الألوهية بادعاء هذا الحق.. ممن حكم هو عليهم بالكفر! ويسميهم «المسلمين»! ويسمي ما يزاولونه إسلاماً لا إسلام بعده!.

ولقد رأينا من هؤلاء من يكتب في تحريم الربا كله عاماً، ثم يكتب في حله كذلك عاماً آخر. ورأينا منهم من يبارك الفجور وإشاعة الفاحشة بين الناس، ويخلع على هذا الوحل رداء الدين وشاراته وعناوينه.

فماذا يكون هذا إلَّا أن يكون مصداقاً لنبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين؟ وماذا يكون هذا إلَّا أن يكون المسْخ الذي يحكيه سبحانه عن صاحب النبأ: «ولو شئنا لرفعناه بها، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه. فمثله كمثل الكلب، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث!». ولو شاء الله لرفعه بما آتاه من العلم بآياته. ولكنه ـ سبحانه ـ لم يشأ، لأن ذلك الذي علِم الآيات أخلد إلى الأرض واتبع هواه، ولم يتبع الآيات.

إنه مثَلٌ لكل من آتاه الله من علم الله، فلم ينتفع بهذا العلم، ولم يستقم على طريق الإيمان، وانسلخ من نعمة الله، ليصبح تابعاً ذليلاً للشيطان، ولينتهي إلى المسخ في مرتبة الحيوان!

ثم ما هذا اللهاث الذي لا ينقطع؟

إنه ـ في حسِّنا كما توحيه إيقاعاتُ النبأ وتصويرُ مشاهده في القرآن ـ ذلك اللهاثُ وراء أعراض هذه الحياة الدنيا، التي من أجلها ينسلخ الذين

يؤتيهم الله آياته فينسلخون منها. ذلك اللهاث القلِق الذي لا يطمئن أبداً. والذي لا يتركه صاحبه، سواء أوعظْتَه أم لم تعظه، فهو منطلق فيه أبداً!.

والحياة البشرية ما تني تطلع علينا بهذا المثل في كل مكان وفي كل زمان وفي كل بيئة. حتى إنه لتمر فترات كثيرة، وما تكاد العين تقع على عالم، إلَّا وهذا مَثَله. فيما عدا الندرة النادرة ممَّنْ عصم الله، ممَّن لا ينسلخون من آيات الله، ولا يخلدون إلى الأرض، ولا يتبعون الهوى، ولا يستذلهم الشيطان، ولا يلهثون وراء الحطام الذي يملكه أصحاب السلطان! فهو مَثَل لا ينقطع وروده ووجوده، وما هو بمحصور في قصةٍ وقعت، في جيل من الزمان!.

وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يتلوه على قومه الذين كانت تتنزل عليهم آيات الله، كي لا ينسلخوا منها وقد أوتوها. ثم ليبقى مِن بعدِهم يُتلى، ليحذر الذين يعلمون من علم الله شيئاً أن ينتهوا إلى هذه النهاية البائسة، وأن يصيروا إلى هذا اللهاث الذي لا ينقطع أبداً، وأن يظلموا أنفسهم ذلك الظلم الذي لا يظلمه عدو لعدو، فإنهم لا يظلمون إلَّا أنفسهم بهذه النهاية النكدة.

ولقد رأينا من هؤلاء ــ والعياذ باللّه ــ في زماننا هذا مَنْ كان كأنما يحرص على ظلم نفسه، أو كمن يعضُّ بالنواجذ على مكان له في قعر جهنم، يخشى أن ينازعَه إياه أحد من المتسابقين معه في الحلبة! فهو ما يني يقدِّم كل صباح ما يثبِّت به مكانه هذا في جهنم! وما يني يلهث وراء هذا المطمع لهاثاً لا ينقطع حتى يفارق هذه الحياة الدنيا.

اللهم اعصمنا، وثبِّت أقدامنا، وأفرغ علينا صبراً، وتوفنا مسلمين»[١].

ونعقِّب على الدعاء الحار الذي ختم الإمام سيد قطب بيانه، بأن الله قد

---

(١) الظلال ٣: ١٣٩٧ ــ ١٣٩٩.

استجاب له، فثَبَتَ على دين الله ودعوته، رغم ما لاقى من محن وإغراء، حتى لقي الله شهيداً.

الإيمان وجلد الإنسان:

نقف وقفة سريعة أمام الحكمة من تشبيه آيات الله بجلد الإنسان، وتصوير ذلك الرجل الذي انسلخ منها كمن ينسلخ من جلده. نقف لنشير إلى «الصِّدْق الواقعي» لتلك الصورة وذلك التشبيه.

إن جلد الإنسان ملتصقٌ به، ملازم له، ساترٌ لجسمه، واقٍ له من الآفات والأخطار، كما أن الإنسان بجلده يكتسب جمالاً وبهاءً.

وهكذا الإيمان بالنسبة للإنسان، وهكذا الآيات تُضْفي على الإنسان.

إن الأصل أن تكون آياتُ الله وما فيها من إيمان وصدقٍ والتزام، ملتصقةً بالإنسان التصاقَ جلده به، ملازمةً له ملازمةَ جلده له، فلا يُتصور أن يتخلى المؤمن عنها لحظة من ليل أو نهار، لأنه لا يُتصور تخليه عن جلده.

إن الذين يجعلون من الإيمان «بَدْلَة» تُلبس في المناسبات الإسلامية، والمجالس الدينية، لا يفهمون حقيقة الإيمان، لا يلتزمون به حق الالتزام. ليس الإيمان «موضةً» لوقت من الأوقات. ولا «زيّاً» لساعة من الساعات. ولا «ساعة» يعيشها الإنسان من يومه دون باقي الساعات. إن الإيمان «حالةٌ» دائمة تلازم المؤمن في كل وقت وزمان ومكان.

وبما أن الجلد ساتر للجسم، ومضْفٍ عليه زينة وجمالاً وحسْناً، فكذلك الإيمان، فهو الذي يزيِّن صاحبه، ويمنحه ما يمنحه من حسن وجمال، وصدق الله القائل: ﴿وَلٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُم الإيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ، وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾[1].

---

(١) سورة الحجرات: آية ٧.

الإنسان بالإيمان حَسَنٌ جَمِيلٌ، وبدون الإيمان قبيح شائه كريه، بدون الإيمان تظهر مفاسده وقبائحه ورذائله ومباذله وانحرافاته. وما أكثرها عنده، إنه لا يسترها إلاَّ الإيمان، زينة الله للمؤمن.

أثر التخلي عن الحق واتباع الهوى:

تشير القصة إلى أثر الانسلاخ من آيات الله والتخلي عن الحق على الإنسان. وذلك في هذه العبارات:

١ ــ فأَتْبعه الشيطان.

٢ ــ فكان من الغاوين.

٣ ــ ولو شئنا لرفعناه بها، ولكنه أخلد إلى الأرض.

٤ ــ واتَّبع هواه.

٥ ــ فمثله كمثل الكلب.

٦ ــ إن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث.

إنها ستة آثار خطيرة للتخلي عن الحق والانسلاخ من آيات الله، كل واحد منها يعتبر خطراً عظيماً، وخسارةً بالغةً، فكيف باجتماعها كلها على صاحبها؟ إنها تُهلكه، وتجعله خاسراً ضائعاً، جندياً من جنود الشيطان.

ونأخذ من ذلك أن في الحّياة طريقيْن اثنيْن: طريق الهدى وطريق الضلال، طريق الله وطريق الشيطان، وأن من لم يكن سائراً في الطريق الأولى، فهو ولا شك ــ بالضرورة ــ سائر في الطريق الأخرى.

كما نأخذ منه أن الالتزامَ بطريق الهدى، والتحققَ بمفاهيم الإيمان وحقائقِه، والاعتصامَ الوثيق بحبل الله، هو وحده «صمّام الأمان» الذي يعصم ــ بإذن الله ــ من الشيطان، ويُبعد عن المؤمن الشيطان وجنوده.

أما مَنْ تخلى عن تلك الطريق، فإنه يقع فريسة للشيطان، ويكون أسيرَ حزبه، صريعَ وساوسه. وإذا ما استسلم للشيطان؟ فإنه يسير أمامه بإسراع ولهاث، ويكون من الغاوين الضالين المنحرفين، ويكون متَّبعاً لهواه ــ واتباع الهوى وحده آفة قاتلة ــ ويخلد إلى الأرض، ويختار سفاسِفها وملذاتها، وعندها يكون مِثْل الكلب، ويعيش حالة لهاث دائم، لهاث وراء متاع الأرض الزائل التي أخلد إليها.

طريق الرفعة وطريق الهبوط:

ونأخذ من آيات القصة طريقَ الرفعةِ وطريقَ الهبوط، وذلك في قوله «وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا. وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْض، وَاتَّبَعَ هَوَاه».

من المتَّفق عليه بين الناس، أن كل عاقل في هذه الحياة، يحب أن يكون ذا رفعةٍ ومكانةٍ ساميةٍ، وشأن عظيم، وذكْرٍ طيب جميل بين الآخرين. ولكن تختلف طرق الناس للوصول إلى هذه الغاية النبيلة، فبعضهم يسلك لها طريقاً مُغَايِراً خاطئاً، يظنه موصِلاً للغاية، ولكنه لا يجني فيه إلاَّ النقيض لها.

إن طريق العزة والرفعة هو الأخذُ الجاد الصادق الملتزم لآيات الله ودينه وشرعه، هو في قوله «لرفعناه بها».

إن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم، وفضَّله على باقي المخلوقين، وإنه يريد له العزة والارتفاع والتكريم، ولذلك أرشده إلى الوسيلة التي توصله لذلك، وأنزل عليه آياته، وبعث له رسلَه، وحدّد له أحكامه. فكل مَنْ قبل أحكام الله ورضيها والتزم بها، فقد نال العزة والرفعة والكرامة.

أما نقيض ذلك الطريق، فهو طريق الهبوط، والخسارة والضياع. إن طريق الهبوط في رفْض آيات الله، والتخلي عن شرعه، والاستجابةِ لوساوس الشيطان ونزغاته، إن طريق الهبوط في الإخلاد إلى الأرض واتباعِ الهوى «ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه».

ومعنى الإخلاد إلى الأرض هو الاغترارُ بها، وتفضيلُها على الآخرة، بل الإقبالُ عليها ونسيانُ الآخرة، والتزودُ من مفاتنها ومغرياتها ومباهجها، و «العَبّ» من شهواتها وملذاتها ومباذلها وبهارجها. ومَنْ فعل ذلك فقد اتبع هواه، وانقاد لشهواته، وأصبح أَرْضياً بهيمياً شهوانياً إباحياً.

وبالإخلاد إلى الأرض يَسْفُل ويهبط وينحط، ويوالي سقوطه ليصل القاع.

إن الطير تمتنع عن الاصطياد والافتراس طالما هي محلِّقة في الفضاء، مرتفعة في الجو، ولكنها تقع في الفخ، عندما تهبط على الأرض، وتخدع بما في الفخ من «طعم» خادع. وهكذا الإنسان!!.

لماذا الكلب دائم اللهاث:

بيَّنت القصة أن الكلب يلهث باستمرار، فهو «إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ، أَو تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ». وهذا ملاحَظ من أحوال الكلب، إنه يَلهث وهو يجري هارباً، ويلهث وهو يهجم راكضاً، ويلهث وهو يسير، ويلهث وهو رابض. فلماذا ذلك اللهاث الدائم؟

هذه لفتة علمية من اللفتات العلمية في القرآن، إذ من المعلوم أن القرآن الكريم قد حوى لفتات علمية في شتى المجالات والموضوعات، وإن نصوصه المعجِزة لتحوي كثيراً من الإشارات العلمية، وهذه الإشارات تزداد وضوحاً كلما تقدمت البشرية من العلوم والمعارف.

إن سر اللهاث الدائم للكلب، يكمن في أن الله ـ سبحانه ـ لم يخلق في جسم الكلب «مسامات» كباقي المخلوقات. ومعلوم أن المسامات ضروريةٌ للجسم، إذ أنها «تُفرز» العرق الذي يخرج منها، حاملاً معه من داخل الجسم سموماً وتلوُّثاً وخطراً، ولو لم تخرج تلك السموم مع العرق عن طريق المسامات، وبقيت في الجسم فإنها ستؤذيه وتفتك به، ولذلك فالمسامات

وخروجُ العرقِ منهـا نعمة عـظيمة من الله على الإنسـان، ضِمْن نعمِهِ العـظيمة التي لا يحصيها أحد.

وبما أن الكلب بدون مسامات في جسمه، فكيف يُخرج السموم الضارة من جسمه، إنه يُخرجها عن طريق اللهاث، يُخـرجها عن طـريق فمه ولسـانه، وهذا ما فطره الله عليه، وهداه إليه بفطرته، وصدق الله القائل: ﴿الَّذي أَعْـطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدِى﴾[١] والقائل: ﴿وَالَّذي قَدَّرَ فَهَدَى﴾[٢].

إن هذه اللفتة العلميـة، تُطْلعنـا على صورةٍ من صـور الحكمة الـربانيـة البـاهرة البـالغة، فـاللّه حكيم عليم خبير، خلق كـل مخلوق بحكمـة لغـايـة، وألهمه ما يعيش به، وهداه إلى وسائل حياته بحكمة بالغة ــ سبحانه ــ.

سر التمثيل بالكلب والحمار:

ضَرَب القرآن الكريم المثل بكلٍّ من الكلب والحمار، وشبَّه بهما نموذَجاً معيَّناً من الناس، وبيَّن وجْه الشبه بين ذلك النموذج وبينهما.

أمَّـا الذي شُبـه بالكلب، فهـو ذلك الـذي آتاه الله آيـاته فـانـسلـخ منهـا وأخلد إلى الأرض، وأتبعه الشيطان واتبـع هواه. أو قل: هو ذلك العالم الذي لم يعمل بعلمه. ووجْـه الشبه بينـه وبين الكلب هو اللهـاث الدائم المستمـر. الكلب يلهث ليخـرج العـرق من جسمـه عن طـريق لسـانـه، والعــالم الـذي لم يعمـل بعلمه، يلهث بـاستمرار جَـرْياً وراء حـطام الدنيـا، وتـزلفـاً للطاغين الـظالمين، وحرصـاً على إرضائهم على حسـاب علمه ودينـه، وتوظيفـاً لعلمه خادماً لهم.

وأما الذي شُبِّه بالحمـار، فهو ذلـك العالم الـذي لم يعمل بعلمـه، قال

(١) سورة طـه: آية ٥٠.
(٢) سورة الأعلى: آية ٣.

تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً. بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾(١).

والمقصود بالقَوم في الآية هم اليهود وأحبارُهم، حيث درسوا التوراة وفهموها، وحملوها وزعموا علمهم بها. لكنهم لم يلتزموا بها في حياتهم العملية، ولم يحوِّلوا توجيهاتها النظرية إلى حقائق حياتية مُعَاشة، وهم بذلك حُمِّلوا التوراة، ولكنهم لم يحملوها، أي لم يعملوا بها. فشبَّههم الله بالحمار الذي يحمل الأسفار والكتب، إنه يحملها ولا يدري ما بها، وسيان عنده لو حمل كتباً أو خشباً، إنه لا يجني من كل ما يحمل إلَّا ثقل الحمل ومشقته.

وماذا يختلف اليهود في حملهم للتوراة عن الحمار الذي يحمل الأسفار؟ إنهم حملوها في رؤوسهم وعقولهم وأفكارهم، وزعموا أنهم بذلك علماء، لكن هل استفادوا مما درسوا وعلموا وحفظوا؟ هل كانت حياتهم وفْق ما درسوا وعلموا وحفظوا؟ كلا. إنهم في ذلك مثل الحمار. وماذا يفترقون فيه عن الحمار؟.

النموذجُ من الناس الذي شبَّهه الله بالكلب وبالحمار، هو العالم الذي آتاه الله العلم، ليرفعَه به، ولكنه يرفض الرفعة الرّبانية والتكريمَ الإلّهي، ويؤْثر أن يخلد إلى الأرض، ويتَّبع هواه.

وهذان المَثَلَان القرآنيان دعوةٌ لكل ذي علم أن يحتاط لنفسه، وأن يتقي الله بعلمه، وأن يستخدمه في الارتفاع والتكريم ونفْع الآخرين، لا في الهبوط والسفل والتبعية الذليلة لأهل الباطل.

كم من حملة الألقاب العلمية، وأصحابِ الشهادات العلمية العالية، والذين يُشغلون أرفع المناصب والوظائف الإسلامية الرسمية لدى الظالمين

(١) سورة الجمعة: آية ٥.

الطواغيت، كم من هؤلاء من ينطبق عليه هذان المثلان القرآنيان! كم من هؤلاء من هو في ذُله وهوانه ولهاثه وراء المتاع الزائل الزائف، مِثْل الكلب في لهاثه، وكم من هؤلاء من هو في عدم استفادته من علمه مِثْل الحمار في جهله وغبائه وتعبه ومشقته.

تَبّاً لذلك الشخص الذي يزعم أنه عالم، ومَثَله كمثل الكلب والحمار، تباً لذلك الشخص الذي يجعلُه علمُه ذليلاً مُهاناً، تعيساً شقياً، وخاسراً هالكاً معذّباً يوم القيامة، ولا بارك الله في علم يوصِل صاحبه إلى هذه النهاية البائسة!.

متى يعصم العلم صاحبه من السقوط؟:

متى يعصم العلم صاحبه من السقوط؟ تساؤلٌ هام نترك للأستاذ الإمام سيد قطب الإجابة عليه، حيث يقول:

«ومن أجل أن العلم وحده لا يَعصم، يجعل المنهجُ القرآني طريقه لتكوين النفوس المسلمة والحياة الإسلامية، ليس العلمَ وحده لمجرد المعرفة، ولكنه يجعل العلم عقيدةً حارةً دافعةً متحركة لتحقيق مدلولها في عالم الضمير، وفي عالم الحياة أيضاً.

إنّ المنهج القرآني لا يُقدِّم العقيدة في صورة «نظرية» للدراسة. فهذا مجرد علم لا ينشىء في عالم الضمير ولا في عالم الحياة شيئاً.. إنه علم باردٌ لا يعصم من الهوى، ولا يرفع من ثقلة الشهوات شيئاً، ولا يدفع الشيطان، بل ربما ذلَّل له الطريق وعبَّدها.

كذلك هو لا يقدم هذا الدين دراسات في «النظام الإسلامي» ولا في «الفقه الإسلامي» ولا في «الاقتصاد الإسلامي» ولا في «العلوم الكونية» ولا في «العلوم النفسية» ولا في أية صورة من صور الدراسة المعرفية!.

إنما يقدِّم هذا الدينَ: عقيدةً دافعةً دافقةً مُحْيية موقِظةً رافعةً مستعليةً، تدفع إلى الحركة لتحقيق مدلولها العملي فور استقرارها في القلب والعقل، وتُحيي مَوات القلب فينبض ويتحرك ويتطلع، وتوقِظ أجهزة الاستقبال والاستجابة في الفطرة، فترجع إلى عهد الله الأول، وترفع الاهتمامات والغايات، فلا تثقلها جاذبية الطين، لا تخلد إلى الأرض أبداً.

ويقدِّمه منهجاً للنظر والتدبر، يتميَّز ويتفرد دون مناهج البشر في النظر، لأنه إنما جاء لينقذ البشر من قصور مناهجهم، وأخطائها وانحرافها تحت لعب الأهواء، وثقلة الأبدان، وإغواء الشيطان.

ويقدِّمه ميزاناً للحق تنضبط به عقولُ الناس ومداركهم، وتقاس به وتوزن اتجاهاتُهم وحركاتُهم وتصوراتُهم، فما قَبِلَه منها هذا الميزان كان صحيحاً لتمضي فيه، وما رفَضَه هذا الميزان كان خاطئاً يجب الإقلاع عنه.

ويقدِّمه منهجاً للحركة يقود البشرية خطوة خطوة في الطريق الصاعد إلى القمة السامقة، وِفْق خطاه هو ووفق تقديراته.. وفي أثناء الحركة الواقعية يصوغ للناس نظامَ حياتهم، وأصولَ شريعتهم، وقواعدَ اقتصادهم واجتماعهم وسياستهم، ثم يصوغ الناسُ بعقولهم المنضبطةِ به تشريعاتَهم القانونية الفقهية، وعلومَهم الكونية والنفسية، وسائرَ ما تتطلبه حياتهم العملية الواقعية.. يصوغونها وفي نفوسهم حرارةُ العقيدة ودفعتها، وجدِّيةُ الشريعة وواقعيتها، واحتياجاتُ الحياة الواقعية وتوجيهاتها.

هذا هو المنهج القرآني في صياغة النفوس المسلمة والحياة الإسلامية.. أما الدراسة النظرية لمجرد الدراسة، فهذا هو العلم الذي لا يعصم من ثقلة الأرض، ودفعة الهوى، وإغواء الشيطان، ولا يقدم للحياة البشرية خيراً»[1].

---

(١) الظلال ٣: ١٣٩٩.

خاتمة: العالم الأبـي للجرجاني:

نختم الكلام على هذه القصة القرآنية لذلك الذي انسلخ من آيات الله، فهلك وخـاب وخسر، بقصيـدة لإمام ٍ عـالم ٍ أبـيٍّ عزيـز كـريم، هـو القـاضي أبـو الحسن علي بن عبد العـزيز الجرجـاني، الـذي كتب قصيدةً ثمينـةً قيِّمةً، سجَّل فيها صفاتِ العالم العزيز الأبـي، وأثرَ العلم النافع على صاحبـه، نقلَها كاملة الأستاذ المُحقِّق «عبـد الفتاح أبـو غدة» في كتـابه النفيس «صفحـات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل»:

يَقُـولـون لي: فيـكَ انْقِبـاضٌ وَإِنَّمـا ... رَأَوْا رَجُـلاً عَنْ مَوْقِفِ الـذُّلِّ أَحْجَمَا
أَرَى النَّـاسَ مَنْ دَانَاهُمُ هَـانَ عِنْدَهُمْ ... وَمَنْ أَكْـرَمَتْـهُ عِـزَّةُ النَّفْسِ أُكْـرِمَـا
وَلَمْ أَقْضِ حَقَّ الْعِلْمِ إِنْ كَـانَ كُلَّما ... بَـدَا طَـمَـعٌ صَيَّـرْتُـهُ لِـيَ سُلَّمـا
وَمَـا زِلْتُ مُنْحـازاً بِعِـرْضِيَ جَانِبـاً ... مِنَ الـذُّلِّ أَعْتَـدُّ الصِّيَـانَـةَ مَغْنَمـا
إذا قِيـل: هٰـذا مَنْهَـلٌ قُلْتُ قـد أرى ... وَلٰكِنَّ نَفْسَ الحُـرِّ تَحْتَمِلُ الـظَّمـا
أُنَـزِّهُهَـا عَنْ بَعْضِ مَـا لاَ يَشينُهـا ... مَخَـافَـةَ أَقْـوَالِ العِـدا فِيمَ أَوْ لِمـا؟
فَـأُصْبِحُ عَنْ عَيْبِ اللَّئِيم مُسَلَّمـا ... وَقَدْ رُحْتُ فى نَفْسِ الْكَرِيم مُعَظَّمـا
وَإِنِّي إذا مـا فـاتَني الأَمْـرُ لَمْ أَبِتْ ... أُقَـلِّبُ كَـفِّـي إِثْـرَهُ مُـتَـنَـدِّمـا
وَلَـكِنَّـهُ إنْ جَـاءَ عَـفْـواً قَبِلْتُـهُ ... وَإِنْ مَـالَ لَمْ أُتْبِعْـهُ: هَـلاَّ وَلَيْتَمـا
وَأَقْبِضُ خَـطْـوِي عَنْ حُـظوظٍ كَثِيـرَةٍ ... إِذَا لَمْ أَنَلْهَـا وَافِـرَ الْعَـرْضِ مُكْـرَما
وَأُكْـرِمُ نَفْسي أَنْ أُضَاحِـكَ عَـابِسَاً ... وَأَنْ أَتَـلَقَّى بِـالْـمَـدْيحِ مُـذَمَّمـا
وَكَمْ طَـالِبٍ رُقِّي بِنُعْمَـاهُ لَمْ يَصِـلْ ... إِلَيْـهِ وَإِنْ كَـانَ الـرَّئِيسَ الْمُعَـظَّمـا
وَكَمْ نِعْمَـةٍ كَـانتْ عَلَى الحُـرِّ نَقْمَـةً ... وَكَمْ مَغْنَمٍ يَعْتَـدُّهُ الحُـرُّ مَغْـرَمـا
وَلَمْ أَبْتَذِلْ فِي خِدْمَـةِ الْعِلْمِ مُهْجَتِي ... لأَخْـدِمَ مَنْ لاَقَيْتُ لَكِـنْ لأُخْـدَمَـا
أَأَشْقَى بِـهِ غَـرْسَـاً وَأَجْـنِيـهِ ذِلَّـةً ... إذاً فَـاتِّبَاعُ الْجَهْـلِ قَدْ كَـانَ أَحْـزَمـا
فَـإِنْ قُلْتَ: زَنْدُ الْعِلْمِ كَـابٍ فَـإِنَّمَـا ... كَبَـا حِينَ لَمْ نَحْـرُسْ حِمَـاهُ وَأَظْلَمـا
وَلَـوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَـانُـوهُ صَـانَهُمْ ... وَلَـوْ عَـظَّمُـوهُ فِي القُلوبِ لَعُـظِّمـا

وَلَكِنْ أَهَـانُـوهُ فَهَـانُـوا وَلَـطَّخُـوا   مُحَيَّـاهُ بِـالأَطْمَـاعِ حَتَّى تَجَهَّمَـا
وَمَـا كُـلُّ بَـرْقٍ لاَحَ لِي يَسْتَفِـزُّنِي   وَلاَ كُـلُّ مَنْ في الأَرْضِ أَرْضَاهُ مُنْعِما
وَلَكِنْ إِذَا مَا اضْطَّرَّنِي الضُّـرُّ لَمْ أَبِتْ   أُقَلِّبُ فِكْـرِي مُنْجِـداً ثُـمَّ مُتْـهِمَـا
إِلَى أَنْ أَرَى مَا لاَ أَغُصُّ بِذِكْرِهِ   إِذَا قُلْتُ: قَدْ أَسْدَى إِلَيَّ وَأَنْعَمَا(١)

---

(١) صفحات من صبر العلماء لأبي غدة: ٩٥ ــ ٩٦.

٥

قِصَّةُ لُقْمَانَ

قِصَّةُ لُقْمَانَ

القصّة في السّياق القرآني:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾

وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ

يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾

يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا

يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾(١).

إسرائيليات في القصّة:

خاض كثير من السابقين ـ كعادتهم ـ في الإسرائيليات والأساطير، وهم ينظرون في «قصّة لقمان» وأوردوا عن الإسرائيليات أقوالاً وتفصيلات، ونسبوا للقمان أقوالاً وأحداثاً وصفات وعملاً.

ونحن نورد خلاصة تلك الأقوال والتفصيلات من باب التحذير منها وليس من باب الإقرار لها واعتمادها.

أورد الإمام السيوطي في «الدر المنثور» أنّ لقمان كان عبداً حبشياً نجاراً، وأنّه كان قصيراً أفطس، غليظ الشفتين، مُصفّح القدمين، وأنّ الله أعْطاه الحكمة، ومنعه النبوّة. وأنّه من سادات السودان والحبشة، وأن هؤلاء السادات ثلاثة: لقمان، والنجّاشي، وبلال ابن أبي رباح.

وقيل: إن الله خيّر لقمان بين الحكمة والنبوّة، فاختار الحكمة على النبوّة، فأتاه جبريل وهو نائم، فذرّ عليه الحكمة. فأصبح ينطق بها، فقيل له، كيف اخترت الحكمة على النبوّة؟ وقد خيّرك ربك؟ فقال: لو أنّه أرسل إليّ بالنبوّة عَزْمَة وأمراً لرجوت فيها الفوز، ولكنت أرجو أن أقوم بها، ولكنّه خيّرني، فخفت أن أضعف عن النبوّة، فكانت الحكمة أحبَّ إليّ.

وقيل: إنه من أولاد «آزر» وأنّه عاش ألف سنة، وأنّه كان يفتي الناس قبل داود ـ عليه السلام ـ فلمّا بُعث داود توقف لقمان عن الفتوى، وقال: ألا أكتفي إذا كُفيتُ.

وقيل: إنه كان قاضياً لبني إسرائيل. وإنه نودي بالخلافة قبل داود عليه

(١) سورة لقمان: آية ١٢ ـ ١٩.

السلام، فقيل له: يا لقمان: هل لك أن يجعلك الله خليفة تحكم بين الناس بالحق؟ فقال: إن أمرني ربي قبلت، فإني أعلم أنّه إن فعل ذلك أعانني. وعلّمني. وعصمني. وإن خيّرني ربي قبلت العافية، ولم أسأل البلاء. فقالت الملائكة: يا لقمان: لِمَ؟ قال: لأن الحاكم بأشد المنازل وأكْدَرها، يغشاه الظلم من كل مكان، فيُخذل أو يُعان، فإن أصاب فالبحريّ أن ينجو، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنّة، وأَنْ يكون في الدنيا ذليلاً خير من أن يكون شريفاً ضائعاً، ومَن يختار الدنيا على الآخرة، فاتتْه الدنيا، ولا يصير إلى مُلك الآخرة. فعجبت الملائكة من حسن منطقه. فنام نومة، فغُطَّ فيها بالحكمة غَطّاً، فانتبه فتكلّم بها. ثم نودي داود عليه السلام بعده بالخلافة، فقبلها، ولم يشترط شرط لقمان، فأهوى في الخطيئة، فصفح الله عنه. وكان لقمان يؤازره بعلمه وحكمته. فقال داود عليه السلام: طوبي لك يا لقمان: أوتيتَ الحكمة فصُرفت عنك البلية، وأوتي داودُ الخلافة فابتُلي بالذنب والفتنة.

وقيل: إنه كان عبداً عند سيده، وأنّه كان من أهونهم عليه. وإنّ أوّل ما رؤي من حكمته، أنّه بينما هو مع مولاه، إذ دخل مولاه ليقضي حاجته، فأطال الجلوس، فناداه لقمان: إن طول الجلوس على الحاجة يَتعب منه الكبد، ويكون منه الباسور، ويصعد الحر إلى الرأس، فاجلس قليلاً واخرج، فخرج سيده وكتب تلك الحكمة على باب «الحُشّ» المعد لقضاء الحاجة. وسكر مولاه يوماً، فشارط قوماً على أن يشرب كل ماء البحيرة، فلما أفاق عرف ما وقع منه. فدعا لقمان فقال: لمثل هذا كنت أُخبؤك. فقال له: إجمعهم، فلمّا جمعهم قال لهم: على أيّ شيءٍ شارطتموه؟ قالوا: على أن يشرب ماء هذه البحيرة. قال: فإن هناك مواد فيها ممزوجة بالماء، فافصِلوا تلك المواد عن الماء ليشربه. قالوا: وكيف نستطيع أن نفصل تلك المواد؟ قال: وكيف يستطيع أن يشرب الماء ومعه المواد؟

وقيل: إن ما أوتيه لقمان، لم يكن عن أهل ولا مال ولا ولد ولا حَسَب

ولا خصال. ولكنّه كان رجلاً صمصاماً سكّيتاً، طويلَ التفكّر، عميقَ النـظر، لم ينم نهاراً قطّ، ولم يره أحد يبزق، ولا يتنحنـح، ولا يبول، ولا يتغوّط، ولا يغتسل، ولا يعبث، ولا يضحك، وكان لا يعيد منطقاً نطقه، إلا أن يقول كلمة يستعيدُها إيّاه، وكان قد تزوّج ووُلد له أولاد، فمـاتوا، فلم يبـكِ عليهم، وكان يغشى السلطان ويأتي الحكماء، لينظر ويتفكر ويعتبر.

وقيل: مرّ رجـل بلقمان عليـه السلام والنـاس عنده، فقـال: ألست عبدَ بني فـلان؟ قال: بلى. قـال: ألست الذي كنت تـرعى عند جبـل كذا؟ قـال: بلى. قـال: فما الـذي بلغ بك مـا أرى؟ قال: تقـوى الله، وصدقُ الحـديث، وأداءُ الأمانة، وطول السكوت عمّا لا يعنيني»[1].

إن موقفنا من تلك الأقوال هو «التـوقُّف» فيها. فـلا نقول بهـا ولا ننسبها للقمان، ولا نقرر أنّهـا وقعت له، لأنهـا لم ترد بـأحاديث صحيحـة عن رسول الله ﷺ.

كما أننا لانجزم بنفيها عنـه، لا نقول إنّهـا لم تقـع له، أو أنّـه لم يقلها، لاحتمال أن تكون قد حصلت فعلاً.

إن المـوقف السليم هو التـوقف، فـلا ننفيهـا ولا نثبتهـا، ولا نقبلهـا ولا نردها، وبخاصة أنّها لا تتضمن فوائد علمية، ولا يُبنى عليها ثمرة نافعة أوعمل مقبول. ولا تتوقف معرفة الآيات عليها.

إننا ندعو إلى السكوت عما سكت عنه القرآن والحديث الصحيح، وإننا نحذِّر من قبول كـل ما زاد عليهمـا من القول فـي قصص السـابقين، ولا نجيز ذكر ذلك إلا لأجل التحذير منه.

---

(١) انظر الدر المنثور للسيوطي ٦: ٥٠٩ ــ ٥١٢.

بعضُ ما نسب إلى لقمان من الحكَم :

هذا وقد أورد علماء سابقون أقوالاً رائعة، وحِكَماً بالغة، وعبارات بليغة، نسبوها إلى لقمان.

ونورد فيما يلي أهم تلك الأقوال والحكم، لا على أنّها أقوال صادرة عن لقمان، فلا نذهب إلى أنه قالها، كما لا ننفي قوله لها، بل نتوقف في نسبتها له. ولكننا نوردها على أنّها أقوال لطيفة، وحكم بليغة، فننظر فيها في ذاتها، بغضِّ النظر عن قائلها وصاحبها، ونأخذ عنها ما توحي به وما تقرره، والحكمة ضالة المؤمن، أينما وجدها فهو أحق الناس بها، وقد قيل قديماً: لا تنظر إلى القائل، ولكن انظر إلى عظمة القول.

١ ــ إن الله إذا استُودِع شيئاً حفظه.

٢ ــ يا بنيّ: ارجُ الله رجاءً، لا تأمن فيه مكره، وخف الله مخافة لا تيأس فيها من رحمته. قال: كيف أستطيع ذلك وإنما لي قلب واحد؟ قال: المؤمن له قلبان: قلب يرجو به، وقلب يخاف به.

٣ ــ يا بنيّ: أكثِرْ من قول: رب اغفر لي. فإن لله ساعةً لا يرُد فيها سائلاً.

٤ ــ قيل: دخل لقمان على داود عليه السلام، وهو يسرد الدرع، فلم يدْر لقمان ماذا يصنع داود، وجعل يتعجب، ويريد أن يسأله، وتمنعه حكمتُه أن يسأله. فلما فرغ داود من الدرع لبسها. وقال: نعْم درع الحرب هذه. فقال لقمان: الصمت خير من الحكمة، وقليل فاعلُه، كنت أردت أن أسألك، فسكتُّ حتى كفيتَني.

٥ ــ وقيل إن السيد الذي يعمل عنده لقمان، قال له يوماً: إذبح لي شاة، وائتني بأطيب مضغتين فيها، فأتاه باللسان والقلب، ثم قال له يوماً

آخـر: إذبـح لي شـاة، والق أخبث مضغتين فيهـا. فـألقى اللسـان والقلب. فتعجب سيده من تصرّفه، ولما سأله عن ذلـك قال لـه لقمان: إنّـه ليس شيء بأطيب من القلب واللسان إذا طابا، ولا شيء بأخبث منهما إذا خبثا!

٦ ـ وقـال: يا بنيّ: حملتُ الحجـارةَ والحديـدَ والحمـلَ الثقيـل، فلم أحمل شيئاً أثقل من جار السوء. يا بنيّ إنّي قـد ذقت المرّ كلّه، فلم أذق شيئـاً أمرَّ من الفقر.

٧ ـ وقال: يا بنيّ إنّ العمـل لا يُستطاع إلاّ بـاليقين، ومن يُضعف يقينه يضعف عمله.

٨ ـ وقـال: يا بنيّ: إتّخـذ تقوى الله تجـارة، يـأتيـك الـربـح من غيـر بضاعة.

٩ ـ وقـال: يا بنيّ: من كـذب ذهب ماءُ وجهـه، ومن ساء خلقـه كثـر غمّه، ونقْل الصخور من موضعها أيسرُ من إفهام مَن لا يفهم.

١٠ ـ وقـال يا بنيّ: لا تكونَنَّ أعجز من هـذا الديـك، الـذي يصـوّت بالأسحار، وأنت نائم على فراشك.

١١ ـ وقال: يا بنيّ: شرّ الناس، الذي لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً.

١٢ ـ وقال: يا بنيّ: لا يـأكل طعـامك إلا الأتقيـاء، وشاور فـي أمـرك العلماء.

١٣ ـ وقال: من كان له من نفسه واعظاً كان لـه من الله حافـظاً، ومن أنصف النـاس من نفسه زاده الله بـذلك عـزّاً، والذل فـي طـاعة الله أقـرب من التعزز بالمعصية.

١٤ ـ وقال: يا بنيّ: إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك.

١٥ ــ وقال: يا بنيّ جالس الصالحين من عباد الله، فإنّك تصيب بمجالستهم خيراً، ولعله يكون آخر ذلك تنزل عليهم الرحمة فتصيبك معهم، يا بني لا تجالس الأشرار، فإنّك لا يصيبك من مجالستهم خيراً، ولعله أن يكون في آخر ذلك، أن تنزل عليهم عقوبة فتصيبك معهم.

١٦ ــ وقيل: إن لقمان كان مسافراً، فلمّا قدم من السفر، لقيه غلام، فسأل لقمانُ الغلام: ما فعل أبي؟ قال: مات. قال: الحمد لله ملكتُ أمري. قال: ما فعلت أمّي؟ قال: ماتت. قال: ذهب همّي. قال: ما فعلت إمرأتي؟ قال: ماتت. قال: جددتُ فراشي. قال: ما فعلت أختي؟ قال: ماتت. قال: سترتُ عورتي. قال: ما فعل أخي؟ قال: مات. قال: آه، انقطع ظهري.

١٧ ــ وقال: يا بنيّ: جالس العلماء، وزاحمهم بركبتيك، فإن الله ليحيي القلوب الميتّة بنور الحكمة، كما يحيي الأرض الميتّة بوابل السماء.

١٨ ــ وقال: ثلاثة لا يُعرفون إلاّ في ثلاثة مواطن: الحليم عند الغضب، والشجاع عند الحرب، وأخوك عند حاجتك إليه.

١٩ ــ وقال: يا بنيّ: إيّاك والديْن، فإنّه ذل في النهار وهمٌّ في الليل.

٢٠ ــ وقال: يا بنيّ: أُرج الله رجاء لا يُجَرِّؤكَ على معصيته، وخَفْ الله خَوفَاً لا يُـؤْيِسُك من رحمته[1].

نكتفي بهذه الحِكَم العشرين، ونذكّر مرة أخرى، بأننا أوردناها لا من باب نسبتها إلى لقمان ــ فنحن نتوقف في تلك النسبة ــ ولكن من باب دقة معناها ولطافته.

---

(١) انظر هذه الحكم في «الدر المنثور» ٦: ٥١٢ ــ ٥٢٠.

مبهمات في قصّة لقمان:

هناك مبهمات في قصّة لقمان، لا يمكن الجزم بتبيينها، ولا فائدة من الخوض فيها، ولهذا نتركها على إبهامها.

من هذه المبهمات:

١ ـ أصل لقمان ونَسَبُه وقومه وقبيلته، فلا ندري أهو حبشي أم عربي أم من بني إسرائيل، ولا ندري عن اسم أبيه وجده. كما لا ندري عن جسمه وصفته ولونه.

٢ ـ الزمن الذي وُجد فيه لقمان، والحاكم الذي عاش في حكمه، والمدينة التي أقام فيها. والعمل الذي كان يمارسه.

٣ ـ اسم ابنه الذي كان يعظه، وهل استجاب لوعْظه أم أبى؟

٤ ـ كيف كانت نهايته ووفاته؟

٥ ـ هل هو نبي أم لا؟ لأن إثبات نبوّة أحد من السابقين يحتاج إلى دليل، وهو إما آية أو حديث، ولا نملك دليلاً هنا. كذلك لا ننفي عنه النبوّة، ولا نجزم بأنه غير نبي، لاحتمال أن يكون نبياً. فالأسلم في هذا الموضوع التوقف.

لا داعي للخوض في هذه التفصيلات والمسائل، ولا يترتب عليها علم أو فائدة أو منفعة، ولو علم الله أنّ في بيانها خيراً لبيّنها لنا.

إننا لا نعرف عن قصّة لقمان إلاّ ما ذكرتْه آيات القصة. والواجب يفرض علينا أن نتدبّر الآيات، وأن نأخذ منها دروساً ودلالات ومعانيَ وعِبَراً، تنفعنا في حياتنا ومسيرتنا وعبادتنا، بدل أن نضيِّع جهودنا وأوقاتنا وعقولنا فيما لا نفع فيه، ولا فائدة منه!.

كلمات غريبة في الآيات:

١ ــ الحكمة : المعرفة، والفعل الموافق لها.

٢ ــ وهْناً على وهْن : ضعفاً على ضعف.

٣ ــ فصالُه : رضاعه.

٤ ــ أناب إليَّ : عاد ورجع إليَّ.

٥ ــ مثقال حبة : وزن حبة.

٦ ــ من خردل : هو النبات المعروف، وحبّه من أصغر أنواع الحب.

٧ ــ لا تصعِّر خدّك : لا تُمل خدك تكبراً وفخراً وخيلاء.

٨ ــ مرحاً : فرحاً وبطراً وعلوّاً وإفساداً.

٩ ــ مختال فخور : متكبر متفاخر.

١٠ــ اقصد في مشيك : القصد هو التوسط والاعتدال. أي مشي بدون تكبُّر ولا ضعف.

١١ــ اغضض من صوتك : انقص من صوتك واخفض منه.

لقمان راوٍ للعقيدة:

لقد اختار القرآن الكريم لقمان ليكون راوياً، يروي لنا كثيراً من مبادىء الإيمان وخصائص العقيدة، وقضيةِ التوحيد والآخرة، وتوجيهاتِ الأخلاق والفضائل.

عرضَ لنا هذه المعاني من خلال موعظته التي قدمها لابنه، وكأنه لا يعظ ابنه فقط، وإنما يعظ المسلمين منذ نزول هذه الآيات وحتى قيام الساعة، يعظهم من خلال وعْظه لابنه.

وعندما ترى تركيزه على قضية الإيمان والتوحيد، تخرجُ بدلالة على وحدة العقيدة عند جميع الأنبياء والمصلحين الدعاة.

كما ترى في اختيار القرآن لقمان ليروي لنا ما روى، أهمية القصّة والرواية، من حيث كونها وسيلة من وسائل عرض العقيدة والأمور النظرية، وأنها ذات أثر كبير في استقرار موضوعها ومادتها في النفس.

لقمان الحكيم والحكمة:

اشتهر لقمان بالحكمة، ولازَمه لقب «الحكيم»، ولعله لأجل هذا نسبتْ له الكثير من الحكم، أو وُضعت على لسانه، ليكون أدعى إلى قبولها بين الناس.

وقرر القرآن أن الله هو الذي آتى لقمان الحكمة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَة﴾.

فما هو معنى «الحكمة» في القرآن؟

قال الإمام الراغب في المفردات: (حَكَمَ: أصله مَنَعَ منعاً لإصلاح. وحكمتُ الدابة: منعتها بحكْمة.

وقال الشاعر: أَبَني حنيفة أَحْكِمُوا سُفَهَاءَكم.

والحكمة: إصابةُ الحق بالعلم والعَقْل.

والحكمة من الله: معرفةُ الأشياء، وإيجادُها على غاية الإحْكام.

ومن الإنسان: معرفةُ الموجودات، وفعلُ الخيرات. وهذا هو الذي وُصف به لقمان في قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾. ونبّه على جملتها بما وصفه بها.

فإذا قيل في الله تعالى هو حكيم، فمعناه بخلاف معناه إذا وُصف به غيره)[1].

---

(١) المفردات: ١٢٦ ـ ١٢٧ باختصار.

الحكمة إذن تقوم على المعرفة والصواب والمنع والفعل.

١ ــ المعرفة من خلال إعمالِ العقل، وتحصيلِ العلم، وتقليبِ النظر، وتدريبِ الفكر.

٢ ــ الإصابة والصواب ثمرة من ثمارها، حيث تقود صاحبها للقول الصائب، والنطقِ الصائب، والفعلِ الصائب، والتفكيرِ الصائب، والتعلمِ الصائب..

٣ ــ كما أن الحكمة لها ثمرة أُخرى هامة، وهي المنع، أي أنها تمنع صاحبها من السوء والشر، قولاً كان أو فعلاً، أو تصرفاً أو سلوكاً، أو تخطيطاً أو تفكيراً، لأنها تحكُمه، وتُحسن حُكمه، وقيادَه إلى الخير، وصرفه عن الشر.

٤ ــ وإذا كانت الحكمة لها مهمة سلبية وهي منع صاحبها من الشر، فإنها تقدم له البديل الإيجابي العملي، حيث تدفعه إلى فعل الخيرات، والإحسان إلى الناس في اللسان واليد والتصرف والحياة.

كل هذه المعاني يشير لها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾.

الحكمة في القرآن:

وردت «الحكمة» في القرآن، عشرين مرة.

وعندما ننظر في الآيات التي أوردتْها، فسنقف منها على عدة لطائف:

١ ــ إن الحكمة لا تكون إلّا من الله، فهو الذي يهبها لأصحابها، ويمنحها لهم، ويؤتيها إياهم:

﴿وَاذْكُـرُوا نِـعْمَـةَ الـلَّهِ عَلَيْكُمْ، وَمَـا أَنْـزَلَ عَـلَيْكُـمْ مِنَ الْـكِتَـابِ وَالْحِكْمَةَ﴾[1].

﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ، وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ، وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾[2].

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. يُـؤْتِ الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَـاءُ. وَمَنْ يُـؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَـدْ أُوتِـيَ خَيْراً كَثِيراً﴾[3].

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾[4].

﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً﴾[5].

﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾[6].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ، أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾[7].

وبمـا أن الحكمة لا تكـون إلّا من الله، وبما أن الله عليم حكيم، فـإنـه سبحانه لا يهبها إلّا لمن يستحقُّها ويُحسنها ويتعامل معها وينتفـع بهـا. لا يهبها إلّا لمن كان صالحاً مطيعاً لله.

٢ ـ ولعـل هـذا يـردُّ على من زعَم أن الحكمـاء هم الفـلاسفـة، وأن الحكمة هي الفلسفة، وأن الإنسان قد يُعتبر حكيماً ولو لم يكن مؤمناً.

إن القرآن لم يَصف أحد الكـافرين أو الـظالمين بالحكمـة، لأنها وصفُ

(١) سورة البقرة: آية ٢٣١ .
(٢) سورة البقرة: آية ٢٥١ .
(٣) سورة البقرة: آيتا ٢٦٨ ـ ٢٦٩ .
(٤) سورة آل عمران: آية ٤٨ .
(٥) سورة النساء: آية ٥٤ .
(٦) سورة النساء: آية١١٣ .
(٧) سورة لقمان: آية ١٢ .

تكريم وتشريف، وهذا لا يكون إلّا للمؤمن. إن القرآن لم يصف بالحكمة إلّا الأنبياء أو المؤمنين الصالحين.

يجب أن نُجرد الفلاسفة وغيرَهم من هذا اللقب «الحكماء» وأن لا نصفهم بهذه الصفة الحبيبة «الحكمة» لأنها لا تكون إلّا فضْلاً ومنحة من الله، وهذا لا يكون لغير المؤمنين الصالحين!

٣ ــ الحكمة وصفٌ أُطلق على ما جاء من عند الله، لأن كلام الله كلَّه حكمة، ولأن كتب الله هي وعاءُ الحكمة ومكانُ وجودها:

﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾(١).

﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمَ﴾(٢).

﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾(٣).

﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ، وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾(٤).

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ، وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ، وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾(٥).

﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾(٦).

٤ ــ بما أنّ الله آتى الأنبياءَ الحكمة، وبما أن كلام الله هو الحكمة، فقد جعل الله من مهمّات الأنبياء ووظائفهم تعليمَ أتباعهم الكتاب والحكمة، وهذا يعني أن الحكمة قد تحصل وتتحقق بالتعليم والكسب، وأن الحكمة لا تحصل إلّا بتعلُّم كلام الله وشرعه وأحكامه.

---

(١) سورة المائدة: آية ١١٠.

(٢) سورة النساء: آية ١١٣.

(٣) سورة الإسراء: آية ٣٩.

(٤) سورة الزخرف: آية ٦٣.

(٥) سورة صٓ: آية ٢٠.

(٦) سورة الأحزاب: آية ٣٤.

ومـع أن الأنبيـاء كلَّهم علَّمـوا أتبـاعهم الحكمـة، فـإن القـرآن أفـرد رسـول الله ﷺ بذكـر تعليمها للمؤمنين، حيث نسب إليـه، وجعـل من وظيفتـه تلاوةَ آيات الله على المؤمنين، وتزكيتهم، وتعليمهم الكتاب والحكمة:

﴿رَبَّنَـا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ: يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَـاتِكَ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَةَ، وَيُزَكِّيهِمْ﴾[1].

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُـولاً مِنْكُمْ، يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَـا وَيُزَكِّيكُمْ، وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[2].

﴿لَقَـدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُـؤْمِنِينَ: إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُـولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ: يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ، وَيُزَكِّيهِمْ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[3].

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُـولاً مِنْهُمْ: يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِـهِ، وَيُزَكِّيهِم، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[4].

٥ ــ وبعد أن يعلِّم الأنبياءُ أتباعَهم الحكمة، يقوم أتباعهم بـواجبهم في الدعوة إلى الله، مزوَّدين بتلك الحكمة زاداً، ومستخـدمين لها أسلوبـاً ناجحـاً من أساليب الدعوة، ووسيلة من وسائلها.

لقد أمر الله كل مسلم بالدعوة إلى الله، وأرشده إلى وسيلتين من وسائـل الدعوة. قـال تعالى: ﴿أُدْعُ إِلَى سَبِيـلِ رَبِّكَ: بِـالْحِكْمَةِ وَالْمَـوْعِظَةِ الْحَسَنَـة، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنَ﴾[5].

---

(١) سورة البقرة: آية ١٢٩ .
(٢) سورة البقرة: آية ١٥١ .
(٣) سورة آل عمران: آية ١٦٤ .
(٤) سورة الجمعة: آية ٢ .
(٥) سورة النحل: آية ١٢٥ .

وإذا فعل المؤمن ذلك يكون قد استفاد من الحكمة التي وَهَبَها الله له، والتي علَّمهَا النبي إياه، أو أخذها هو عن النبي عليه السلام، ويكون قد نجح في التأثير في الناس، لأن الحكمة هي أهمُّ وأقوى وأنفعُ وسيلة لتحقيق الغاية.

الحكمة والشكر:

ربطت الآية بين الحكمة والشكر، بل فُسِّرَتْ الحكمة بالشكر. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ آشْكُرْ لِلَّهِ، وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهِ غَنِيٌّ حَميد﴾.

إن الحكمة هي شكرُ الله. لأنها فُسِّرَت به ﴿أَنِ آشْكُرْ لله﴾، و«أَنْ» هي «أَن التفسيرية» عند العلماء.

وقد عرفنا معنى «الحكمة» فيما سبق. والآن نعرف معنى الشكر.

قال الإمام الراغب: «الشكرُ هو تصوُّرُ النعمة وإظهارُها. قيل: هو مقلوب عن الكَشْر، أي الكشف.

ويضادُّه الكفر: وهو نسيان النعمة وسترها.

ودابّة شَكور: مُظْهِرة بسِمَنِها إسداءَ صاحبها إليها.

وقيل: أصله: من عين شَكرى. أي ممتلئة.

والشكر على هذا: هو الامتلاءُ من ذكر المنعِم عليه.

والشكر ثلاثة أضرب:
شكرُ القلب: وهو تصوُّر النعمة.
وشكرُ اللسان: وهو الثناء على المنعِم.
وشكرُ سائر الجوارح: وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقه.

وإذا وُصِفَ اللَّهُ بالشكر، فإنما معناه: إنعامُه على عباده، وجزاؤه بما أقاموه من العبادة)[1].

وإذا كانت الحكمة من الله وحده، فإن الشكر حقيقة لا يكون إلّا لله وحده، ولهذا نَسب الشكر إليه وأضافه إليه ﴿أَنِ اشْكُرْ لله﴾.

وتفسير الحكمة بالشكر، يعني أن الشكر هو الثمرة الطبيعية للحكمة، فكل حكيم إنما هو شاكر لله سبحانه، وإذا رأينا مَنْ يعتبر نفسه حكيماً، وهو غير مؤمن بالله ولا شاكر له ــ كما يظن كثير من الناس ــ فإنه ليس حكيماً ولا حكمة معه. لأن الحكمة بدون شكر لا حقيقة لها ولا نفع منها. وهذا دليل آخر على تجريد الفلاسفة والمفكرين الكفّار من الحكمة، وقصْرها على المفكرين المسلمين، لأنهم هم الذين يشكرون إليه.

ولا ننسى أن الشكر المقصود هنا هو الشكر العام، بأنواعه الثلاثة: شكر القلب وشكر اللسان وشكر الجوارح. والتوجُّه إلى الله بكل ما يصدر عن تلك الأقسام الثلاثة، وجعلُها وسائل للثناء على الله ومدْحِه وتحبيبِ الناس به.

قال الإمام القُمّي النيسابوري في قوله: ﴿أَنِ اشْكُرْ لله﴾:

(قال العلماء: هذا أمر تكوين. أي جعلناه شاكراً. فإن أمر التكليف يستوي فيه الجاهل والحكيم. وفيه تنبيهٌ على أَن شكرَ المعبود الحق رأسُ كل عبادة وسنامُ الحكمة. وفائدته ترجع إلى العبد لا إلى المعبود، فإنه غني عن شكر الشاكرين، مستحق للحمد)[2].

﴿أَنِ اشْكُرْ لله﴾ الإضافة للتخصيص، لأن الشكر حقيقة لا يكون إلا لله.

---

(١) المفردات: ٢٦٥ ــ ٢٦٦ باختصار.

(٢) غرائب القرآن ٢١: ٤٩.

﴿فـإنما يشكـر لنفسـه﴾ الحصـر والإضـافـة للنفـع، أي الـذي يستفيـد وينتفـع منه هو صاحبه فقط.

وعْظ الأب لابنه:

قدّم لقمان نموذجاً عملياً للآباء في تعاملهم مع أبنائهم، ونصحهم لهم، وذلك حين وعظ ابنه: «وإذ قال لقمان لابنه، وهو يعظه».

والوعظ هو: «زجرٌ مقترنٌ بالتخويف».

إننا لا نعرف شيئاً عن ابنه، لا نعرف اسمه، ولا عمره عندما وعظه، ولا نعرف عقيدته، وهل كان مؤمناً بالله أم مشركاً به؟ كما لا نعرف هل استجاب الإبن لمواعظ أبيه أم لا.

إن لقمان كان يقوم بواجب الأب تجاه الإبن..

وقد أوجب الإسلام على الآباء نُصح ووعظ وتوجيه أبناءهم: ﴿يَا أَيُّهَا الذِيْنَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً، وَقودُها النّاسُ وَالحِجَارَةَ﴾[١].

وقد يستجيب الابن لمواعظ وتوجيهات أبيه، إن كان فيه خير، وعنده بِرٌّ لأبيه، فإذا استجاب فهو الذي ينتفع ويكسب، ويُقرُّ عين أبيه، وقد لا يستجيب لذلك، فعلى نفسه جنى، لكنه يُحزن بذلك أباه.

إن الولد الصالح البارّ قُرة عين لأبيه، وإن الآباء الصالحين يطلبون من الله أن يهبهم الأبناء البررة: ﴿رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِّياتِنا قُرّةَ أَعْيُن﴾[٢].

أما الولد العنيد العاق فإنه عذاب لأبيه، وتنغيص لحياته.

ولكن الأب مع ذلك مأمورٌ أن يعظ ابنه، وأن ينصحه ويوجهه، وأن لا يملّ من ذلك، بل يستمر عليه كل ما سنحت له الفرصة، ولا يتعلل بأنه

---

(١) سورة التحريم: آية ٦.

(٢) سورة الفرقان: آية ٧٤.

لا يسمع ولا يستجيب، لأن الله لا يطالب الأب باستجابة الابن، ولا يعلِّق أجره على تلك الاستجابة، بل يُجري الله له الأجر والثواب بمجرد الوعظ والنطق، أما إن لم يعظ فإنه يُعرِّض نفسه للمسؤولية والعذاب يوم القيامة.

مواعظ لقمان لابنه:

يلاحَظ أن مواعظ لقمان لابنه كانت عامة، حيث شملتْ أمورَ الإيمان والعبادة والأخلاق والدعوة:

١ ــ أمَره بالتوحيد والإيمان باللّه، ونهاه عن الشرك والكفر، وبيّن له ضرر الشرك وخطره: «يا بني لا تُشْرك بالله. إن الشرك لظلم عظيم».

٢ ــ أوصاه بوالديْه، وخص أمه بالذكر، وطالبه بالبر بهما، والإحسانِ إلَيهما، وطاعَتِهما، ومصاحبتِهما بالمعروف. وقدّم لنا من خلال ذلك القاعدة الإسلامية العامة في البر بالوالدين، حتى وإن كانا كافريْنِ، حيث يبرهما ويصاحبهما في الدنيا معروفاً، ولا يستجيب لهما عند دعوته للكفر: «وَوَصَّيْنا الإنسان بوالديْه. حملته أمه وهناً على وهن، وفصاله في عامين، أن اشكر لي ولوالديك، إليَّ المصير، وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما، وصاحبْهما في الدنيا معروفاً، واتبع سبيل من أناب إليَّ، ثم إليَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون».

ويلاحظ أن هذه الوصية بالوالدين أخلاقية اجتماعية.

هذا، وقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن هذه التوجيهات بخصوص الوالدين ليست من وصية لقمان لابنه، وإنما هي تقريرٌ من الله، وُضع ضمن وصايا لقمان لابنه، لكونها بها أليَق وأنسَب، ويقررون أن هذه الآيات نزلت بشأن سعد بن أبي وقاص مع أمه، عندما طلبتْ منه أن يرتد عن الإسلام، وأصرَّت على ذلك وهددتْه وآذتْه، لكنه ثبت على إسلامه، واستعلى على تهديداتها..

٣ ــ يعرِّف لقمان ابنَه على الله، ويدله على بعض صفاته، كما يقرر عقيدة البعث والحساب في الآخرة، ويعرض صورةً عجيبةً لعلم اللّه الشامل لكل شيء، المحيط بكل شيء، الذي لا يندُّ عنه شيء مهما صغُر: «يا بنيَّ إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة، أو في السموات أو في الأرض، يأت بها الله. إن الله لطيف خبير».

كم تزن حبة الخردل؟ إنها أشبه بالهباءة التي لا تزن شيئاً . وهذه الحبة الصغيرة الضائعة «في صخرة» صلبة محشورةٍ فيها لا تظهر «أو في السموات» الهائلة الشاسعة، التي يبدو النجم الكبير فيها نقطةً سابحةً أو ذرةً تائهة «أو في الأرض» ضائعةً في ثراها وحصاها. هذه ذرة الخردل «يأت بها الله» فعلْمُه مطلع عليها، وقدرته لا تفلتُها[1].

وصَدق مَن قَال: إن الله يرى ويسمع دبيب النملة السوداء، على الصخرة الملساء في الليلة الظلماء.

وصدق من ناجى ربه قائلاً:

يَا مَنْ يَرَى مَدَّ الْبَعُوضِ جَنَاحَهَا ... فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ الأَلْيَلِ
وَيَرَى نِيَاطَ عُرُوقِهَا فِي نَحْرِهَا ... وَالمُخَّ فِي تِلْكَ الْعِظَامِ النُّحَّلِ

٥ ــ وبعد توجيهاته في العقيدة والإيمان، يوصيه بالعبادة: «يا بني أقم الصلاة» على اعتبار أن العبادة بعد العقيدة، فبعد أن عرف الله وآمن به، يتوجه له بالشعائر التعبدية، التي أبرزها الصلاة.

وتوجيهُ لقمان لابنه نحو الصلاة، يدل على أهمية الصلاة، وعلى وجوبها على السابقين، لأنها هي الصلة بين العبد وربه.

---

(١) انظر الظلال ٥: ٢٧٨٩.

٦ ــ أمرُه له بالدعوة إلى الله من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووصيتهُ بذلك، يدل على وجوب الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على السابقين كما هو واجب علينا، ولا غرابة في ذلك فكل دين لا ينتشر إلَّا من خلال الدعوة، والناس لا يلتزمون به إلَّا من خلال النصح والإرشاد. والصالح لا يرضى أن يكون وحده صالحاً، بل يحرص على توصيل الخير والنفع للآخرين.

وقد أشار القرآن إلى وجوب الدعوة على الآخرين بقوله: ﴿فَلَوْلا كانَ مِنَ الْقُرون مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ، إِلَّا قَليلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهَمْ، وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَموا مَا أُتْرِفوا فِيه، وَكَانوا مُجْرِمين. ومَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وأَهْلُها مُصْلِحُون﴾[1].

وهناك لفتة لطيفة من ذكْر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعد إقامة الصلاة، فبالصلاة يتصل بربه، ويستمد منه القوة والجرأة والثبات، وبالصلاة يتزود بالزاد الإيماني الذي يعينه على القيام بالدعوة والنصح، وبالصلاة لا يرضى المنكر ولا يقبل به فينهى عنه، وبالصلاة يحب المعروف فيأمر به، إن الصلاة ــ عندما تؤدّىٰ على طريقة رسول الله ﷺ ــ من أفضل الوسائل والأدوات للقيام بواجب الدعوة إلى الله، فإذا لم تثمر الصلاة عند صاحبها ثمرة الدعوة والنصح فإنها صلاة ميتة، مجرد حركات ظاهرية.

٧ ــ أرشده إلى الصبر على ما سيصيبه «واصبر على ما أصابك» وذكْر الصبر بعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يشير إلى حقيقة قرآنية قاطعة، وهي أن مَنْ دَعَا إلى الله، ونصح الناس، وأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر، فإنه سيكون عرضةً للإيذاء والابتلاء، حيث يسخرون منه، ويستهزئون به، ويكذبونه، ويضطهدونه، ويؤذونه، ويضربونه، ويتهمونه، وقد يقتلونه.

---

(١) سورة هود: آيتا ١١٦ ــ ١١٧.

فإذا لم يتزودْ لـذلك بـزاد الصبر، فلن يثبتَ على طـريقه، ولن يقـومَ بواجبـه، ولن ينصحَ الآخرين، وسوف يُؤْثر السلامة والراحة والعزلة.

إن الصبر سلاح فعال ضد الباطل وأهلِهِ، وهـو زاد إيمانيّ ربـانيّ يزودنـا الله به، وهو وسيلة لا بدّ منها لأداء الواجب الذي أمرنا الله به.

وإذا نـظرنا في وصيـة لقمان لابنـه في الأمر والنهي، فـإننـا نـلاحظ أنـهُ جعلها متوسطة بين أمرين آخـرين: حيث سبقها الأمـر بإقـامة الصـلاة، وتبعها الأمر بالصبر، وهذا أمـر مقصود: إن الصـلاة هي الباعث على الأمـر والنهي، وإن الصبر هو الشرط لاستمرار القيام به.

٨ ـ قدَّم له توجيهات أخلاقية، ضروريةً للقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولقبول كلامه عند الناس، وتأثيره فيهم: ﴿ولا تصعِّر خدَّك للناس، ولا تمشِ في الأرض مـرحـاً، إن الله لا يحب كـل مختال كفـور. واقصـد في مشيك، واغضض من صوتك. إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾.

(أ) لا تصعِّـر خدك للنـاس: لا تُمِل خـدك عن الناس. أي لا تتكبـرْ على النـاس، إنـك تـدعـو النـاس، وتـريـد لهم أن يستجيبـوا لـك، وإنهم لن يسمعوا إلَّا ممن كان قـريباً منهم، متـواضعاً معهم، يقـدم لهم دعوتـه ودينه وفكْره، على بساط من المحبة والرحمة والتواضع.

أما المتكبر عليهم، الـذي يتيه عليهم كبـراً وخيلاء، ويعـاملهم بعجرفـة مـرذولة، ويصعِّـر خدَّه لهم، وينـظر لهم بازدراء واحتقـار، فإنهم سيـرفضونـه وينبذونه ويتخلون عنه.

(ب) ولا تمشِ في الأرض مَـرَحاً: وهـو مـلازم لحـركـة تصعيـر الخـد للناس، باعتبار الحركتيْن ناتجتيْن عن التكبر والزهو والخيلاء.

المشيُ في الأرض مـرحـاً هـو المشي في تخـايـلٍ ونفخـةٍ وقلةِ مبـالاة

بالناس. وهي حركة كريهة يمقتها الله ويمقتها الخلْق. وهي تعبير عن شعور مريض بالذات، يتنفس في مشية الخيلاء.

(ج) واقصِد في مشيك: حيث أرشده إلى المشية المقبولة الصحيحة، بعدما نهاه عن المشية المرذولة الباطلة.

«اقصد في مشيك» تعني أن تكون مشيتك مقتصدة معتدلة متوسطة، فلا هي مشيةُ المرِح المتكبِّرِ المنتفِخِ، ولا هي مشيةُ الضعيفِ الذليلِ المتمَاوِتِ، بل مشية المعتدلِ المقتصد، وخير الأمور أوساطها.

كما أن «اقصد في مشيك» تعني أن تكون المشية مقصودة، وليست عبثاً أو ضياعاً، وأن تكون المشية لهدفٍ وقصْد وغاية، وذلك لأن كل ما لدى المسلم موظفٌ للهدف والغاية التي يريدها المسلم نفسه، إنه يوظف كل ما يملكه لهدفه وغايته، فمشيته وسيلة لهدفه، ولذلك فهي مقتصِدة مقصودة.

(د) واغضض من صوتك: «والغض من الصوت فيه أدب وثقة بالنفس واطمئنان إلى صدق الحديث وقوته. وما يزعق أو يغلظ في الخطاب إلَّا سيءُ الأدب، أو شاكٌّ في قيمة قوله، أو قيمة شخصه، يحاول إخفاء هذا الشك بالحدَّة والغلظة والزعاق.

والأسلوب القرآني يُرذِّل هذا الفعل ويقبِّحه في صورة منفِّرة محتقَرَة بشعة، حين يعقِّب عليه بقوله «إن أنكر الأصوات لصوت الحمير» فيرتسم مشهدٌ مضحك يدعو إلى الهزء والسخرية، مع النفور والبشاعة، ولا يكاد ذو حس يتصور هذا المشهد المضحك من وراء التعبير المبدع، ثم يحاول.. شيئاً من صوت هذا الحمير..»[1].

---

(١) في ظلال القرآن ٥: ٢٧٩٠.

نظرات في آيات القصة:

ننظر في آيات قصة لقمان، ونسجل أهمَّ ما نأخذه عنها، من لطائف ودلالات وعبر وعظات، وإشارات وإيحاءات:

١ ـ في قوله ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾ إشارةٌ إلى أن الحكمة لا تكون إلَّا من الله، يؤتيها الله من يشاء من عباده، وأنَّ مَن آتاه الله الحكمة فقد آتاه خيراً كثيراً. وأن الحكمة يمكن أن يُحصِّلها الإنسان بالسعي والكسب.

٢ ـ يمكن أن تعرَّف الحكمة بأنها: القول المناسب للشخص المناسب في الوقت المناسب بالمقدار المناسب والأسلوب المناسب!

٣ ـ في قوله ﴿أن اشكر لله﴾ تفسير الحكمة بالشكر، وهذا يعني أن الشكر لله ثمرة من ثمار الحكمة، والشكر لله من لوازم الإيمان، فلا حكيم إلَّا المؤمن، ولا حكيم إلَّا الشاكر لله، ولا حكيم إلَّا مَن وجَّه حياته لله.

٤ ـ عبَّر عن الشكر بصيغة الفعل المضارع: ﴿ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه﴾ ومعلوم أن الفعل المضارع فعل حيوي فاعل حي متجدد ـ وهو أحب الأفعال الثلاثة إلى قلب المؤمن الفاعل المتحرك ـ والفعل المضارع يفيد التجدد والاستمرار، ولعل الحكمة من التعبير عن الشكر بالمضارع، هي لتوجيه المؤمن إلى أن يكون شكره لربه متجدداً، بمعنى أن يقدِّم لربه شكراً في كل لحظة ودقيقة وساعة من يومه، وذلك لأن نِعَم ربه عليه متجددة، لا تنقطع لحظة من ليل أو نهار، والنعمة تحتاج إلى شكر، وبالشكر تدوم النعم وتزداد: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾(١).

٥ ـ ذكرت آيات القصة مجالين من مجالات الشكر:

---

(١) سورة إبراهيم: آية ٧.

الأول: الشكر لله: في قوله ﴿أن اشكر لله﴾.

الثاني: شكر الوالدين في قوله: ﴿أَن اشكر لي ولوالديك﴾.

ويُؤخذ من ذلك جواز شكر البشر الذين يقدّمون للإنسان خيراً ومعروفاً، فشكر الوالدين واجب بنص الآية.

ولكن الشكر في الحقيقة لا يكون إلّا لله، وما شكر المحسنين إلّا شكر لله، لأن الله هو الذي ألهمهم الإحسان للإنسان، فيشكر اللَّهَ من خلال شكره لهم.

وما شكر الوالدين إلّا شكر لله، فهو وإن كان شكراً لهما في الظاهر، إلّا أنّه شكر لله في الحقيقة، الذي جعلهما سبباً في وجود الإنسان، وجعل فيهما الرحمة والرأفة به.

٦ ـ وما دمنا في باب الشكر، فإننا نلاحظ أن الكلمة وردت أربع مرّات:

مرتان في صيغة فعل الأمر: «أن أشكر لله» و«أن أشكر لي ولوالديك» وهذا في سياق التكليف بالشكر، وبيان الجهة التي يتوجه لها بالشكر.

ومرتان في صيغة الفعل المضارع «ومن يشكر فإنما يشكر نفسه» وهذا في سياق القيام بالشكر، وبيان المستفيد من ذلك الشكر، حيث لا يستفيد منه إلّا صاحبه.

٧ ـ ختم آية الأمر بالشكر بقوله: «ومن كفر فإن الله غني حميد» واختار اسمان من اسماء الله «الغني الحميد» وهذا ختم يتناسق مع موضوع الآية، حيث وجَّهت الآية إلى الشكر، وأمرت المؤمن الحكيم بشكرْ الله، وحتى لا يظن ظان أن الله هو المستفيد من شكر الناس، ذكرت الآية اسم الغني، للإشارة إلى غنى الله عن الناس، سواء شكروا أم لم يشكروا، فلا يزيده شكرهم شيء.

كما ذَكرت اسم «الحميد» للإشارة إلى أن الله هو المستحق للحمد ولو لم يحمده أحد، فهو حميد ولو كفر الناس به وجحدوا فضله.

وكأن الآية تقول لنا:

ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه، لأن الله غني.

ومن كفر فقد جنى على نفسه لأن الله حميد.

٨ ــ وعْظ لقمان لبنه «وهو يعظه» فيه توجيه للآباء إلى وجوب وعْظهم لأبنائهم، ونصْحهم لهم، ولو لم يستجيبوا لهم.

٩ ــ من مواعظ لقمان لابنه نهيُه عن الشرك «لا تشرك بالله، إن الشرك لظلم عظيم» وفي هذا إشارة إلى وجوب شمول المواعظ لكل موضوعات الإسلام، من إيمان ودعوة ونظم وأحكام وفضائل وأخلاق، فهذه الموعظة التي قدمها لقمان لابنه موعظة إيمانية اعتقادية.

١٠ ــ اعتبرت الآية أن الشركَ ظلمٌ عظيم. وفسَّر بها رسول الله ﷺ آية الأنعام ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْم، أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْن﴾[١]. فقد ظنّ الصحابة أن المراد بالظلم هو المعصية والذنب، فبما أنهم معرَّضون للذنوب والمعاصي، فلن يكون أحد منهم آمناً. ولذلك شَقَّ الأمرُ عَلَيهم، وقالوا: «وَأَيُّنا لا يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: ليس هو كما تظنُّون. إنَّما هو كما قال لقمان لابنه: يا بنيَّ لا تشركْ بِاللَّهِ. إن الشركَ لظلم عظيم»[٢].

١١ ــ كثيراً ما عبّر القرآن عن الشرك والكفر بالظلم، كما في هذه الآية، وكما في قوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هَمَ الظَّالِمُونَ﴾[٣].

---

(١) سورة الأنعام: آية ٨٢.

(٢) مسلم (١) كتاب الإيمان (٥٦) باب صدق الإيمان. حديث: ١٩٧.

(٣) سورة البقرة: آية ٢٥٤.

ووجْه كَون الكفر والشرك ظلماً، هو أن الكافر والمشرك ظالم بذلك، لأن الظلم هو التعدّي وتجاوزُ الحد، ونصرُ الباطل، ومجانبةُ الحق، وإخفاءُ الحقيقة، والمشرك ظالم بذلك. إن المشرك ظالم لنفسه: لسيره في طريق الباطل والعذاب والنار. وظالم للحقيقة: لتجاوزه لها ومجانبته عنها. وظالم للمؤمنين: لأنه لم يكن معهم، ناصراً للحق محارباً للباطل. وظالم للكافرين: لأنه كان قدوة لهم في الكفر، مساعداً لهم على باطلهم.

كل كفر ظلم وكل كافرٍ مشركٍ ظالم.

ولكن ليس كل ظلم كفراً وشركاً، لأن القرآن قد يُطلق الظلم على المعصية والذنب، فقد يكون المسلم ظالماً لمعصيته وذنبه، ولكنه لا يكفر بمجرد ارتكاب المعصية والذنب.

١٢ ــ ﴿ووصينا الإنسان بوالديه﴾ في ذلك لفتة لطيفة، هي أن الله يوصي من يكون مظنَّة التقصير والإساءة. فمن هم الذين يمكن أن يقصِّروا في حق الآخرين الأبناء أم الآباء؟ إنهم الأبناء. ولذلك وصَّاهم الله بآبائهم ولم يوصِ القرآن الآباءَ بأبنائهم لأنهم لا يحتاجون إلى ذلك، فهم حريصون ــ فطرياً ــ على أبنائهم، وعلى مصلحتهم ونفعهم. أما الأبناء فهم الذين يحتاجون لتلك الوصية، لأن الابن غالباً ينظر أمامه، لتحقيق مصلحته، وتأمين مستقبله، وتحقيق الخير لأولاده، وغالباً لا يلتفت خلفه، ولا يكاد ينظر لأبويْه اللَّذيْن وليّا، وأوشكا أن يغادرا هذه الدنيا. ونظراً لذلك تدعوه الآية إلى الالتفات للوراء، إلى الإحسان للشخصيْن اللذيْن وقفا حياتهما له، وبذلا كل جهد لإسعاده.

١٣ ــ في قوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ﴾ تسجيل لحقيقة قاطعة، وهي أن الأم تبقى واهنة ضعيفة متعَبة ــ والوهن هو الضعف ــ طيلة مدة الحمل، ويبدأ وهنها منذ بداية الحمل، ويتمثل في أمراض «الوَحَم» و «التقيُّؤ» ويستمر ذلك حتى تضع حملها، ويستمر إلى ما بعد الوضع أيضاً.

ولعل هذه الحكمة من جمع الوهن إلى الوهن، فوهنها دائم مستمر طيلة الحمل.

ولم تقيْد الآية الوهن بصورة من الصور، بل جعلتْه مطلقاً عاماً، ليشمل كل صور الوهن وحالاته وآفاقه. فهو وهْن في الجسم، ووهْن في النفس، ووهْن في الشعور، ووهْن في القوة، ووهْن في العمل والأداء، وَوهْن في الخلُق والسلوك، ووهْن في الصِّلات والتصرفات، ووهْن في المشاعر والأحاسيس. إلى غير ذلك.

ومع ذلك الوهن المستمر المتضاعف المتجدِّد، يبقى مرغوباً فيه من قبل المرأة، ويبقى مطلوباً محبوباً، فإذا لم تَحمل تسعى لتَحمل، وتبذل كل ما تملك لتَحمل! وسبحان من فطرها على التلذذ بالوهن وطلبِه والرغبة فيه!.

١٤ ــ في قوله ﴿وفِصالهُ في عامين﴾ إشارة إلى مدة الرضاع الطبيعية الضرورية للطفل، إنها عامان. فإذا قلَّت عن عامين لا يأخذ حاجته من الحليب الطبيعي الضروري، حليبِ الأم، وإذا زادت عن عامين فإنه لا يستفيد منها، ولا ينتفع بها، وتكون وبالاً عليه، على جسمه وأخلاقه، حيث يتحول إلى شخص مدلَّل رخو مائع.

ولعل السر في أمراض أطفال هذا الزمان هو في عدم رضاعتهم الطبيعية، إن حليب الأم ضروري لسلامة الطفل صحيّاً ونفسياً وخلقياً، ولنمو جسمه، وسلامة مداركه، إن الأم ترضع ابنها المحَبَة والمودة والرحمة والحنان والشفقة، مع ما تقدمه له من الحليب. فكم طفل يرضع من أمه حولين كاملين؟.

١٥ ــ قدَّمت الآيات للابن قاعدةً مأمونة متَّزنة في صِلته بوالديه وبره بهما: ﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما، وصاحبْهما في الدنيا معروفاً﴾.

إن بـر الوالـدين واجب ومطلوب على كـل حال، سـواء أخطآ مـع الابن أو أحْسنا إليه، عامَلاه بمودة أو عاملاه بغلظة وقسوة.

وإن هذا البر لا يَسقط عن الابن، ولو ارتكبا ذنباً ومعصية، بـل لا يسقط حتَّى لو كانا كافِرَيْن مشركَيْن باللَّه. ﴿وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾.

لكن طاعة الابن للوالدين طاعـةٌ مبصرةٌ واعيـةٌ. بمعنى أن يطيعهمـا في ما يُرضي الله، ولا يطيعهما فيما يُغضب الله. يطيعهما عندما يأمرانه بـالطاعـة، ولا يطيعهما عندما يأمرانه بالمعصية، ولا يطيعهما عندما يطلبان منه الكفـر باللَّه أو الشرك به. لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

إن الآية فرَّقت بين أمرين: البر والطاعة.

فالبر مع الوالديْن مطلوب على كل حال، ولو كانا كافرين.

ولكن الطاعة مقيدةٌ بطاعة الله، فلا طاعة لهما إذا تعارضت أوامـرهما مع أوامر الله.

لكن البر مطلوب حتى مع هذه الحالة، حيث يخالف أمرَهما بالمعصية، لكن يخالفه بالبر والمعروف والإحسان. فلا يسب أو يشتم أو يلعن، بل يكتفي بالمخالفة، ويبقى على إحسان المعاملة معهما.

١٦ ــ عرَضت الآيات صـورة عجيبة لـطيفة محبَّبـة، لعلم الله وشمولـه لكـل صغيرة وكبيـرة، ﴿إنَّها إن تَـكُ مِثْقَالَ حَبَّـةٍ من خَـرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْـرَةٍ أَوْ فِي السمواتِ أو فِي الأَرْضِ، يأت بها الله﴾.

إن علم الله شـامـل لكـل شيء، وإنـه لا يغيب عن الله شيء، فحبـة الخردل ــ التي هي مثالٌ لأصغر الأشياء ــ يعلمها الله أينما كـان مكانها في هذه الأرض الواسعة، وتلك السموات الشاسعة، وهو قادر على الإتيان بها.

والمهم من الصـورة المرسـومة هـو تأثيـرهـا على نفس سـامعهـا، حيث

يستشعر علم الله به، واطّلاعه عليه، ويعيش حقيقة أن الله ناظر إليه، وأن الله مطلع عليه. وهذا يدفعه إلى الإخلاص معه، وإحسانِ عِبادته، والحياءِ من التقصير في حقه، والالتزام بأحكامه، والابتعاد عن معصيته ومخالفته.

١٧ ــ خَتَمَ تلك الآية المصوِّرة لعلم الله وقدرته باختيار اسمين من أسماء الله ﴿إن الله لطيف خبير﴾.

وهو ختام يتناسق مع موضوع الآية:

إن الله لطيف، فعلمه شامل لكل شيء، وهو نافذ في كل شيء، ولا يقف أمامه أي شيء، ولا يستعصي عليه أي شيء، لأنه علم لله المطلع على كل شيء.

وإن الله خبير، والخبرة هنا بمعنى العلم، أي عالم بكل شيء.

١٨ ــ في جو العقيدة والإيمان، والابنُ متأثر بالصورة المعروضة لعلم الله وقدرته. يكلِّف الأب ابنه بالعبادات، فيأمره بإقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيكون للتكليف معناه وحياته وحيويته، لأن القلب الممتلىء إيماناً باللّهِ وتعظيماً له، سيلتزم بتلك التكليفات.

١٩ ــ أفعال الأمر الموجَّهة من لقمان لابنه ستة، وأفعال النهي ثلاثة:

١ ــ أَقِمْ الصلاة.

٢ ــ أْؤْمُرْ بِالمعروف.

٣ ــ إنْهَ عن المنكر.

٤ ــ إصبر على ما أصابك.

٥ ــ إقصد في مشيك.

٦ ــ أُغضض من صوتك.

أما أفعال النهي فهي:

١ ــ لا تشرك بالله.

٢ ــ لا تصعِّر خدك للناس.

٣ ــ لا تمشِ في الأرض مرحاً.

وهذه الأمور كلها ذات أبعاد عبادية، فيصح أن تسمى «عبادات» والمؤمن يعبد الله من خلال التزامه الأوامر، مهما كان موضوعها، ويعبد الله من خلال اجتنابه المنهيات، مهما كان موضوعها. إن أداء الأوامر عبادة للّه، وإن ترك المحرمات عبادة للّه.

يجب أن نوسع مفهوم «العبادة» فلا نجعلها مقصورة على « الشعائر التعبدية» فقط. لأن العبادة شاملة لكل حياة المسلم، ولا تخرج لحظة من لحظاته عن العبادة. إنه عابد لله في الشعائر التعبدية، وفي التشريعات والمعاملات، وفي الفضائل والأخلاق، وفي التعامل والصِّلات.

إنه عابد لله بفكره وعقله، وبإيمانه وقلبه، وبجسده وجوارحه، عابد لله في بيته ومسجده، ووظيفته وعمله، في ليله ونهاره، ويقظته ومنامه.

إنه عابد لله في الصلاة والصيام، وفي الخُلُق والسلوك، وفي التعامل والكلام، وفي المال والاقتصاد، وفي السياسة والوظيفة، وفي اللعب والفن والخيال..

٢٠ ــ عقبت الآية على الأوامر العبادية بعبارة «إن ذلك من عزم الأمور» «والعَزْم هو عقْدُ القلب على إمضاء الأَمر»(١). أي إن إقَامَةَ الصلاة والأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر والصبرَ على الأذى، أمور تحتاج إلى عزم القلب وعزيمته وهمته وجهده، إنها تكاليف شاقة، لا يطيقها كل الناس، ولذلك سيتخلى كثير عنها، إنه لا ينهض بها إلَّا ذوو عزم وعزيمة، ولا يقدر عليها إلَّا أصحاب العزائم:

(١) المفردات: ٣٣٤.

وَإِذَا كَـانَـت الـنُّـفُـوسُ عِـظَامَـاً   تَـعِبَـتْ فِي مُـرَادِهَـا الأَجْـسَـادُ

٢١ ـ عقَّبت الآيـة على النـواهي بعبـارة ﴿إن الله لا يحب كـل مختـال فخـور﴾ فالاختيـال والتكبر والفخـر أخلاق مـذمـومـة لا يحبهـا الله، ولا يحب أصحابها. وهذه دعوة من القرآن للتخلي عن تلك الرذائل.

إن القـرآن يرغِّب بـالأخلاق الحميـدة، ويدعـو المؤمنين للالتـزام بهـا، بعبارة ﴿إن الله يحب. . .﴾ وما أن يسمـع المؤمن كلمة «يحب» حتى يحـرص على معرفة ما بعدها، ليتخلق بها، لأنه يعلم أن هذا هو طريق محبة الله.

وإن القرآن ينفِّر من الأخلاق المذمومة بكلمـة ﴿إن الله لا يحب﴾ وما أَن يسمع المؤمن كلمة «لا يحب» حتى يحرص على معرفة ما بعـدها، ليتجنَّبهـا، لأن ذلك يحْرمه من محبة الله. فهل نجمع آيـات ﴿إن الله يحب﴾ لنلتزم بتلك الصفات؟ وهل نجمع ﴿إن الله لا يحب﴾ لنتخلى عن تلك الصفات؟.

٦

قِصَّةُ سَبَأ

قِصَّةُ سَبَأ

القصة في العرض القرآني :

قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ
كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾

فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ
وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾
ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ
سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾
فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ
كُلَّ مُمَزَّقٍ

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾
وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ

لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ﴾[1].

شرح الكلمات الغريبة :

١ ـ سبأ : اسم لقبيلة قوية سكنت اليمن، وأنشأت فيها حضارة.

٢ ـ آيـة : في قصتهم عبرة وعِظة ودرس للآخرين.

٣ ـ جنّتان : بستانان عظيمان واسعان.

٤ ـ أعرضوا : كفروا وطغوا وبغوا.

٥ ـ سيل العرم : سيل سد مأرب، بعد تدميره اجتاحَهم وعمّهم.

٦ ـ جنتين ذواتَيْ أُكُل : جنتين صاحبتي أُكُلْ. وذواتي مثَنّى مؤنث لكلمة «ذو».

٧ ـ أُكُل خَمْط : الخَمْط هو شجر صحراوي مرّ له شوك. لا يؤكَل.

٨ ـ أَثْـل : وهو نوع من أشجار الصحراء. يسمى «الطَّرفاء».

٩ ـ سِدْر : نوع ثالث من أشجار الصحراء، له شوك. يسمى «النَّبَق».

١٠ ـ القرى التي باركنا فيها : هي قرى البلاد المباركة في فلسطين وما حولها.

١١ ـ قرى ظاهرة : هي القرى بين اليمن والشام. وهي بلاد الحجاز.

---

(١) سورة سبأ: آيات ١٥ ـ ٢١.

١٢ـ قَدَّرْنافيهاالسير : جعلناه سيراً مقدَّراً محدَّداً على مراحل معروفة.

١٣ـ جعلناهم أحاديث : دمّرناهم، وجعلناهم قصصاً يتحدث بها الناس في مجالسهم.

١٤ـ مزَّقناهم كل ممزق : فرّقناهم في بلاد العرب والشام والعراق ومصر.

١٥ـ صبَّارشكور : صيغتا مبالغة من الصبر والشكر: كثير الصبر والشكر.

١٦ـ صدَّق عليهم إبليس : حقق فيهم هدفه في إضْلالهم.

كلام في قصة سبأ:

أورد الإخباريون والمؤرخون كلاماً مفصَّلاً عن قصّة سبأ، وبداية مُلكهم، وتَفصيل النعمة عليهم، وبدايات نقض السد عليهم، وما جرى لهم بعد ذلك.

وسوف نشير إلى بعض تلك التفصيلات، ونوردها، لا تسليماً بها أو قبولاً لها، بل من أجل إطْلاع القراء عليها، ولدعوتهم إلى «التوقف» فيها، كما توقَّفْنا، فلا نقول بها ولا نثبتها، كما أننا لا نردها أو نرفضها، فالتوقف هو الأسلم، والأكثر اتفاقاً مع العلم والبحث. لعدم وجود وسائل علمية يقينية، نتمكن بها من التمييز بين الطيب والخبيث منها، والتفرقة بين الصدق والكذب. ثم هي مما لا يترتب عليها فائدة علمية، ولا يضرنا الجهل بها، ولا يضيرُنا شيء عندما نتوقف فيها.

قال المؤرخون والإخباريون: إن «سبأ» هو أوّل من ملك اليمن. وأن اسمه هو «عَبْدُ شَمْس بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطان».

وسمِّي «سبأ» لأنه أول مَلِك من العرب، سبى أعداءه.

وكان يقال له «الرائش» لأنه كان يقدم لقومه المال الذي يغنمه من الحرب، والعرب يسمون المال ريشاً ورياشاً.

قالوا: وكانت «سبأ» في نِعم غامرة، حيث أعطاهم الله من كل شيء، كما توحي بذلك الآيات.

وأقاموا حضارة متقدّمة، واستطاعوا التحكم في ماء الوديان، حيث أنشأوا سداً منيعاً عند مدينة مأرب. سمّي «سد مأرب». وكان ذلك السدّ بين جبلين، وتحكّموا في مياه السد في ري أراضيهم، وسقْي بساتينهم.

وتمكّنوا من إنشاء الجنّات والبساتين، وفيها ما فيها من الأشجار، وجَنَوْا منها ما جنَوْا من الثمار.

قالوا: كان لسبأ جنتان بين جبلين. فكانت المرأة تمر وسط الجنّات، ومكتلها على رأسها، فيمتلىء مكتلها بالفاكهة التي تتساقط فيه بدون أن يقطفها أحد. وذلك لكثرتها ونضجها.

قالوا: ولم يكن ببلدهم شيء من الذباب أو البعوض أو البراغيث، أو شيء من الهوام، وذلك لاعتدال الهواء، وصحة المزاج، وعناية الله بهم ليعبدوه ويوحّدوه.

وكان من ملوكهم «بلقيس» التي جرت لها قصة مع نبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام، انتهت بإسلامها لله، ودخولها في دينه، كما أشارت إلى ذلك سورة «النمل».

لكن أهل «سبأ» بعد موت بلقيس، كفروا بالله، وأشركوا به، وبطروا وبغوا وطغوا. فحقّت عليهم سنّة الله، وأوقع الله بهم العذاب. حيث دمَّر الله «سد مأرب» وأرسل عليهم ما كان وراءه من ماء، فكان سيلاً عظيماً مدمِّراً، سمّاه القرآن «سيل العرم». أغرق الجنات والبساتين، وأهلك الأشجار والثمار، وأزال الله عنهم تلك النعم، بسبب ما كسبوا.

ويذكُر المؤرخون والإخباريون، تفصيلاتٍ لبداية تدمير السد، واجتياح

السيل العرم، خلاصتها أنهم كانوا يعرفون ـ كما أخبرهم الكهنة ـ أن سبب تدمير السدّ هو «الجُرَذ». فجعلوا على كل مكان من السد «هرّاً» للحراسة.

ولمّا حلَّ بهم أمر الله، أقدمت الجرذ على السدّ، وغلبت القطط وهزمتها.

وشاهد ذلك أحد زعمائهم، وهو «عمرو بن عامر»، فأيقن بقرْب الهلاك، وفكّر في وسيلة يأخذ فيها ثمن أراضيه وأملاكه. فدعا ابنَ أخيه وقال له: إذا أنا جلستُ العشية في نادي قومي، فائتني فقل: علام تحبس عليَّ ما لي؟ فإني سأقول لك: ليس عندي مال لك، ولا ترك أبوك شيئاً، وإنك لكاذبٌ. فإذا أنا كذّبتك فكذِّبني، واردد عليّ مثل ما قلت لك، فإذا فعلتَ ذلك فإنِّي سأشتمك، فاشتمني. فإذا شتمتني لطمتك، فإذا أنا لطمتك فقم إليّ فالطمني.

فقال له ابن أخيه: ما كنتُ لأستقبلك يا عمّ بذلك! فقال له: بلى إفعل فإني أريد بها صلاحَك وصلاح أهل بيتك، فقال الفتى: نعم.

فجاء فقال ما أمره به عمّه حتّى لطمه، فتناوله الفتى فلطمه! فقال الرجل: يا بني فلان: أُلْطَمْ فيكُمْ؟ لا سكنت في بلد لطمني فيه فلان أبداً. من يشتري منّي دوري وأرضي وعقاري. فلما عرفوا منه الجد اشتروا منه كل ما يملك.

ولمّا صار المال معه، وجهّز نفسه وأهله للخروج والسفر، نادى قومه وقال لهم: أي قوم: إن العذاب قد أظلكم، وزوال أمركم قد دنا.

فمن أراد منكم داراً جديداً، وجملاً شديداً، وسفراً، فليلحق بعُمان. ومن أراد منكم الخمر والخمير والعصير فليلحق ببُصرى.

ومن أراد منكم الراسخات في الوحل، المُطعِمات في المحل، المقيمات في الضّحل، فليلحق بيثرب، ذات النخل.

فأطاعه قوم منهم، وتفرقوا:

فخرج الأزد إلى عُمان.

وخرجت غسّان إلى بُصرى.

وخرجت الأوس واخزرج وبنو كعب بن عمرو إلى المدينة «يثرب».

فلما كانوا ببطن نخل، وقبل وصولهم المدينة، قال بنو كعب: هذا مكان صالح لا نبتغي به بدلاً، فأقاموا فيه، فلذلك سُمّوا «خُزاعة» لأنهم انخزعوا ـ أي انفصلوا ـ عن أقوامهم.

وأقبلت الأوس والخزرج حتّى نزلوا بيثرب.

أمّا «سبأ» فإن الله أرسل عليها «السيل» حيث تمكنت الجُرذُ من نقض «سد مأرب» فاجتاحت مياهُ «سيل العرم» ما يملكونه من جنات، وأتلفت أشجارهم ومزروعاتهم.

وبادت تلك الحضارة وزالت وانقرضت، بسبب كفرهم وبطرهم: «ذلك جزيناهم بما كفروا، وهل نجازي إلّا الكفور»؟

وفي ما حل بقوم سبأ، يقول الشاعر الأعشى «ميمون بن قيس»:

وفي ذاك لِلمُؤْتَسِي أُسْوَةٌ وَمَأرَب عَفّى عَلَيْهِمْ العرِم
رُخَامٌ بَنَتْهُ لَهُمْ حِمْيَر إذا جاء ماؤهم لم يُرِم
فأروى الزروع وَأَعْنابَهَا عَلَى سَعَةٍ مَاؤُهُمْ إِذْ قُسِمْ
فَصَارُوا أَيَادِيَ لا يقْدرون عَلَى شُرْبِ طِفْلٍ إذا مَا فُطِمْ[1].

هذه التفصيلات في قصة سبأ وتدمير السدّ وهجرة القوم، نوردها

(١) انظر هذه الأخبار والتفصيلات في: البداية والنهاية ٢: ١٥٨ ـ ١٦٢ وتفسير ابن كثير ٣: ٥٣٠ ـ ٥٣٥ والدر المنثور للسيوطي ٦: ٦٨٦ ـ ٦٩١.

لا لاعتمادنا لها وقبولنا لما جاءَ فيها، فنحن متوقفون فيها، لا نقول فيهـا شيئاً، لا بنفي أو إثبات، ونريـد من القارىء أن يتـوقف فيهـا أيضـاً، فـلا يقبلهـا ولا يرفضها.

ملكة سبأ في سورة النمل:

وقبل أن ندخـل في تفصيلات آيـات قصة سبـأ، كما وردت في سـورة سبأ، نقف قليلاً أمام آيات من سورة النمل، تحدثت عن قصة ملكة سبأ، ومـا جرى بينها وبين نبيّ الله سليمان عليه السلام:

قال تعالى: ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾

فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾

إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾

قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾

ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾

قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾

قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾

قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ
يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم
بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً
وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾

قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾

قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾
قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ

فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ
فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾
قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾

فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ
وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن
قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾

قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا
قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ
قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١).

---

(١) سورة النمل: آيات ٢٠ ــ ٤٤.

بعض دلالات الآيات:

١ ـ حُكم سليمان عليه السلام للأنس والجن والطير، وإخضاعُها لـه، وانقيادها لأمره، حيث كان الطير في جيشه.

٢ ـ إهتمام سليمان عليه السلام بجنوده، ولو كانوا من الطير، كما ظهر في تفقده للطير.

٣ ـ حزْم الحاكم تجاه جنوده، حتى لا يكون التسيّب والفوضى، حيث هدّد سليمان الهدهد، لغيابه عن الجيش بدون عذر.

١ ـ جواز إيقاع العقوبة في الجندي المقصّر المتخلف غير المنضبط.

لقول سليمان: لأعذبنّه عذاباً شديداً، أو لأَذْبَحَنَّهُ.

٥ ـ عدل الحاكم مع رعيّته، وسماحه للمقصّر بالدفاع عن نفسه، وتقديم بيناته، لقول سليمان: أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بسلطان مبين.

٦ ـ جرأة المسلم وشجاعته، وإقدامه وعزّته، فبما أنه على الحق فلماذا يضعف أو يذل أو يهن أو يجبن؟ فالهدهد جاء سليمان، وخاطبه بعزّة وثبات، وقال له: أحطتُ بما لم تحط به. وجئتك من سبأ بنبأ يقين.

٧ ـ كل فرد في المجتمع الإسلامي، حريص على مصلحة هذا المجتمع، ومجنّد لخدمته، وساع من أجله، فالهدهد ذهب إلى سبأ، ليقدِّم من هناك أخباراً ومعلومات لمصلحة وخدمة مجتمعه، في جيش سليمان.

٨ ـ إن الحاكم قد لا يُلم بالأمور كلها، بل إنه لا يلم بها كلها قطعاً، ولا يحيط بها علماً، ولهذا يسمع من الآخرين، ويقبل منهم ما يقدّمونه، ويأخذ منهم ما غاب عنه. فها هو الهدهد يقول لسليمان النبيّ: أحطتُ بما لم تحط به.

٩ ـ وجوب أن تكون الأخبار والمعلومات التي يقدمها المسلم لولي الأمر، صادقة صحيحة بينة، وأن يتأكد منها، ويتثبت منها قبل تقديمها، لقول الهدهد: «وجئتك من سبأ بنبأ يقين».

١٠ ـ كان الهدهد موفَّقاً في استكشافه سبأ، ذكياً في إطلاعه على مظاهر

قوّتها، بليغاً في تقديم تقريره الصادق عنها. حيث ذكر فيه خلاصةَ واقعِها: إنّي وجدت امرأة تملكهم، وأوتيت من كل شيء، ولها عرش عظيم.

١١ ــ حاكمة سبأ كانت إمرأة. ونقل كثيرون أن إسمها كان «بلقيس». لكن هذا لم يُنقل بحديث صحيح، ولهذا فنحن نتوقف فيه، فلا نقول به ولا نردّه، ونتعامل معه كما نتعامل مع باقي «مبهمات القرآن».

١٢ ــ إيجاز الهدهد في وصفه قوة ملكة سَبَأْ، في قولِهِ «وأوتيتْ من كل شيء» ولعل هذا الشيء كان شاملاً لكل مظاهر وألوان وأنواع الخير والرزق والقوة والتمكين، فقد منحها الله من كل شيء طرفاً، سواء كان في السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع، حيث أوتيت من كل شيء في الرزق والأشجار والخضار والثمار والمياه والأمطار والأموال والبنين والرخاء والأمن والاستقرار والقوّة والسلطان. . . والعرش العظيم.

١٣ ــ اهتمام الهدهد بمعرفة دين ملكة سبأ وقومها، حيث رآهم يسجدون للشمس من دون الله، وفي هذا تقرير أنّهم كانوا يعبدون الشمس.

١٤ ــ غيرةُ الهدهد على التوحيد والإيمان، ولذلك أنكر على قوم سبأ سجودهم للشمس من دون الله، وتعجب من عدم سجودهم لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض، ويعلم ما يفعله كل النّاس، فهو وحده رب العالمين، رب العرش العظيم.

لقد كان الهدهد داعيةً إلى الإيمان، محارباً للشرك والكفر، صاحب حس إيماني، وغيرة دينية.

والمسلمون أوْلى من الهدهد بذلك الموقف والحس، وتلك الغيرة الواعية، لأن الله أمرهم بذلك في القرآن، وكلّفهم القيام به.

١٥ ــ كل مخلوق يفهم الأمر من الزاوية التي تهمّه، وينظر له بالمنظار الذي يعنيه، وعلى الصورة التي تبدو له.

فها هو الهدهد يتعرف على الله من خلال حاجاته هو، واهتماماته هو،

فالله بالنسبة له هو الذي يخرج الخَبْءَ في السموات والأرض. والخبء هو الحب المخبوء في باطن الأرض، الذي يهتم به كباقي الطيور، ويبحث عنه في منقاره، وهو يعلم أن الله هو الذي يخرجه له ويقدمه له، وما منقاره إلّا وسيلةٌ وسبب ظاهري فقط.

١٦ ــ لعل الحكمة من ذكر عرش الله العظيم، هو الدعوة إلى عدم اغترار الناس بمظاهر الحياة الدنيا، وتواضعِهم عند حصولهم على بعضها، فإذا كانت ملكة سبأ تملك عرشاً عظيماً، فهذا لا يساوي شيئاً في الحقيقة، فإن الله القويّ الغنيّ هو رب العرش العظيم. وأين عرش ملكة سبأ من عرش الله؟ وماذا تساوي عظمته بالقياس إلى عظمة عرش الله؟.

١٧ ــ وجوب تأكد الحاكم من صحّة الكلام الذي يقدَّم له، وعدم قبوله مباشرة، فقد لا يكون صاحبه صادقاً، ولو كان صادقاً فقد لا يكون متأكداً مما يقول. فسليمان عليه السلام قال للهدهد بعد أن سمع كلامه: سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين.

١٨ ــ كان الهدهد موفَداً خاصاً من سليمان لملكة سبأ، حيث حمل كتابه إليها، لقد كان الهدهد يتحرك لدعوته، ويحرص على نشر دينه، فإذا كان الطير غير المكلّف بذلك يحرص على القيام به، فكيف بالمسلم الذي كلّفه الله بذلك، وأمَره أن يقوم به؟

١٩ ــ أمَر سليمان الهدهد بالحذر عند إيصال الكتاب، والحرصِ على أن لا يُكتشف أمرُه: «إذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا، فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ، ثُمّ تَوَلّ عَنْهُمْ، فانظر ماذا يرجِعون». يلقيه إليهم، ثم يبتعد عنهم قليلاً، ويراقب الأمر عن كثب، فيرى ماذا يفعلون، وينظر ماذا يرجعون.

٢٠ ــ وصفت الملكة كتاب سليمان بأنه كريم: «إنّي ألقِي إليّ كتاب كريم» ولعل الحكمة من ذلك شي كون الملكة عارفة بسليمان سامعةً به، مطلعةً على قوته وسلطانه. كما أن هذا الوصف يشير إلى وعي الملكة وذكائها، وحسن تلقيها لكتب الملوك.

٢١ ــ قرأت الملكة على قومها، نص كتاب سليمان:
«بسم الله الرحمن الرحيم: ألَّا تَعْلوا عليَّ وأتوني مسلمين».

وهذا الكتاب من أكثر الكتب اختصاراً بليغاً، وكأنه برقية موجزة، حيث كل كلمة فيه اختيرت بعناية.

٢٢ ــ ورغم اختصار الكتاب، ورغم الحرص على عدم حشوه بالكلمات التي لا داعي لها، فقد أبقى سليمان عليه السلام البسملة، حيث أخذت نصف الكتاب. وهذا يوحي بأهمية البسملة وافتتاح الكتب بها.

٢٣ ــ طلبَ سليمان عليه السلام منهم طلباً محدداً: وأتوني مسلمين، وهذا يدل على هدف سليمان مِنْ فتوحاته وقتاله. إن هدفه هو أن يُسْلِم الناس لله رب العالمين. وما سليمان بجهاده إلَّا داعية لدين الله.

ولعل في هذا رداً على الذين يشوِّهون صورة سليمان، ويعتبرونه حريصاً على الفتح والتوسع واحتلال البلدان واستعمار الآخرين لشهوة الحكم والسلطان.

٢٤ ــ الحُكم في مملكة سبأ كان ديمقراطياً ــ إذا جاز هذا التعبير ــ فلم تكن الملكة تنفرد باتخاذ القرارات، بل كانت تُشرك كبار دولتها معها، وتستشيرهم في الأمر: «قالت يا أيها الملأ: أَفْتوني في أَمْري، ما كنتُ قاطعةً أمراً حتى تشهدون».

ولعل هذه نقلة بعيدة في نظام الحكم في سبأ في ذلك الزمان السحيق، حيث كانت أنظمة الحكم استبداديَّة فرديَّة مطلَقَة، الحاكم هو الذي يقرر ما شاء، وما على الرعية إلَّا الموافقة والتنفيذ.

لقد كانت سبأ متقدمة في نظام حكمها قليلاً بالقياس إلى زمنها.

٢٥ ــ العجيب أن الملأ في سبأ تنازلوا عن آرائهم وشخصياتهم، ورضوا أن يكونوا مجرد أتْباع للملكة، منفِّذين لما تأمر به، فهي تستشيرهم وتُشركهم معها، وهم يردّون عليها قائلين: «نحنُ أولو قوة، وأولو بأس شديد. والأَمْرُ إليكِ، فانظري ماذا تأمرين».

وهذه طبيعَة الشعوب المستضعَفَة، التي اختارت بإرادتهـا الاستضعاف، وحرصتْ عليه، فهي تـرفض أية دعـوة للنهوض والقـوة والعزة، وتفضِّـل عليها التبعية والذل والاستضعاف.

٢٦ ـ أطلقتْ ملكة سبأ حكمَهـا على كل الملوك قـائلة: إنَّ الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها، وجعلوا أعزَّة أهلها أذلة. وكذلك يفعلون.

وهي تعني بذلك ـ أول ما تعني ـ الملك النبـي سليمان عليـه السلام، وهي بذلك تذمُّه ولا تُثني عليه. وطبعاً كلامها غيـرُ صحيـح ولا مقبول في حق سليمان عليه السلام.

وبعض الناس يعمِّمون قولَ ملكة سبـأ هذا على كـل الملوك، ويعتبرون هذه الآية دليلاً على فسادهم وإفسادهم.

وهذا الاستشهادُ بالآية غيرُ دقيق ولا مسلَّم به.

إن الدعوى قد تكون صحيحة، والقضية قـد تكون صـواباً ـ وهي غـالباً كذلك ـ فكـل الملوك غير الملتـزمين بدين الله حقَّ الالتـزام، يحرصـون على الفساد والإفساد واستعْباد الآخرين وإذلالهم وإخضاعهم لهم.

لكن الـدليل على ذلـك لا يكون من هـذه الآية. لأن الآيـة حَكَتْ كلام ملكة سبأ. وملكةُ سبأ عندما قالته كـانت كافـرة، وهي تعني به سليمـان النبـيَّ عليه السلام، وتصفه فيه بالفساد والإفساد. فكيـف نعتمد كلام ملكة كافرة تـذم به نبيّاً عادلاً عليه السلام؟.

إن القرآن قد يورد كلام الكفار، من باب الحكاية والإخبار، وأحياناً يردُّه وينقضه، وأحياناً يسكت عليه. وفي الحالتين كلتيْهما لا يُستـدل بذلـك الكلام على قضية ما، لأن القرآن أورده وحكاه. إن أقوال الكفار التي حكـاها القـرآن لا تُعتمد، ولا يُستدل بها إلَّا إذا اعتمدها القرآن نفسه.

فكـلام ملكة سبـأ ليس دليلاً على فسـاد وإفساد الملوك، ولنبحث لهـذه الدعوى الصحيحة ـ غالباً ـ عن دليل آخر يدل عليها.

٢٧ ــ لم تَخْتر ملكة سبأ الحربَ مع سليمان، بل اختارت المفاوضات والسلام والمهادنة. ولعل السبب في ذلك هو أن المرأة لا تميل ــ بطبيعتها ــ إلى الحرب والقتال والعنف وسفك الدماء، فإذا ما ملكت المرأة القوم، وَووجهت بهجوم الأعداء، فإنها ــ غالباً ــ لا ترغب في القتال والمواجهة، وبذلك تُضيع قومها أمام الأعداء.

٢٨ ــ أرادت ملكة سبأ اختبارَ سليمان، ومعرفةَ مدى جدّيته في الدعوة إلى الإسلام، وهل هو رجل دعوة أو تاجرٌ بالدعوة، ولذلك قدمتْ له المال رشوة، ليكفّ عنها، ويدَعَها مع شركها وكفرها.

٢٩ ــ أطلقتْ ملكة سبأ على المال المقدم لسليمان اسم «هدية» فقالت: «وإنّي مرسلةٌ إليهم بهديّة فناظرة بِمَ يرجع المرسلون». لكن هل هي هدية فعلاً؟ إنها رشوة لسليمان ليكفَّ عنها، ولكنها أسمت الرشوة هدية. ولقد رد سليمان رشوتها، وقال للرسل «بل أنتم بهديتكم تفرحون».

واعتُبرتْ تلك الهدية رشوة، لأنها قُدمت لسليمان الحاكم الملك النبي عليه السلام، ومعلومٌ أن هدية الموظف في وظيفته، والوالي في ولايته، رشوةٌ وليست هدية.

ولم تُستعمل كلمة «هدية» في القرآن إلاّ بمعنى الرشوة، لأنها لم تُذكر إلاّ في هاتين المرَّتين، في قصة سليمان مع ملكة سبأ!.

٣٠ ــ استعلاء سليمان عليه السلام على إغراء المال، وقطعُه طريق المفاوضة والمهادنة، وعدمُ إضاعته الوقت في الرسل والمبعوثين، يجعله قدوةً للحكام المسلمين في مواجهتهم للأعداء.

لما جاء الرسُل سليمان ومعهم هداياهم، قال: أتمدونن بمال؟ فما آتانِيَ اللَّهُ خيرٌ مما آتاكم، بل أنتم بهديتكم تفرحون. إرجع إليهم فلنَأتينَّهم بجنود لا قبل لهم بها، ولنخرجنَّهم منها أذلة، وهم صاغرون.

٣١ ــ ونلحظ إشارة أخرى من هذه اللقطة في القصة، فالأعداء حريصون على إضاعة وقت الأمة في المفاوضات، وإشغالها بالتوافه والسفاسف عن الأمور الأساسية الهامة. كما فعلتْ ملكة سبأ عندما بعثت الرسل بالهدايا لسليمان، لتدخله في المفاوضات والمهادنات.

وعلى ولاة الأمر في الأمة أن يفطنوا لهدف الأعداء الخبيث، وأن يفوِّتوا عليهم غرضهم، ولا ينشغلوا بما يقدمونه لهم عن هدفهم الأساسي.

٣٢ ــ كان للموقف الحازم الحاسم الجازم لسليمان أثرُه المباشر على الخصم، حيث استسلمتْ ملكةُ سبأ لسلطانه، وأدرك سليمان ذلك، وأراد أن يقدّم لها أدلة أخرى على ضعفها وهزيمتها.

وعندما تمر الأمة بضائقة أو مشكلة، وعندما تواجه تحدياً خطيراً يتهدد وجودَها وحياتها، فهي مطالبة بوقفة حازمة، وعلى ولاة الأمر فيها ــ الذين بيدهم القرار والحكم ــ أن يواجهوا الأعداء بجزم وحزم وحسم، وأن يتعاملوا مع الخطر بجديَّة وصدق وتجرُّد.

٣٣ ــ أراد سليمان إحضارَ عرشها العظيم الذي تتباهى به، ليريها ضعفها أمامه، وهزيمتها أمام قوته.

٣٤ ــ أجرى سليمان عليه السلام تنافساً أمام خاصته والمقرَّبين إليه، وقال لهم: أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين؟.

وتفاوتت قواتهم وطاقاتهم وقدراتهم.

ووجد سليمان نفسه أمامه عَرْضين:

العرض الأول: قدَّمه عفريت من الجن: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك، وإني عليه لقوي أمين.

العرض الثاني: قدَّمه الذي عنده علم من الكتاب: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طَرْفُك.

٣٥ ـ وفي هـذا الأمر نجـد التفصيلات مبهمـة، حيث لم يذكـر القرآن ولا الحـديثُ الصحيح عنهـا شيئـاً. فـلا يجـوز لنـا أن نحـاول بيـان تلك المبهمـات، أو الخـوض في تلك التفصيـلات. والـذهـاب في بيـانهـا إلى الإسرائيليات.

لا نـدري اسم العفريت من الجن، ولا كيف سيقـدِّم العـرش قبـل قيـام سليمان من مقامه.

ولا ندري اسمَ الذي عنده علم من الكتاب، ولا وظيفتَـه عند سليمـان، ولا العلمَ الذي معه، ولا كيف سيقدِّم العرش لسليمان قبل أن يفتح عينيه.

لا تهمنا معرفةُ ذلك، لأنها لا تُرتِّب فائدةً أو علماً.

٣٦ ـ في إحضار العرش لسليمان كرامةٌ للذي عنده علم من الكتـاب، ومعجـزةٌ لسليمان عليـه السلام، ومـظهرٌ لقـدرة الله القـادرة، وانتصـارٌ للحق، وهزيمةٌ للباطل الذي تمثله ملكة سبأ.

٣٧ ـ ماذا قال سليمـان لما رأى العـرش مستقراً عنـده؟ قال: هـذا من فضل ربـي، ليبلوني أأشكر أم أكفر، ومن شكر فإنما يشكـر لنفسه، ومن كفـر فإن ربـي غني كريم.

إنه لم يغترَّ بالقوة، ولم يكن في تيهٍ وبَطَر وَتَكَبُّر وفساد، بل كان متواضعاً أمام قوة الله، ذاكراً له، شاكراً لفضله.

وهو في هذا الموقف أيضاً قدوةٌ للحكام والولاة في تصرفهم أمـام قوتهم وانتصارهم.

٣٨ ـ أراد سليمان أن يقدِّم لملكـة سبأ مفـاجآتٍ، الهـدفُ منها إظهـارُ ضعْفها وخطئها وجهلها. وهذه المفاجآت هي:

(أ) إحضار العرش من سبأ، بعد خروجها إلى سليمان، ووضْعُه أمامها عند دخولها عليه.

(ب) تنكيرُ العرش بتغيير بعض معالمه البسيطة: قال نكِّروا لها عرشها، ننظرْ أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون.

(ج) وضعُ صرْحٍ أمامها لتمرَّ عليه وتعبره، حيث بنى لها ممرَّاً زجاجياً، ويبدو أن الماء كان تحته. ليوهمها أنها ستدخل الماء.

٣٩ ــ كانت ملكة سبأ ذكية أمام السؤال عن العرش، حيث قيل لها: أهكذا عرشك؟.

فلما رأته لم تجزم بأنه ليس هو، لأنه يشبهه تماماً! ولم تُثبت أنه هو، لأنها تركتْه وراءها، فما الذي جاء به ووضعه أمامها: فوقعتْ في حيرة، أَنقذها منها ذكاؤُها وعقلها. فأجابت: كأنه هو.

وهذا الجواب لتحفظ خطَّ الرجعة، فهي لم تنف ولم تُثبت.

٤٠ ــ لما قيل لها ادخلي الصرح حسبتْه لجّةً، أَيْ ماء، فكشفتْ عن ساقيْهَا بأن رفعت ثوبها قليلاً، استعداداً لخوض اللجة، فاعتُبرت تلك الحركة منها سذاجة، فتهكموا عليها وسخروا منها، وقالوا: إنه صرح ممرَّد من قوارير، أيْ إنه بناء من زجاج شفّاف أملس.

وقد ذكر دعاةُ الغرائب والإسرائيليات، تعليلاً عجيباً لكشفها عن ساقيْها، حيث زعموا أن ملكة سبأ ــ التي أطلقوا عليها اسم بلقيس ــ كانت أُمُّها من الجن، ولهذا كانت تملك رِجْلين كأرجل الجن، وكانتا تُشبهان أرجلَ الغَنَم، وأراد سليمان أن يتأكد من ذلك، فأعدّ لها الصرح الممرَّد من قوارير، فلما رأى ساقيها رآهما ساقيْن بشريتيْن جميلتيْن! ولا يجوز أن نفسِّر القرآن بتلك الغرائب والأباطيل.

٤١ ــ أدركت ملكةُ سبأ خطأَها، وعرفتْ أَنها لا تملك شيئاً بالقياس إلى قوة سليمان، وأنها عاجزةٌ عن مقاومته، كما أدركت أنها على باطل لأنها مشركة بالله، وأن سليمان على حق، وأن دينه هو الصواب، وقذف الله الإيمان في قلبها، فقالت: رب إني ظلمت نفسي، وأسلمت مع سليمان، لله رب العالمين.

٤٢ ــ وتسكت آيات القرآن عن ما جرى بين ملكة سبأ وسليمان بعد ذلك، ولذلك تبقى أسئلةٌ عنه بدون جواب يقينيّ، مثل: هل تزوّجها أم لا؟ وهل أقامت في مملكته أم عادت لسبأ؟ وهل أسلم قومُها معها ودخلوا في دين سليمان؟ وهل سليمان مَلَكَ اليمن أم لا؟ وكيف كانت الصلةُ بين بني إسرائيل وبين سبأ بعد موت سليمان وموت ملكة سبأ؟.

هذه أسئلة لا جواب عليها، لأن المصادر اليقينية الصحيحة لم تتحدث عنها، ولذلك يجب أن نتوقف عند تلك المصادر، ولا يجوز أن نذهب إلى الإسرائيليات والأباطيل والأساطير لنأخذ منها الجواب.

لقد كانت خاتمة قصة سليمان مع ملكة سبأ في سورة النمل، خاتمةً إيمانيةً دعويةً مقصودةً، حيث كان آخرُ لقطاتها دخولَ ملكةِ سبأ في دين الله، ونبذَها الشرك والكفر، وإسلامهَا مع سليمان النبي الداعية لله رب العالمين.

وهذه الخاتمة تشير إلى الهدف من عرض القصة، وهو دعوة الدعاة للاقتداء بالداعية النبيِّ القوي سليمان عليه السلام، وجعْل الدعْوَةِ لَهَا هَدَفٌ، وهو أن يتوجه المدعوون إلى الإسلام، وأن يلتزموا به عملياً.

خلاصة قصة سليمان مع ملكة سبأ:

نستخلص في نهاية كلامنا الموجز عن قصة سليمان مع ملكة سبأ: أن سبأ زمن ملكتهم وصلوا إلى مرحلة متقدِّمة من القوة والغِنى والرفاه والنعم،

«وأوتيتْ من كل شيء» بهذا العموم والشمول، وأن ملكتهم كانت تشاور قومها في حكمهـا، ولكن القوم كـانوا أتبـاعاً لهـا منفّذين لتـوجيهاتهـا، وأن سليمـان لما علم بها عن طريق الهدهد، دعاها إلى الإيمان، وأعدَّ لها مفاجآتٍ عـرَفت منهـا ضعفَها وعجـزَها وجهلَهـا؛ وأيقنَتْ قوتـه وتقدمـه، وعزَتْ هـذا إلى دينـه الصحيـح، فدخلت فيه، وأسلمت لله رب العالمين.

سياق القصة في سورة سبأ:

نعود الآن إلى سورة سبأ، لنقف منها على دلالاتٍ وعبرٍ وعظات. ونبـدأ ذلك بالنظر في السياق الذي وردت فيه قصة سبأ.

لقد سبقها الحديث عن داود وابنه سليمان ـ عليهما السلام ـ باعتبارهما مِلكيْن عادليْن مؤمنيْن شاكريْن. ثم ذكر قصة سبأ نموذجاً للكفر والبغي والبطر.

قال الأستاذ الإمام سيد قطب عن السياق، وعن ربط القصة بما ورد عنها في سورة النمل: «وفي قصة آل داود تُعرض صفحة الإيمان باللّه والشكر على أفضاله، وحسن التصرف في نعائمه. والصفحة المقابلة هي صفحة سبأ.

وقـد مضى في سـورة النمـل مـا كـان بين مِلكتهم وبين سليمـان من قصص.

وهنـا يجيء نبـؤُهم بعد قصـة سليمان. ممـا يوحي بـأن الأحـداث التي تتضمنُها وقعت بعدما كان بينها وبين سليمان من خبر.

يرجِّح هذا الفرض أن القصة هنا تتحـدث عن بطر سبـأ بالنعمـة وزوالها عنهم وتفرقِهم بعد ذلـك، وتمزُّقِهم كل ممزق. وهم كـانوا على عهـد الملكة التي جـاء نبؤهـا في سـورة النمـل مـع سليمــان في مُلك عـظيم، وفي خيـر عميم، ذلـك إذ يقص الهـدهـد على سليمـان: «إِنِّي وَجَـدْتُ امْـرَأَةً تَمْلِكُهُمْ، وَأَوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْء، وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ. وَجَـدْتُهَا وَقَـوْمَها يَسْجِـدونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دونِ اللَّهِ». وقد أعقب ذلك إسلامُ الملكة مع سليمان لله رب العالمين.

فالقصة هنا تقع أحداثها بعد إسلام الملكة لله، وتحكي ما حلّ بهم بعد إعراضهم عن شكره وعلى ما كانوا فيه من نعيم»[1].

حديث صحيح عن سبأ:

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن سبأ ما هو؟؟ أرجل أم أرض؟ فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: بل هو رجل وَلَدَ عشرة، فسكن اليمن منهم ستة، وبالشام أربعة فأما اليمنيون: فَمُذْحِج وكندة والأزد والأشعريون وأنمار وحمير، وأما الشامية: فَلَخْمْ وَجُذَام وعاملة وغسان»[2].

قال ابن كثير في معنى الحديث: «ومعنى قوله ﷺ: ولد له عشرة من العرب: أي كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن، لا أنهم ولدوا من صلْبه. بل منهم من بيْنه وبينه الأَبوَان والثلاثة والأقل والأكثر.

ومعنى قوله: فتيامن منهم ستة وتشاءم أربعة: أي بعدما أرسل الله عليهم سيل العرم، منهم من أقام ببلادهم، ومنهم من نزح عنها إلى غيرها»[3].

سبأ آيــة:

قال الله: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَة﴾.

والآية هي العلامة الظاهرة، والدلالة الواضحة، والعبرة البالغة.

ووجْه كونهم آية، أن الله أنعم عليهم نعماً كثيرة غامرة، وطالبهم بعبادته

---

(١) الظلال ٥: ٢٩٠٠

(٢) رواه أحمد والطبراني والحاكم وقال عنه ابن كثير إن إسناده حسن. وقال أحمد شاكر في تحقيق أحاديث ابن عباس في مسند أحمد: إسناده صحيح.
انظر: مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر ٤: ٣٢٢ حديث رقم: ٢٩٠٠.

(٣) تفسير ابن كثير ٣: ٥٣٢.

وشكره، ولكنهم أبوا ذلك، وكفروا وطغوْا وبغوْا، فأوقع الله بهم عذابه، وحقت عليهم كلمته، وحلت بهم سنته، فزالت النعم عنهم.

وبذلك اعتُبروا نموذجاً عملياً واقعياً لكل من تمرد على أوامر الله، واستخدم نعم الله على غير وجهها.

إن القرآن يحذِّر الناس ـ وبخاصة الذين ينعم الله عليهم بالثراء والغنى ـ أن يسلكوا سبيل قوم سبأ، وأن يكونوا مثلهم، حتى لا يحل بهم ما حلّ بأولئك القوم.

لقد كان فيهم آية، لكن مَن هم الذين يستفيدون منها؟ ويعتبرون بها؟ إنهم المؤمنون أولو الألباب، أصحاب القلوب الحية، والنظراتِ النافذة.

أمَّا عبيد المال والهوى والشهوة فلا يَعتبرون ولا يتعِّظون، إنهم لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل. ولذلك ترى هؤلاء لا يلتفتون لآيات الله، فكم من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون!.

نعم الله على سبأ:

لم يفصِّل القرآن النعم الغامرة التي منحها الله لسبأ، وإنما عَرَضها بجملة موجزة: ﴿جنتان عن يمين وشمال﴾.

هي جملة واحدة، نَعَم، لكنها جملة معجزة مصوِّرة، تقدِّم للقارىء صورة فنية لتلك النعم، وتُلقي ظلَّ الكثرة فِيهَا، وهي بذلك تغني عن كل شرح وتفصيل.

إن النعم الربانية تمثلت في جنتيْن وارفتيْن، واحدة عن اليمين، والثانية عن الشمال: ﴿عن يمين وشمال﴾.

وهما رمز الخصْب والوفرة والرخاء والمتاع الجميل.

وماذا يريد الإنسان في الدنيا أكثر من أن يسير وسط جنات غنَّاءٍ، عن يمينه وعن شماله؟

واختيار كلمة جنة يوحي بما منحهم الله من غنى ونِعم ووفرة وثمار.

وهذا ناتج عن الماء الذي ألهمهم حسْن حبسه وتصريفه واستغلاله، فعندما تحكموا به أنشأوا من ذلك جنتين وارفتين.

جنة الكفار في الدنيا زائلة:

أطلق القرآن على نِعم الكفار في الدنيا، لفظ: جنة أو جنتين، أو جنات، وذلك أنهم يَعتبرون ما هم فيه من النعيم هو الجنة المطلوبة، ولا يؤمنون بوجود جنة تساوي جنتهم فضلاً عن أن تفضُلها.

والملاحظ أن القرآن كان يذكر زوال تلك النعم عن الكفار، وتدمير جنتهم، وإزالتها عن الأرض.

١ ــ فها هم قوم سبأ: أنعم الله عليهم بجنتين عن يمين وشمال، ولما كفروا وطغوا وأعرضوا، أبدلهم الله بهما جنتيْن ذواتي أُكلٍ خمط وأثل وشيء من سدر قليل.

٢ ــ وها هو صاحب الجنتيْن في سورة الكهف، إذ جعل الله له: ﴿جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ، وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ، وَجَعَلْنَا بَيْنَهُما زَرْعاً. كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها، وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً، وَفَجَّرْنَا خِلاَلَهُمَا نَهَراً﴾[1].

ثم ماذا حصل بعد كفره وبطره وغروره؟ ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِه، فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا، وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً﴾[2].

---

(١) سورة الكهف: آيتا ٣٢ ــ ٣٣.

(٢) سورة الكهف: آية ٤٢.

٣ ــ وها هم أصحاب الجنة في سورة القلم: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ، إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ. وَلَا يَسْتَثْنُونَ. فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ. فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾[1].

٤ ــ وها هم قوم فرعون، لما استجابوا لفرعون وحاربوا موسى عليه السلام، ولحقوا به، أغرقهم الله مع فرعون: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ. كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[2].

٥ ــ وها هو هود عليه السلام يحذر قومه من زوال الجنات عنهم﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ. أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ. وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[3]. فلما كفروا أهلكهم الله، وأزال جنّاتهم وعيونهم.

٦ ــ وها هو صالح عليه السلام، يقدِّم نفس التحذير لثمود: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ. فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ. وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[4].

٧ ــ ويحذر القرآن كلَّ مَنْ كفر وطغى واستخدم نعمة الله في الفساد، بزوالِ جنته واحتراقها: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ، وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ، فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ. كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[5].

كل جنات الكفار في الدنيا إلى تدمير وزوال. هذه هي سنَّة الله!.

---

(١) سورة القلم: آيات ١٧ ــ ٢٠.

(٢) سورة الشعراء: آيات ٥٧ ــ ٥٩.

(٣) سورة الشعراء: آيات ١٣٢ ــ ١٣٥.

(٤) سورة الشعراء: آيات ١٤٦ ــ ١٥٠.

(٥) سورة البقرة: آية ٢٦٦.

كلوا واشكروا:

قال تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ، وَاشْكُرُوا لَهُ﴾.

وهذا الأمر نتيجة لإنعام الله عليهم، وثمرة من ثمار الجنتين. فالأكل مقصود من إنشاء البساتين، وزرْع الأشجار والزروع.

وعندما ننظر في فِعْلَي الأمر: «كلوا، واشكروا» فإننا نلحظ بعض الإيحاءات والإشارات:

١ ــ الأمر بالأكل للإباحة وليس للوجوب.

٢ ــ من: للتبعيض: أي كلوا بعض رزق ربّكم، ولعل في هذا إشارة إلى التقليل من الطعام، وأكْل بعضه لا كلّه، فالمقصود من الأكل هو سد حاجات الجسم، والإنسان يأكل حتى يصل إلى الاكتفاء وليس الامتلاء.

٣ ــ إضافة الرزق إلى الرب لمعنى إيماني وتربوي. وهذه الإضافة للتخصيص، فالرزق هو من عند الله وحده، ولا يجوز نسبته لغير الله، إلّا من باب السببية، على اعتباره سبباً مادّياً له، أمّا المسبِّب الرازق فهو الله.

٤ ــ إختيار كلمة الرب في السياق مقصود، فالله هو المربّي، يربّي عباده وعبيده بالنعمة، فيمنحها لهم ليعبدوه ويشكروه.

٥ ــ عطف الأمر بالشكر على الأمر بالأكل، على اعتبار الشكر لله ثمرةً من ثمار أكل رزقه، ونتيجة لذلك الأكل، وشرطاً للانتفاع بالأكل، ودوام ذلك الرزق، بل: قل: إن شكر الله هو ثمن ذلك الأكل، إن الله يريد من الآكل أن يدفع ثمن ما يأكل، وهو شكره لله على نعمه.

٦ ــ إن شكر الله الرزاق المنعم دليل على الخير والبر والإيمان عند المؤمن، ودليل على السماحة والأريحية والبذل والكرم والعطاء. وإذا لم يشكر الإنسان ربّه المنعم على ما رزقه، فهذا دليل على بخله وكنوده وجحوده وضلاله.

٧ ــ وهناك إشارة أخرى من عطف الشكر على الأكل، وهي أن شكر الله المنعم سبب لاستمرار الرزق، والزيادة منه، والتمتع بالأكل منه ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ، وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[1].

وعدم شكر الله سبب لزوال النعمة، وقطعِ الأرزاق، والحرمانِ من الأكل، كما حصل مع قوم سبأ.

ومعلوم أن شكر الله لا يكون باللسان فقط، بل هو بالكيان كله، باللسان والعقل والقلب والخيال والجوارح. ثم هو شكر عملي يتجلّى في استخدام تلك النعم في طاعة الله ونفع عباده.

٨ ــ أمّا تعدية الشكر باللام في قوله: «واشكروا له» ولم يقل «واشكروه» فلأنّ اللام هي لام «التقوية» من حيث اللغة، لأنها قوّتْ وصول الفعل للمفعول به، والضميرُ بعدها، مجرور لفظاً منصوب محلاًّ.

وهذه اللام يمكن أن تُسمّى «لام الإخلاص» أي أن الشكر لا يكون إلاّ لله، والشاكر مخلص لله بشكره.

وكذلك يمكن أن تُسمّى هذه اللام «لام الاستعانة» لأن الشاكر يشكر الله من خلال رزقه ونعمه عليه، فيستخدم ذلك الرزق في طاعة الله، ويستعين به على عبادته.

وغالب أفعال الشكر في القرآن تتعدى باللام: لام التقوية والاستعانة والإخلاص. ــ والله أعلم ــ .

فأعرضوا فأرسلنا:

أمر الله قوم سبأ بالأكل من رزقه، كما أمرهم بشكره، وأشار إلى أن بلدتهم طيّبة، وأنّه غفور: «بلدة طيبة وربّ غفور».

---

(١) سورة إبراهيم: آية ٧ .

وأصل الطيِّب ــ كما يقول الإمام الراغب ــ هو:
«ما تستلذّه الحواس، وما تستلذّهُ النفس.

والطعام الطيب في الشرع: «ماكان متناوَلاً من حيث ما يَجوز، وبقدر ما يجوز، ومن المكان الذي يجوز، فإنّه متى كان كذلك كان طيّباً عاجلاً وآجلاً لا يُسْتَوْخَمْ، وإلاّ فإنّه وإن كان طيباً عاجلاً لم يَطب آجلاً»[1].

لكن ماذا فعل قوم سبأ؟ وكيف تصرّفُوا بنعم الله؟

لقد أعرضوا . أي كفروا بالله، ورفضوا عبادته وشكره، وتولّوا عن طاعته، وآثروا الهوى والشهوات، واتبعوا الشياطين، واستخدموا نعم الله في معصيته.

وبذلك حقت عليهم سنّة الله، فما من أمّة تكفر بالله، وتستخدم نعمه في الكفر والفساد، إلاّ ويحل بها عذاب الله، فيسلبها النعم، ويوقع بها الهلاك.

وجاءهم عذاب الله سريعاً، كما توحي بذلك «الفاء» «فأرسلنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ العَرِمْ» والفاء هي للترتيب مع التعقيب الفوري.

إن في هذه الجملة «فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم» لسنةً ربانيّة دائمة، لا تختلف ولا تتبدل، تحكم البشرية كلّها أينما كانت:

إن الإعراض عن شرع الله ودينه، يعقبه عذاب الله وانتقامه، وإن هذا الإعراض هو طريق للهلاك والدمار.

وآيات كثيرة تقرر هذه السنّة الربّانيّة، أكتفي منها بهذه الآية: «ضَرَبَ اللَّهَ مَثلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلّ مَكَانْ، فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ الله، فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالخَوْفِ، بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونْ»[2].

---

(١) المفردات: ٣٠٨ .

(٢) سورة النحل: آية ١١٢ .

هلاك سبأ بما كان نعمة عليهم: سيل العرم:

أهلك الله سبأ بالماء: «فأرسلنا عليهم سيل العرم».

وسيل العرم: هو سدّ «مأرب» الذي كان يحجز الماء عنهم، فنقضه الله، وأرسل الماء من وراءه سيلاً جارفاً عارماً، عم جنّاتهم فأتى عليها وأهلكها.

قال الراغب في معنى العرم: «العرامة: شراسة وصعوبة في الخُلُق، وتظهر في الفعل.

يقال: عَرَم فلان فهو عارم، وعَرِم تخلق بذلك.

وقوله «سيل العرم» أراد سَيْلَ الأمر العرم»[1].

ويلحظ المؤمن البصير طرفاً من آيات الله في إهلاكهم، حيث أهلكم بالماء وبالسد وبالسيل. لقد أنعم الله عليهم بالماء، وجعله وسيلة للرفاه والخصب والتقدم والرقيّ عندهم، وأرشدهم إلى حسن استغلاله والتصرف فيه، وطالبهم مقابل ذلك بشكره.

فلما أعرضوا حوّل نعمته عليهم إلى نقمة، وخيْره إلى عذاب، إن الأمر بقي لم يتغير، لكن أثـرَه فيهم هو الذي تغيّر، لأن الله أراد أن يحوّله إلى الطرف الآخر، جزاء بغيهم وكفرهم.

الماء كان نعمة، أنشأوا به الجنّات، وحجزوه خلف السد، وعاشوا به سعداء.

والماء نفسه جعله الله نعمة وعذاباً، فأرسل عليهم سيلاً عرماً من خلف السد، وكان بهذا الماء تدمير جنّاتهم، وهلاك مزروعاتهم.

---

(١) المفردات: ٣٣٢.

وهذا من آيات الله، بالماء تنشأ لهم الجنّات، ثم بالماء نفسه، تدمّر تلك الجنّات، بالماء عاشوا أغنياء وسعداء، وبالماء نفسه ذلّوا وافتقروا.

لعل هذا درس للأمم، التي منحها الله النعم، أن تعبد الله وتشكره، لتُبْقي على تلك النعم نعماً، وإلا فإن النعم نفسها تتغير إلى نِقَمْ.

وكم من الناس مَنْ تتحول نعمته بكفره وفساده إلى نقمة وعذاب! وكم من أمّة شقيتْ بما كان المأمول به سعادتها! وصدق الله «فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ، إِنَّمَا يُرِيْدُ الله لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الحَيَاة الدُّنْيَا، وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونْ»[1].

البديل المرّ:

بعدما أرسل الله عليهم سيل العرم، وأهلك جنّتَيْهم، أشار القرآن إلى البديل المرّ الذي كَانَ لَهُمْ: «وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيل».

الجنّتان بقيتا جنّتين من حيث الظاهر لا من حيث الحقيقة، إذ ذهبت أشجارهما وثمارهما، وأنبت الله مكان تلك الأشجار أشجاراً صحراوية مرّة شائكة، ضعيفة عاجزة ذاوية. منها أشجار كلّها شوك، وثمرها أُكُلُهُ خَمْط: أي مُرّشائِه كريه.

قال الراغب في معنى خمط: «تخمّطَ: إذا غضب، يقال: تَخَمّطَ الفحل: هَدَرَ»[2].

وهذا معنى لطيف، أي: كأنَّ هذا الشجر البديل الجديد، غضب على

---

(١) سورة التوبة: آية ٥٥.

(٢) المفردات: ١٥٩.

قوم سبأ لكفرهم وبغيهم ، فأخرج لهم أكلاً نحساً خمطاً مرّاً شائهاً. أي كأن الأشجار تغضب من الكفار، وتسخط عليهم، وتقدّم لهم ما يليق بهم.

ومنها أشجارُ أَثْل: وهو شجر صحراوي اسمه الطّرفاء، سريع الاشتعال، تشتعل به النار ولو كان أخضر طريّاً.

وقال الراغب في معناها: «أثل: شجر ثابت الأصل، وشجر متأثّل ثابت لثبوته»[1].

ومنها أشجار السِّدْر: وثمرها قليل لا غناء له، صغير لا يكاد يكفي، وهو المسمّى بشجر «النَّبَق».

وقال الراغب في معناها: «السِّدْر: شجر قليل الغناء عند الأكل»[2].

هذا هو البديل الذي أخذوه، وشتان بين ما كانوا فيه من رغد ونعيم، وبين ما صاروا إليه من بؤس وعذاب وفقر.

قال الإمام ابن كثير: «فهذا الذي صار أمر تينك الجنّتين إليه، بعد الثمار النضيجة، والمناظر الحسنة، والظلال العميقة، والأنهار الجارية، تبدلّت إلى شجر الأراك والطَّرفاء، والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل»[3].

وقال الأستاذ الإمام سيد قطب: «أعرضوا عن شكر الله، وعن العمل الصالح، والتصرّف الحميد، فيما أنعم الله عليهم، فسلبهم سبب هذا الرخاء الجميل الذي يعيشون فيه، وأرسل السيل الجارف الذي يحمل العرم في طريقه وهي الحجارة لشدّة تدفقه، فحطم السد وانساحت المياه فطغت

---

(١) المفردات: ١٠ .

(٢) المرجع السابق: ٢٢٧ .

(٣) تفسير ابن كثير ٣: ٥٣٣ .

وأغرقت، ثم لم يعد الماء يخزن بعد ذلك، فجفت واحترقت، وتبدلّت تلك الجنان الفيحُ صحراء، تتناثر فيها الأشجار البرية الخشنة»[١].

جزاؤهم ببغيهم وكفرهم:

وَعَلى أنقاض سد مأرب، وعلى آثار التدمير والهلاك، وقف القرآن يعقّب ويبيّن الحكمة مما جرى لسبأ: «ذلكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا».

جزيناهم من الجزاء. وقال الراغب عنه: «الجزاء: الغِناء والكِفاية. والجزاء ما فيه الكفاية. من المقابلة. إنْ خيْراً فخيْر. وإن شراً فشر. يقال: جزيته كذا، وجزيته بكذا.

قال تعالى: «وَأَمَّا مَنْ آمنَ وَعَمِلَ صَالِحَاً فَلَهُ جَزَاءً الحُسْنَى»[٢].

وقال: «وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا»[٣].

ويقال: جزيته بكذا، وجازيته بكذا.

ولم يجيء في القرآن إلاّ جَزَى دون جازى. وذلك أن المُجَازَاةَ هي المكافأة، وهي المقابلة من كل واحد من الرجُلين، والمكافأة هي مقابلة نعمة بمثلها، هي كفؤها.

ونعمةُ الله ليست من ذلك، ولهذا لا يُستعمل لفظ المكافأة في الله»[٤].

والجزاء هنا معناه العقاب، أي عاقبناهم ببغيهم.

---

(١) الظلال ٥: ٢٩٠١.

(٢) سورة الكهف: آية ٨٨.

(٣) سورة الشورى: آية ٤٠.

(٤) المفردات: ٩٣.

والباء في قوله «بما كفروا» هي باء السببيّة. أي عاقبناهم وعذّبناهم بسبب بغيهم وكفرهم، ومعلوم أن ما بعد باء السببية سبب في حصول ما قبلها، أو أن ما بعدها طريق وسبيل لوقوع ما قبلها.

قال تعالى عن الكفّار في النار: «لِلْطّاغِينَ مآباً. لَابِثِيْنَ فِيْهَا أَحْقَابَاً. لَا يَذُقُونَ فِيهَا بَرْدَاً وَلَا شَرَابَاً. إِلّا حَمِيمَاً وَغَسّاقَاً، جَزَاءً وِفاقا. إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابَاً. وَكَذَّبُوا بِآياتِنَا كِذّابًا»(١).

إن القرآن يعلل ما وقع لقوم سبأ، ويبين الحكمة منه، وهو حريص على بيان العدل في أفعال الله، وإظهاره أمام الناس، حتى لا يوسوس لهم الشيطان بشبهة ظلم من الله لعباده سبحانه.

ولذلك يبيّن أنّ الله عاقبهم بسبب بغيهم، وأوقع بهم نتيجة كفرهم. والجزاء من جنس العمل، وعلى الباغي تدور الدوائر.

وباءُ السببيّة «جزيناهم ببغيهم» تشير إلى سنّة ربّانيّة قاطعة، وهي أنّ كل مَنْ فعل ما بعدها من خير أو شر، فإن الله يعطيه أو يوقع به ما قبلها من ثواب أو عقاب، وذلك لأن الجزاء من جنس العمل.

وهل نجازي إلّا الكَفور:

تساءل القرآن أثناء تعقيبه على ما جرى لسبأ بقوله: وهل نُجازي إلّا الكَفور.

والاستفهام هنا تقريري، حيث يقرر أنّ الله لا يجازي إلّا الكفور.

ومعنى المجازاة هنا المعاقبة والتعذيب، لأن عقاب الله وعذابه لا يحل إلّا بالكافر الكَفور. أمّا الشاكر المطيع فهو في منجاة عن العقاب.

---

(١) سورة النبأ: آيات ٢٢ ــ ٢٨ .

قال الإمام الراغب في التفريق بين الكفر والكفران والكَفور:
«الكفر في الحقيقة ستر الشيء.
وكفر النعمة وكفرانها: سَتْرُهَا بترك أداء شكرها.

وأعظم الكفر جحود الوحدانية أو الشريعة أو النبوّة.

والكُفران: في جحود النعمة أكثر استعمالاً.

والكُفر: في الدين كثير.

والكُفور: فيهما جميعاً»[١].

هذا من حيث المصدر.

أما من حيث الصيغ المنبثقة منه. فقد فرّق الراغب بين تلك الصيغ في ورودها في القرآن. قال:

«الكافر: على الإطلاق: متعارَف فيمن يجحد الوحدانية أو النبوّة أو الشريعة أو ثلاثتها.

والكَفور هو المبالغ في كفران النعمة.

وفي قوله: ﴿ذلك جزيناهم بما كفروا، وهل نجازي إلاّ الكَفور؟﴾.

إن قيل: كيف وصَف الإنسانَ ههنا بالكَفور، ولم يرضَ بذلك حتى أدخل عليه الألف واللام للتأكيد.

الجواب: إن هذا تنبيه على ما ينطوي عليه الإنسان من كفران النعمة، وقلّةِ ما يقوم بأداء الشكر. وعلى هذا قوله: ﴿قُتِلَ الإنْسانُ مَا أَكْفَرَه﴾[٢].

---

(١) المفردات: ٤٣٣ ــ ٤٣٤ باختصار.

(٢) سورة عبس: آية ١٧ .

ولذلك قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُور﴾.

والكَفَّار: أبلـغ من الكَفور)[1].

ونلاحظ ذكْر القرآنِ للَّفظين المتقابلين في سورة سبأ: الشكور والكفور.

حيث ذكَر الشَّكور في وصْف نبـي الله داود عليه السلام وآلـه، والشَّكور صيغة مبالغة من الشاكر.

وذكَـر الكَفـور في التعقيب على إهـلاك جنـات سبـأ، حيث وصف بهـا الإنسان السَّبَئِيّ. وهي صيغة مبالغة من الكافر.

كما نلاحظ أنه ختم التعقيب على قصة سبأ، بأن بيَّن الذين يتعظون مما جرى لهم، وذلك في قوله: ﴿إِنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُـور﴾. وسوف نرجىء الكلام عنها إلى حين.

سبأ لا يعتبرون:

أرسـل الله على سبأ السَّيـل، ودمَّـر جنـاتهم لعلهم يعتبـرون ويتّعِـظون، ويـرجعـون إلى الله، ولكنهم طُمس على عيـونهم، وخُتِم على قلوبهم، فلم يتَّعِظُوا ولـم يعتبروا: قال تعالى عن مـا جرى لهم بعـد تدميـر السد: ﴿وَجَعَلْنَـا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرىً ظَاهِرَة. وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْر. سِيروا فِيهَـا لَيَالِيَ وَأَيّاماً آمنين.

فَقَالُـوا: رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا. وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ..

فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيث، وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّق...﴾.

قال الإمام الأستاذ سيد قطب في تفسير هذه الآيات، وبيان ما جرى لهم بعد تدمير السد:

---

(١) المفردات: ٤٣٤ باختصار.

«وكانوا إلى هذا الوقت، ما يزالون في قراهم وبيوتهم. ضيَّق الله عليهم في الرزق، وبدَّلهم من الرفاهية والنعماء، خشونةً وشدّة، ولكنه لم يمزّقْهم ولم يفرّقْهم.

وكان العمران ما يزال متصلاً بينَهم وبين القرى المباركة: مكة في الجزيرة، وبيت المقدس في الشام. فقد كانت اليمن ما تزال عامرة في شمال بلاد سبأ، ومتصلة بالقرى المباركة، والطريق بينهما عامر مطروق مسْلوك مأمون:

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى التي باركْنا فيها قرى ظاهرة، وَقَدَّرْنَا فِيها السَّيْر. سِيروا فيها لَيَالِيَ وأيّاماً آمنين﴾.

وقيل: كان المسافر يخرج من قرية، فيدخل في الأخرى قبل دخول الظلام. فكان السَّفَر فيها محدود المسافات، مأموناً على المسافرين. كما كانت الراحة موفورةً، لتقارب المنازل، وتقارب المحطات في الطريق.

وَغَلَبَتْ الشقوةُ على سبأ، فلم ينفعهم النذير الأول، ولم يوجههم إلى التضرع إلى الله، لعله يرُدُّ عليهم ما ذهب من الرخاء. بل دَعَوْا دَعْوةَ الْحُمق والجهل:

﴿فقَالُوا: رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾.

تطلبوا الأسفارَ البعيدة المدى، التي لا تقع إلّا مَرّات متباعدة على مدار العام. لا تلك السفرات القصيرة المتداخلة المنازل، التي لا تُشبع لذّةَ الرحلات! وكان هذا من بطر القلب وظلم النفس:

﴿وَظَلَمُوا أَنْفُسهمْ﴾.

واستيجبت دعوتُهم. ولكن كما ينبغي أن تُستجاب دعوةُ البَطِر:
﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ، وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّق﴾.

شُـرِّدُوا وَمُزِّقُـوا. وتفرّقـوا في أنحاء الجـزيـرة مبـدَّدي الشمـل، وعـادوا أحـاديث يرويهـا الرواة. وقصـةً على الألسن والأفواه. بعـد أن كانـوا أمة ذات وجود في الحياة:

﴿إِنَّ في ذَلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُور﴾.

يَذكر الصبر إلى جوار الشكر. الصبر في البـأساء، والشكر في النعماء. وفي قصة سبأ آيات لهؤلاء وهؤلاء.

هذا فهْم في الآية..

وهناك فهْم آخر: فقد يكون المقصود بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهم وَبَيْنَ الْقُرَى التي بَارَكْنا فيها قرى ظاهرة﴾. أي: قرىً غالبة ذاتُ سلطان. بينما تحـوَّل سبأ إلى قـوم فقراء، حيـاتهم صحراويـة جافـة، وكثرت أسفـارهم وانتقالاتهم وراء المراعي ومواضع الماء. فلم يصبروا على الابتلاء، وقـالوا: ﴿ربنـا باعـد بين أسفارنا﴾. أيْ: قلِّل من أسفارنا فقد تعبنا. ولم يَصحبـوا هذا الـدعاء بـاستجابـة وإنـابة لله تستحق استجـابته لـدعائهم، وكـانوا قـد بطروا النعمـة، ولم يصبروا للمحنة، ففعل الله بهم ما فعل، ومزقهم كل ممزق، فأصبحـوا أثراً بعـد عين، وحـديثاً يُـروى، وقصّة تُحكى. ويكـون التعقيب: ﴿إِنَّ في ذلك لَآيـاتٍ لكـلِّ صَبّار شَكور﴾، مناسباً لقلّة شكرهم على النعمة، وقلةِ صبرهم على المحنة.

وهو وجْه رأيتُه في الآية. والله أعلم بمراده)[1].

ومـع أن الوجـه الأول الذي ذكـره سيد قـطب أوجه وأولى وأقـرب وعليه جمهور المفسرين.. إلاّ أنّ الوجه الثاني ليس بعيداً.

---

(١) الظلال ٥: ٢٩٠١ ـ ٢٩٠٢.

سبأ أصبحوا أحاديث:

أزال الله عن سبأ نعَمه، وأحلَّ بهم بأسه، بسبب ظلمهم وبغيهم وكفرهم.

وبذلك مزَّقهم الله كل ممزّق، وتحولوا إلى أحاديث: «فقالوا ربنا باعِدْ بين أسفارنا. وظلموا أنفسهم. فجعلناهم أحاديث، ومزَّقْناهم كل ممزَّق».

والأحاديث جمع حديث، والحديث هو: «كل كلام يبلغ الإنسانَ من جهة السمع أو الوحي، في يقظته أو منامه»[1].

ومعنى كونهم أحاديث ـ كما قال الإمام الراغب ـ أنهم أصبحوا: «أخباراً يُتمَثَّل بهم»[1].

والمفارقة واضحة بين الحالتين:

فرق بعيد بين الحالة الأولى التي كانوا فيها، يعمرون الأرض، ويتنعمون بخيراتها، ويعيشون حياة مرفَّهة، يتناقل الآخرون أخبارهم، ويروون ما هم فيه من رغد ومال وسلطان، ومنزلة ورخاء ونعيم، ويشيدون بهم وبحياتهم.

وبين الحالة الجديدة التي صاروا إليها، في فقر وضنك وعوز وحاجة، ضعافاً متفرقين متمزقين مشتتين.

صار الآخرون يقارنون بين الحالتين، ويقفون على المفارقات بينهما.

وبذلك تحولت سبأ من قوم كانوا ملء السمع والبصر، إلى قوم زالوا وبادوا، وأصبحوا مضرب الأمثال، وأخبار السابقين، وأحاديث المجالس، وموضوعات السمر.

---

(١) المفردات: ١١٠.

وصاغ العرب أمثالاً سائرة، منها المثل المشهور «تَفَرَّقوا أَيْدي سَبَأ» الذي أخذوه من الحالة التي صارت إليها سبأ، وصاروا يضربون هذا المثل لكل أمة أو قبيلة تتبدل حالتها من غنىً إلى فقر، ومن عزٍ إلى ذُلٍ، ومن سلطان إلى ضعف، ومن اتفاقٍ وانسجامٍ إلى فرقةٍ وتمزّق.

لكن هل هذه لسبأ خاصة؟ أم هي سنَّة عامة لكل الأمم والأقوام؟.

إنها سنة عامة لكل قوم أينما كانوا، وحيثما وُجدوا. ما من قوم أو أمة أو قبيلة، يبدِّلون نعمة الله كفراً، ويعيشون حياتهم في ظلم وبغي وإفساد وفسوق وانحلال، إلاَّ ويسلبهم الله تلك النعم، ويوقع بهم العذاب والهوان، ويزولون من موقع التأثير والإنتاج، وينتقلون إلى زاوية الإهمال والنسيان، ويتحولون إلى مجرد أحاديث للمجالس، وأخبار للرواة.

هذا ما يقرره القرآن، حيث يقول: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا. كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوه. فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً، وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ، فَبُعْداً لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُون﴾[1].

والتاريخ البشري كله مظهر لصدق هذه الحقيقة القرآنية، حيث سجَّل ما كانت فيه الأمم متمتعةً بنعم الله، وما صارت إليه بعد كُفْرِهَا بنعم الله، وتحوُّلِهَا إلى أحاديث.

أين سبأ؟ وأين عاد وثمود؟ وأين فرعون وهامان وقارون؟ أين الفينيقيون والبابليون والآشوريون والفُرس والهنود؟ أين اليونان والرومان؟ أين المغول والصليبيون؟ أين ألمانيا؟ وبريطانيا العُظمى؟ وأين وأين؟.

جعلهم الله أحاديث، ومزَّقهم كل ممزق، فبعداً لقوم لا يؤمنون!.

---

(١) سورة المؤمنون: آية ٤٤.

في سبأ آيات:

يقرر القرآن أن في قصة سبأ آيات، ذوات دلالات، وعبراً بالغات.

في بداية كلام القرآن عن سبأ قال: «لقد كان لسبأ في مسكنهم آية».

ولما انتهى من ذكر القصة، قال: «إن في ذلك لآيات».

والذي يستوقفنا في السياق هو التعبير بالمفرد أولاً ثم بالجمع بعد ذلك: آية وآيات.

ولعل الحكمة من ذلك لها جانبان:

الجانب الأول: تناسبُها مع الموضوع الذي تتحدث عنه، فقوم سبأ عندما عاشوا نعم الله، كانوا سعداء منعَّمين، وكانوا مجتمعين متفقين كأنهم رجل واحد. ولذلك ناسب أن يعبِّر عنهم بالمفرد «لقد كان لسبأ في مسكنهم آية».

ثم الآية تناسب المسكن، فالمسكن مفرد، والآية مفردة.

أمّا بعد تدمير السد، وتمزيقهم كل ممزَّق، وتشتيتِهم في البلاد، فقد تحوّلت الأُمة إلى أمم، والقبيلة إلى قبائل، والمسكن إلى مساكن. ولهذا التقسيم والتفريق ناسب أن يُعبِّر بالجمع، فجعل الآية الواحدة المنطبقة على القوم المجتمعين، آياتٍ عديدة، لتصيب كلُّ واحدة منها كلَّ تجمُّع لهم، وكلَّ مسكن وكل قبيلة. ــ واللَّه أعلم ــ.

الجانب الثاني: أن الآيات تشمل الآية: ففي سبأ آية في تمكين الله للناس، وآية في توفيره الرغد والرخاء للناس، وآية في ظلم الناس وكفرهم وبغيهم، واستخدامهم نِعم ربهم في غير ما يريد الله، وآية في غفلة أناس، وعدم اتعاظهم واعتبارهم مما يجري لهم، وآية في اعتبار أن ما يصيب الناس إنما هو بسبب كسبهم وفعلهم، وآية في نفاذ السنن الربانية وانطباقِها على

الناس في كل زمان ومكان، وآية في ترتب النتائج على المقدمات، وآية في انتقام الله من الظالمين، وتعذيبِهِ للكافرين، وأخْذه للمستكبرين المتجبرين، وآية في أن ما يحصل للأمة من رخاء ورغد ورزق إنما هو بفضل الله وكرمه، وأن مايصيبهم من فقر وجوع وحرمان إنما هو بما كسبته أيديهم ، وآية في حسن التعليل والتفسير التاريخي لأسباب نشوء الأمم والأقوام والدول، وأسباب اندثارها وزوالها. وآية في غير ذلك.

ولذلك كان في سبأ آيات. آيات يقف أمامها الناس، ويأخذون منها دلالات، وعبراً وعظات.

الآيات لكل صبار شكور:

في قصة سبأ آيات!

لكن هل كلُّ الناس يدرك تلك الآيات ، ويحسن التعامل معها، والفهم عنها، وأخْذ ما توحي به من المعاني والعبر والدروس؟

صحيح أن الآيات موجَّهةٌ للجميع، وأنها صفحةٌ مفتوحةٌ أمام الجميع، وأنها دعوة خاصة لكل إنسان ليقف أمامها ويعيها.

لكن لا يفهم عنها الغافلون، ولا الكافرون والظالمون، ولا المخدوعون، المعْرضون، الذين قال الله عنهم: ﴿وَكَمْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضون﴾(١).

يقرر القرآن أنه لا يستفيد من الآيات إلَّا كل صبّار شكور، ولا يفهم عليها ولا يتلقى منها إلَّا كل صبّار شكور: ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبّار شكور﴾.

الصَّبَار: صيغة مبالغة من الصبر، إن صاحبها ليس صابراً فقط ولكنه

(١) سورة يوسف: آية ١٠٥ .

«صبَّار» والصَّبَار هو كثيرُ الصبر، الدائم الصبر، المُستمرُّ على الصبر ، المبالغُ في الصبر.

والشَّكـور، صيغـة مبـالغـة من الشكـر، فهـو ليس شـاكـراً فقط، ولكنـه شكور. أيْ كثيرُ الشكر، دائم الشكر مبالـغٌ في الشكر، مستمرٌ في الشكر.

لمـاذا لا يستفيد من الآيـات إلاَّ الصَّبّار الشكـور؟ لمـاذا الصبـر والشكـر ضروريان لفهم الآيات والاعتبارِ بها؟.

لأن الصبـر يعني الابتلاء والامتحـان، يعني إدراك الصَّبـار أن الله يبتليـه ويمتحنه في حياته، فـي كل ما ينعم عليه فيها، وما يمنحه فيها. وإدراكُـه لهذا يعني استخدامُه هذه النعم والمنح في طاعة الله، وتحقيق محبته ورضوانه.

لا بـد من الصبر في التعـامل مـع نعم الله، وقطْع مسيـرة هـذه الحيـاة. الصبر بكل مظاهره وألوانه وصوره ومجالاته. الصبر على النعمـة، والصبرُ على الغنى، والصبـرُ على القوة والسلطان، والصبـر على الرخـاء والرفـاه، والصبـر على المال والثراء، والصبر على الابتلاء والتنبيه، والصبر على المحنة والفتنة، والصبر على الضرّاء والمصيبة، والصبر على الزجر والتأديب.

فمَنْ تعامل مع كل ذلك بصبْر كان صبَّاراً، ونجح في الابتلاء والامتحان. وشكَرَ الله على نعمه، واستخدمها فيما يرضيه.

والصبـر يقوده للشكـر، وكلُّ صبّـار شكـور، وإذا شكـر الله أدام عـليـه نعمته، وزاده منها، ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[١].

هذا، وقد قـرن القرآن بين الصَّبـار والشَّكور، فلم يـذكر الصبّـار إلاّ ذكر بجانبه الشكـور، بحيث تكونـان صفتيْن متلازمتيْن: الصبـر والشكر، وتكـونان متلازمتيْن لصاحبهما، وتكونان صيغتيْ مبالغة من الصبر والشكر.

---

(١) سورة إبراهيم: آية ٧.

كلمة «صبّار» ذُكرت في القرآن أربع مرّات. وهي في المرات الأربعة مقترنة بالشكور:

١ ــ أمر الله موسى عليه السلام أن يذكِّر قومه بأيام الله، وقال له:
﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيّامِ الله. إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُور﴾[1].

٢ ــ وَعَرَّفنا الله على بعض آياته علينا:
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنعْمَةِ اللَّهِ، لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُور﴾[2].

٣ ــ وها هي سبأ:
﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحاديث، وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّق. إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُور﴾[3].

٤ ــ وفي سورة الشورى يقرر أن السفن تجري في البحر بنعمة الله، وفي ذلك آيات لكل صبار شكور:
﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَام، إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُور﴾[4].

الصَّبَّار الشَّكُور هو الواعي العاقل الذكي في هذه الحياة، لأنه يُحسن التعامل مع الحياة، والفهم عنها، ويتعامل مع ما يقدمه الله له بصبر وشكر. وكل حاسّة من حواسّه تكون عوناً له على الصبر والشكر، وكل جزئية من كيانه، وجانب من جوانب شخصيته تساعده على أن يكون صبّاراً شَكُوراً.

(١) سورة إبراهيم: آية ٥ .
(٢) سورة لقمان: آية ٣١ .
(٣) سورة سبأ: آية ١٩ .
(٤) سورة الشورى: آيتا ٣٢ ــ ٣٣ .

وهؤلاء الصبّارون الشكورون قليلون في هـذه الحياة، لأن معـظم الناس غـافلون مخـدوعـون. ولهـذا ورد في سـورة سبـأ قـولُ الله: ﴿إِعْمَلُوا آلَ داودَ شُكْراً، وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُور﴾[1].

إنه لا يشكر إلّا صبّار، ولا يصبر إلّا الشّكـور، وقليل من عبـادي الصَّبَّارُ الشَّكُور.

سبأ: نجح إبليس في إغوائهم:

عقَّب القـرآن على قصّة سبـأ، ومن جملة ذلك التعقيب قـولـه: ﴿وَلَقَـدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ. فَاتَّبَعُوهُ، إِلّا فَـرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِين. وَمَـا كَانَ لَـهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ. إِلّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُـؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُـوَ مِنْهَا فِي شَـكّ. وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظ﴾.

ومعنى قـولـه: صـدّق عليهم إبليسُ ظَنَّـه: حقَّق فيهم هـدفـه وغـايتـه ورسالته، ونجح في إغوائهم وإضلالهم وإبعادهم عن الصراط المستقيم.

رسالةُ إبليس التي وقف حياته لها، وغايتُه من هذه الحياة، هي ما صرّح به يخاطب الله بتبجُّح: ﴿قَالَ فَبِمَـا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُـدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَـكَ الْمُسْتَقِيم. ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْديهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَـائِلِهِمْ، وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِين﴾[2].

فقـال الله لـه: ﴿إِذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَـكَ مِنْهُمْ، فَـإِنَّ جَهَنَّمَ جَـزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَـوْفُـوراً. وَاسْتَفْـزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَـوْتِـكَ، وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ، وَشَـارِكْهُمْ فِي الْأَمْـوَالِ وَالْأَوْلَادِ، وَعِـدْهُمْ، وَمَـا يَعِـدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلّا غُرُورا. إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَان. وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكيلا﴾[3].

---

(١) سورة سبأ: آية ١٣.
(٢) سورة الأعراف: آيتا ١٦ ــ ١٧.
(٣) سورة الإسراء: آيات ٦٣ ــ ٦٥.

وحذَّرَنا الله من الشيطان، وبيَّن عداوتَه لنا، وطَالَبَنا بأن نتخذه عدوا، حتى لا ينجح في إغوائِنا، ولا يصدِّق علينا ظنَّه، ولا يُحقِّق فينا غايتَه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌ، فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً. إِنَّما يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[1].

كم هم خاسرون أولئك الذين يستسلمون للشيطان، ويسْلمون قيادَهُمْ له، وينفّذون وساوسه ونزغاته، إنهم خاسرون هالكون معذَّبون في الدنيا والآخرة.

ها هم أهل سبأ، وها هي نتائج استسلامهم للشيطان. وما من أمة يستسلمون للشيطان إلّا يجْنون من ذلك ما جناه أهل سبأ. وما من إنسان يستسلم للشيطان إلّا ويقع به ما وقع على كل شخص من أهل سبأ.

إن الذين ينقادون للشيطان سذّج أغبياء. فلولاهم لما حقَّق غايته، ولولاهم لما صدَّق ظنّه.

وللأسف الشديد، فإننا نرى كثيراً من الناس، في كل فترة من فترات التاريخ، ممن يَقْبلُون أن يمارس فيهم إبليس مهمته، وينجح في تحقيق غايته، ويسيرون معه، ويتبعون خطواته. ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾.

لكن: هل هم مُكْرَهون على الاستجابة للشيطان؟ مضطرون لاتباع خطواته؟ هل له عليهم سلطان قاهر؟

كلا. ﴿وما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَان﴾.

لذلك، فهم المسؤولون عن اتِّباعه، والمحاسَبون على الاستجابة له، لأنهم اتَّبعوه مختارين، واستجابوا له راضين، وفتحوا له قلوبهم وحواسّهم.

---

(١) سورة فاطر: آية ٦.

والشيطان الذي يُغري أتباعَه السذّج الأغبياء بالوعود والأماني، يتخلى عنهم وقْت حاجتهم له، ويتركهم يواجهون سنّة الله في الكافرين المخالفين وحدهم، ويذوقون بأس الله وعذابه وحدهم، وينصرف عنهم ماكراً ساخراً.

في الدنيا يقول لهم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ، وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ، فَلَمَّا تَرَاءَتْ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ، وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ، إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ. إِنِّي أَخَافُ اللهَ﴾(1).

وفي الآخرة، يقف بينهم خطيباً وسْط جهنم، يوبِّخهم ويلومُهُم ويسخر منهم ويتهكّم عليهم ويتبرّأ منهم. يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ. وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي، فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ، مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ. إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾(1).

حقاً إن إبليس إبليس، وإن الشيطان شيطان!

استجابت سبأ للشيطان، وصدّق عليها ظنه، فحقّت عليها كلمة الله، وانطبقت عليها سنّتُهُ، ووقع بها ما وقع بكل أمة تكفر وتظلم وتفسق وتفسد، فمزقها الله كل ممزق، وجعلها أحاديث، فبُعداً لها كما بعِدت أمم قبلها من الكافرين الباغين: قوم عاد وثمود ومدين وغيرهم..

وهذه نتيجة تنتظر كل من استجاب للشيطان.

وتبقى قصة سبأ من سورة سبأ، تقدِّم الكثير من الآيات والدروس والدلالات والعِبَر والعِظات. لكن لا يعيها إلّا الصابرون الشاكرون:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

---

(1) سورة الأنفال: آية ٤٨.

(٢) سورة إبراهيم: آية ٢٢.

٧

قِصَّة أَصْحَاب القَرْيَةِ

قِصَّة أَصْحَاب القَرْيَةِ

القصة في سياقها القرآني :

قـال تعالـى : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾
إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾
قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾
قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾
قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿١٨﴾

قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾
وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾
ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى
شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ
بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾

قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ

قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾

۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾

إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾[1].

إسرائيليات حول القصة :

نَسَجَت الإِسرائيلياتُ رواياتٍ مطوَّلة متعارضة حول قصة أصحاب القرية. وقد أقبل عليها رواةُ الأخبار والأساطير، وأوردها مؤرخون ومفسرون في كتبهم.

وسوف نشير إلى خلاصة هذه الروايات والإسرائيليات، لنحذِّر منها.

قالوا: إن تلكَ القرية هي «أَنْطاكية» وكانت مدينة رومية، يحكمها مِلك ظالم يعبد الأصنام، اسمه «أَنْطيخُس».

فأراد عيسى عليه السلام دعوةَ أهلها إلى الإيمان باللَّه، فبعث لها رجلين من الحواريّين، فكذَّبهما أهلها، فأرسل لهم حوارياً ثالثاً.

واختلفوا في اسماء الرسل الثلاثة اختلافاً بيّناً. والراجح لدى جمهور السابقين أنهم: شمعون ويوحنا. ثم بولس.

قالوا: أرسل عيسى عليه السلام الرسولَيْن إلى إنطاكية، فلقيا رجلاً عجوزاً يرعى غنيْمات له. وهو «حبيب النجار» فدعواه إلى الله، وبيّنا له أن معجزتهما هي شفاء المرضى. وكان له ابن مجنون، فمسحاه فقام صحيحاً، فآمن الرجل بهما.

---

(١) سورة يّسن: آيات ١٣ ــ ٢٩.

وفشا أمرهما في المدينة، وشفيا كثيراً من المرض، وسمع بهما الملك الكافر عابد الأصنام، فغضب عليهما، ووضعهما في السجن.

ولمَّا علم عيسى عليه السلام بما جرى لهما، أرسل إلى المدينة رجلاً ثالثاً، هو «شمعون» فاحتال شمعون حتى وصل إلى الملك، وكتمَ عليه إيمانه ودينه، وعاشر الملكَ وتمكن لديه، فقربه الملك منه، وجعله مؤنسَه ورفيقة.

فقال له يوماً: بلغني أنك حبست يوماً رجلين دعَواك إلى الله، فلو سألت عنهما أو سألتهما. فقال الملك: إن الغضب قد حال بيني وبين سؤالهما. فقال للملك: لو أحضرتَهما.

فلما حضرا قال لهما شمعون: ما برهانكما على دينكما؟ قالا: نبرىء الأكمهَ والأبرص.

فجاءوا لهما بغلام أكمه، ممسوح العينين، مَوضعُ عينيه كالجبهة. فدعَوَا الله، فانشق موضعُ البصر، وعاد الغلام بصيراً.

فعجب الملك مما رأى. وقال: ها هُنا غلام مات منذ سبعة أيام ولم أدفنْه حتى يجيء أبوه، فهل يحيه ربكما؟ قالا: نعم.

فدعَوَا الله علانية، ودعا شمعون اللَّهَ سراً، فأحيا الله الميت، وقام يخاطب الناس وقال لهم: إني مِتُّ منذ سبعة أيام، ووُجدتُ مشركاً، وأُدخلتُ في سبعةٍ من أودية النار، فأحذركم ما أنتم فيه، وآمنوا باللَّه.

ثم فُتحتْ أبوابُ السماء فرأيتُ شاباً حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة، شمعون وصاحبيْه، حتى أحياني الله، وأنا أشهد أن لا إله إلاَّ الله، وأن عيسى روح الله وكلمته، وأن هؤلاء هم رسل الله.

قالوا له: وهذا شمعون أيضاً معهم؟ قال: نعم وهو أفضلهُم.

فأعلَمهم شمعون أنه رسول المسيح إليهم، ودعاهم إلى الله.

قالوا: فآمن الملك في قوم كثير، وكفر آخرون.

وقيل: إن الملك لم يؤمن، بل ازداد كفراً وعناداً، واضطهدَهُم وعذّبهم، وأراد أن يقتلهم ويقضي عليهم.

فجاء من أقصى المدينة رجل يسعى. هو «حبيب بن مري. وهو حبيب النجار» الذي مرّ به الرسولان، وشفيا ابنَه المجنون. وخاطب الملكَ والحاشية، ودعاهم إلى الإيمان باللّه ورسله. وأعلن أمام الجميع إيمانه.

فغضب الملك منه، وأمر جنوده بقتله، فوثبوا عليه فقتلوه.

قيل: وطئوا عليه بأرجلهم، حتى خرجت أمعاؤه من دبره حتى مات.

وقيل: إنهم كانوا يرجمونه بالحجارة، وهو يقول: اللهم اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون.

فقتلوه وقتلوا الرسل الثلاثة. وقيل إنهم لما أرادوا قتل حبيب النجار رفعه الله إلى السماء، وأدخله إلى الجنة.

أما أهل القرية، فقد جاءهم جبريل بالصيحة، فأهلكهم جميعاً[1].

وهذه الإسرائيلياتُ والروايات في تفصيلات القصة، لم يُنقل منها شيء عن رسول الله ﷺ، ولذلك هي من القول بالظن والخرْص والتخمين، وقصص السابقين لا يقال فيها بذلك. بل لا بد من حديث صحيح عن رسول الله ﷺ.

ولذلك فنحن مضطّرون إلى السكوت عن تلك الإسرائيليات. فلا نقول بها، كما أننا لا ننفيها كلها، ونجزمُ ببطلانها.

---

(١) انظر هذه التفصيلات عند القرطبي ١٥: ١٣ ــ ٢٣. وعرائش المجالس: ٣٦٣ ــ ٣٦٦.

ولا نجيز رواية تلك الإسرائيليات عنّا، إلّا من باب التحذير منها.

مبهمات في القصة:

من المبهمات في القصة التي لا نُتعب أنفسَنا في محاولة بيانها، ولا نجيز لغيرنا بيانَها، لعدم وجود أحاديث صحيحة عن رسول الله ﷺ:

١ ـ اسم القرية التي أُرسل إليها المرسلون. واسم ملكها.

٢ ـ أسماء الرسل الثلاثة الذين أُرسلوا إلى تلك القرية.

٣ ـ اسم الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى.

٤ ـ هل الرسل الثلاثة رسل من الله مباشرة أم أتباعٌ لعيسى عليه السلام؟

٥ ـ كيفية وصولهم إلى القرية، وما جرى لهم أثناءَه.

٦ ـ تفصيلات ما جرى بينهم وبين أهل القرية.

٧ ـ ماذا جرى لهم في القرية، وهل عُذبوا أم لا؟ وهل استجاب لهم أحد من تلك القرية أم لا؟.

٨ ـ كيفية نهايتهم في القرية، وهل قتلوا أم ماتوا. أم غادروها إلى غيرها.

٩ ـ كيفية قدوم الرجل من أقصى المدينة يسعى، وطبيعة عمله.

١٠ ـ أثر نصرته للرسل الثلاثة على أهل المدينة. وهل اتبعه منهم أحد.

١١ ـ كيفية نهاية ذلك الرجل، وهل قتلوه، وكيف، وهل رفع إلى السماء.

١٢ ـ تفصيلات ما جرى لأهل القرية، بعد تقديم الرجل المؤمن بيانه، وكيف كانت نهايتهم.

يقول الأستاذ الإمام سيد قطب حول الإبهام في القصة:

«ولم يذكر القرآن مَنْ هم أصحاب القرية، ولا ما هي القرية. وقد اختَلَفت فيها الروايات، ولا طائل وراء الجري مع هذه الروايات.

وعدمُ إفصاح القرآن عنها دليل على أن تحديد اسمها أو موضعها لا يزيد شيئاً في دلالة القصة وإيحائها. ومن ثم أَغفل التحديد، ومضى إلى صميم العبرة ولبابها.

فهي قرية، أَرسل الله إليها رسولين، كما أرسل موسى وأخاه هارون ــ عليهما السلام ــ إلى فرعون وملئه. فكذَّبهما أهل تلك القرية، فعززهما الله برسول ثالث يؤكد أنه وأنهما رسل من عند الله. وتَقدم ثلاثتُهم بدعواهم ودعوتهم من جديد. فقالوا إنَّا إليكم مرسلون»[1].

مناسبة القصة لسورة يٓسٓ:

أشار الأستاذ الإمام سيد قطب إلى الربط بين قصة أصحاب القرية وسورة يٓسٓ، ومناسبة ذكْرها فيها.

فبيَّن أن موضوع سورة يٓسٓ هو موضوع السور المكيَّة عموماً، وهو العقيدة بأهم قضاياها: الألوهية والعبودية والرسالة والآخرة.

وذكر أن سورة يٓسٓ تهدف إلى تحقيق أهداف ثلاثة:

الأول: هو بناء أسس العقيدة، وبيان طبيعة الوحي وصدق الرسالة. وتسوق قصةَ أصحاب القرية، لتحذِّر من عاقبة التكذيب بالوحي والرسالة، وتَعرض هذه العاقبة في القصة، على طريقة القرآن في استخدام القصص لتدعيم قضاياه.

الثاني: التركيز على قضية البعث والنشور.

الثالث: التأكيد على قضية الألوهية والوحدانية[2].

---

(١) الظلال ٥: ٢٩٦١.

(٢) الظلال ٥: ٢٩٥٦ باختصار.

واعتبر سيد قطب السورة ثلاثة أشواط:

الشوط الأول ـ وهو الذي يعنينا هنا، الآيات من ١ ـ ٢٩.

قال عن موضوعه: «يبدأ الشوط الأول بالقَسَم بالحرفين «يا. سين» وبالقرآن الحكيم، على رسالة النبي ﷺ، وأنه على صراط مستقيم. يتلو ذلك الكشفَ عن النهاية البائسة للغافلين الذين يكذِّبون. وهي حكم الله عليهم بألا يجدوا إلى الهداية سبيلاً. وأن يحال بينهم وبينها أبداً. وبيان أن الإنذار يَنفع مَن اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب، فاستعد قلبه لاستقبال دلائل الهدى وموجِباتِ الإيمان.

ثم يوجِّه الله رسوله ﷺ إلى أن يضرب لهم مثلاً أصحاب القرية، فيقص قصة التكذيب وعاقبةَ المكذبين. كما يعرض طبيعةَ الإيمان في قلب الرجل المؤمن، وعاقبةَ الإيمان والتصديق»[1].

ولما انتقل سيد قطب إلى تفسير آيات القصة، مهَّد لها بقوله: «وبعد عرْض قضية الوحي والرسالة، وقضية البعث والحساب، في هذه الصورة التقريريَّة، يعود ليعرضهما في صورة قصصية، تلمس القلب بما كان من مواقف التكذيب والإيمان، وعواقبهما، معروضةٍ للعيان»[2].

القصة مشهدان:

يمكن تقسيم القصة إلى مشهديْن اثنيْن:

المشهد الأول: المواجهة بين الرسل الثلاثة وبين أهل القرية. إذ توجَّه الرسل إليهم، وقدَّموا أنفسهم لهم على أنهم رسل الله إليهم، ولكن أهل القرية كذبوهم، وطعنوا في رسالتهم، وأثاروا شبهات حولها، وتطيروا وتشاءموا بهم، ورد الرسل على كل ذلك. وهذا المشهد يضم الآيات من ١٣ ـ ١٩.

---

(١) الظلال ٥: ٢٩٥٧.

(٢) الظلال ٥: ٢٩٦٠.

المشهد الثاني: مجيء الرجل المؤمن من أقصى المدينة يسعى، مؤيِّداً للرسل مؤمِناً بهم، ناصحاً لقومه، داعياً لهم إلى تصديق الرسل والإيمان بهم والاستجابة لدعوتهم، وقد فنَّد شبهاتهم ضد الرسل والرسالة، وعَرَض العقيدة والإيمان بأحسن أسلوب، وحذَّرهم من عاقبة الكفر والتكذيب. وأعلن أمامهم إيمانه.

ويبدو أن أهل القرية لم يكتفوا بتكذيبه، ولكن أقدموا على قتله وإزهاق روحه، فلقي الله شهيداً، وبشَّره الله بالجنة، فتمنى لو يعلم قومه بحسن عاقبته وعِظم ثوابه.

وهذا المشهد يضم الآيات من ٢٠ ــ ٢٧.

وبعدَ عرْض المشهديْن، عقب السياق القرآني على القصة بآيتين ذكَرَ فيهما ما أصاب أهل القرية من عذاب ودمار وهلاك، بسبب كفرهم وتكذيبهم، حيث أخذتهم الصيحة، فأصبحوا خامدين. الآيتان: ٢٨ ــ ٢٩.

وقفة مع المواجهة بين الرسل والقوم:

قلنا إن المشهد الأول في القصة يتضمن المواجَهة بين الرسل وبين أهل القرية. حيث قدَّم الرسلُ الثلاثة أنفسَهم لأهل القرية، وعرَّفوهم برسالتهم ومهمتهم، ولكنهم كذبوهم وكفروا بهم.

وسوف نقف وقفة قصيرة مع هذه المواجهة نستخرج منها بعض اللطائف والإشارات والدلالات.

١ ــ هل الرسل الثلاثة من قبل الله؟

أخبر القرآن عن إرسال اثنين إلى أهل القرية، ثم تعزيزهما بثالث، ووصَف الثلاثة بأنهم رسل، ووردت هذه الكلمة «مرسلون» أربع مرات.

١ ــ واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية، إذ جاءها المرسَلون.

٢ ــ فقالوا: إنا إليكم مرسلون.

٣ ــ قالوا: ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون.

٤ ــ قال: يا قوم اتبعوا المرسلين.

وقد تساءل كثير من المفسرين: هل كانوا رسلاً من الله، أم كانوا رسلاً من قبل رسول الله؟.

كثير من المفسرين والإخباريين على أنهم لم يكونوا مرسَلين من قبل الله، بل مرسلين من قبل رسول الله. وهذا الرسول هو عيسى عليه السلام.

نختار من هؤلاء الإمام الرازي الذي يقول:

«إذْ جَاءَهَا المرسَلون: أي جاءها المرسلون حين أرسلناهم إليهم. أي لَم يكن مجيئُهم من تلقاء أنفسهم، وإنما جاءوهم حيث أُمِروا.

وهذا فيه لطيفة: وهي أن في الحكاية أن الرسل كانوا مبعوثين من جهة عيسى عليه السلام، أرسَلَهم إلى إنطاكية. فقال تعالى: إرسال عيسى عليه السلام هو إرسالُنا، ورسول رسول الله بإذن الله رسولُ الله، فلا يقع لك يا محمد أن أولئك كانوا رسل الرسول وأنت رسول الله، فإن تكذيبهم كتكذيبك[1].

ويرى فريق من المفسرين أنهم كانوا رسلاً من الله مباشرة. ولا غرابة أو استحالة أن يرسل الله رسولين إلى القرية، ثم يُتْبعهما بثالث يُعززُهما.

وفي هذا المعنى يقول الأستاذ الإمام سيد قطب: «هي قرية أرسل الله إليها رسولَيْن. كما أرسل موسى وأخاه هارون إلى فرعون وملئه، فكذّبهما أهلُ تلك القرية، فعززهما الله برسول ثالث، يؤكد أنه وأنهما رسل من عند الله»[2].

(١) تفسير الرازي ٢٦: ٥١.

(٢) الظلال ٥: ٢٩٦١.

ولعل هذا هو الراجح، لأنه هو المتفق مع ظاهر النص القرآني فقد أسند القرآن إرسالَهم إلى الله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْن، فَكَذَّبوهُما، فَعَزَّزْنا بِثَالِثٍ﴾ واعتبرهم القرآن مرسَلين إلى أَهَل القرية.

والأصل هو الأخذُ بظاهر النص القرآني، والقولُ بما يوحي به، وعدمُ العدول عن الظاهر إلى المجاز والاستعارة إلَّا عند الضرورة، وذلك عند تعذر واستحالة الحمل على الظاهر، وهذه قاعدة مطردة من قواعد التفسير. ولا ضرورة هنا تضطرنا للقول بالاستعارة. فهم رسل من الله مباشرة. ـ والله أعلم ـ.

٢ ـ الإصرار على الإرسال:

عزَّزْنا بثالث:

قال تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْن، فَكَذَّبوهُمَا. فَعَزَّزْنا بِثَالِثٍ﴾ ومعنى عزَّزْنَا: قوَّينا بثالث.

وفيها قراءتان:

الأولى: عَزَزْنا: بتخفيف الزاي الأولى. ومعناها: غَلَبْنَا. من قولهم عَزَّ: أي غَلَب.

الثانية: عَزَّزْنا. بتشديد الزاي: أي قوَّيْنا وشدَدْنا.

فعلى قراءة التخفيف يكون المعنى أن الحق عَزَّ وظهر وغَلَب بالرسول الثالث المصدِّق للرسولَيْن قبله.

أمَّا على قراءة التشديد فيكون المعنى: أننا قوَّيْنا حجةَ النبيَّيْن السابقَيْن بالثالث، وشدَدْنا عَضُداهما به، وأضفنا حجتَه لحجتهما، ودعمنا بمواقفه موقفَهما.

(١) حجة القراءات لابن زنجلة: ٥٩٧.

والقراءتان متقاربتان في المعنى.

لكن الناظر في الجملة «فعزّزْنا بثالث» تستوقفه لفتة بيانية، وهي حذف المفعول به لفعل «عززنا»!.

وقد تساءل الإمام الزمخشري في كشافه عن الحكمة من ذلك، ثم قال: «الغرضُ من ذلك ذكْر المعزَّز بِه، وما لَطُف فيه من التدبير، حتى عزَّ الحقُ وذلَّ الباطل.

وإذا كان الكلام منصبّاً إلى غرض من الأغراض، جَعَلَ سياقَه له، وتوجُّهَه إليه، كأنَّ ما سواه مرفوض مطروح. ونظيره قولك: حكم السلطان اليوم بالحق. الغرضُ المسوق له قولك: بالحق: فلذلك رفضْتَ ذكْر المحكوم له والمحكوم عليه»[1].

وإذا ما نظرنا في الحكمة من إرسال رسولين ثم تعزيزهما بثالث، فإنها قد تبدو فيما يلي:

١ ـ إن الرسول يتقوّى بالرسول الآخر. والرسولَيْن يتعززان بالرسول الثالث. كما قال موسى عليه السلام لربه عن أخيه هارون: «وَأَخي هارونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنّي لِساناً، فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُني. إنّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبون»[2].

فاستجاب الله له وقال: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخيكَ، وَنَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً، فَلاَ يَصِلونَ إِلَيْكُما، بآياتِنا أَنْتُما وَمَنِ اتَّبَعَكُما الغالِبُون﴾[1].

٢ ـ إن إرْسَالَ الرَسول الثالث هو ردٌّ على تكذيب أهل القرية للرسولَيْن، وهذا فيه الإصرارُ على الإرسال، والإصرارُ على التبليغ، وهذا

---

(١) الكشاف للزمخشري ٣: ٣١٧ ـ ٣١٨.

(٢) سورة القصص: آيتا ٣٤ ـ ٣٥.

درس دعوي بالغ. فالدعاة إلى الله يواجهون الناس ويدعونهم. وقد لا يستجيب المدعوون إليهم بل يصُدّون عنهم. فعلى الدعاة الاستمرارُ في الدعوة، والحرصُ على النصح، والإصرارُ على التبليغ. ولا يحملنَّهم الإعراضُ عنهم على ترك الدعوة، والقعودِ عن الواجب.

٣ ــ بشرية الرسل والبلاغ المبين:

قدَّم الرسلُ الثلاثة أنفسهم إلى أهل القرية. وقالوا لهم: «إنا إليكم مرسلون».

لكن أهل القرية أثاروا أمامهم أول شبهة، وهي شبهة «بشرية الرسل» وبنوْا على تلك الشبهة نتيجةً خاطئة، وهي أنهم كاذبون وليسوا مرسلين: ﴿قالوا: ما أنتم إلّا بشر مثلُنا، وما أنزل الرحمن من شيء، إنْ أنتم إلّا تَكْذِبُون﴾.

وهذه هي الشبهة التي واجَهَ بها كلُّ قوم رسولَهم، واعتبروها مانعاً من تصديقه والإيمان به، وطلبوا أن يكون الرسول مَلَكاً من الملائكة، وعلقوا إيمانهم على «ملائكية الرسل».

وقد بيَّن الأستاذ الإمام سيد قطب ضلال وسذاجة هذا التصوُّر والطلب بقوله:

«وهذا الاعتراض المتكرِّر على بشرية الرسل تبدو فيه سذاجة التصور والإدراك، كما يبدو فيه الجهل بوظيفة الرسول. فقد كانوا يتوقعون دائماً أن يكون هناك سِرٌّ غامض في شخصية الرسول وحياته، تكمن وراءه الأوهام والأساطير. أليس رسول السماء إلى الأرض، فكيف لا تحيط به الأوهام والأساطير،؟ كيف يكون شخصيةً مكشوفةً بسيطةً، لا أسرار فيها، ولا ألغاز حولها؟ شخصيةً بشريةً عاديةً من الشخصيات التي تمتلىء بها الأسواق والبيوت؟.

وهذه هي سذاجة التصور والتفكير، فالأسرار والألغاز ليست صفةً ملازمة للنبوة والرسالة. وليست في هذه الصورة الساذجة الطفولية. وإن هناك لسراً هائلاً ضخماً، ولكنه يتمثل في الحقيقة البسيطة الواقعة حقيقةِ إيداعِ إنسان من هؤلاء البشر الاستعدادَ اللدنّي الذي يتلقى به وحيَ السماء، حين يختاره الله لتلقِّي هذا الوحي العجيب. وهو أعجب من أن يكون الرسول ملَكاً كما كانوا يقترحون.

والرسالة منهج إلهي تعيشه البشرية، وحياة الرسول هي النموذج الواقعي للحياة وفق ذلك المنهج الإلهي. النموذج الذي يدعو قومه إلى الاقتداء به. وهم بشر. فلا بدّ أن يكون رسولهم من البشر ليحقق نموذجاً من الحياة يملكون هم أن يقلدوه.

ومن ثم كانت حياة الرسول ﷺ معروضةً لأنظار أمته، وسجَّل القرآن ـ كتاب الله الثابت ـ المعالمَ الرئيسية في هذه الحياة، بأصغر تفصيلاتها وأحداثها، بوصْفها تلك الصفحةُ المعروضةُ لأنظار أمته على مدار السنين والقرون»[1].

وأمام تلك الشبهة، وأمام ذلك الاتهام للرسل بالكذب، حدَّد الرسل لأهل القرية مهمتهم عندهم: ﴿قالوا: ربُّنا يعلم إنّا إليكم لمرسلون. وما علينا إلّا البلاغ المبين﴾.

إنهم مرسلون. لأن الله سبحانه هو الذي أرسلهم، وهو يعلم أنهم مرسلون، ويكفيهم علمُ الله بهم، وشهادتُه لهم، وتأييدُه لهم! ولا يضيرُهُم شيئاً تكذيبُ الناس لهم، واعتراضُهم عليهم.

---

(١) الظلال ٥: ٢٩٦١.

ومهمتهم بين القوم هي: البلاغ المبين. أَخبروا القوم بها بهذا الحسم والجزم والتحديد.

ليست مهمةُ الرسل في قصْرهم على الإيمان وإكراهِهم عليه، وليست وظيفتُهم في قذف الإيمان في قلوبهم. ولكنها فقط: البلاغ المبين.

يبلغونهم رسالتهم، ويقيمون الحجّة عليهم، وينصرفون عنهم. وما على القوم إلّا الاختيار، الاختيار بحرّية وإرادة وسعي وكسب، فإمّا أن يختاروا طريق الإيمان بالرسل واتّباعِهم فيفوزون وينجحون. وإما أن يختاروا طريق الكفر والتكذيب فيهلكون ويُعذَّبون. وفي كلا الأمرين هم الذين اختاروا، وعليهم تحمُّل المسؤولية، وقبول النتيجة!

وإذا كانت مهمة الرسل عند الأقوام هي البلاغ المبين، فإن مهمة أتباع الرسل من الدعاة والمصلحين هي البلاغ المبين، وتنتهي هذه المهمة عند أداء البلاغ المبين.

٤ ــ التطير من الرسل والدعاة:

ردَّ أهلُ القرية على بيان الرسل الثلاثة، بأن أخبروهم أنهم تطيروا بهم ﴿قالوا: إنّا تطيرنا بكم﴾.

والتطير هو التشاؤم. أي إنّا تشاءَمْنا منكم، ونتوقع من بقائكم بيننا الشرَّ والأذى، وأنتم لا تحملون لنا خيراً ولا نفعاً.

وواجه الرسل هذا التشاؤم بمنطق إيماني واثق صريح: ﴿قالوا: طائِرُكُمْ معكم. أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ. بل أنتم قوم مسرفون﴾.

طائركم معكم: تشاؤمكم معكم. والشرُّ الذي تتوقعونه ليس بسببنا، بل بسببكم أنتم، إنه بسبب أعمالكم وتصوراتكم. وإن ما يصيب الإنسانَ من خير

أو شر ليس بسبب خارجي عنه، حتى يتطير به أو يتشاءم منه، بل هو كامن في الإنسان نفسه، ومن داخل نفسه، وهو بسبب ما يعمله من خير أو شر.

وإن تطيُّرَ الإنسان بغيره، وتشاؤمَه منه، هو إلقاءُ المسؤولية على غيره، وتهرُّبُه هو من المسؤولية. ولذلك نراه يتشاءم من الأشخاص، أو من الوجوه، أو من الأماكن، أو من الأزمنة، أو من الكلمات، أو من الحركات.

ولهذا المعنى يحرِّم الإسلام التطيُّرَ بالغير والتشاؤم منه، لأن ما يصيب الإنسان من خير أو شر فهو بسبب عمله، وإن ما وقع به بسبب ذلك فهو من الله وحده، وفق سنّتِه سبحانه، ولا يَدَ للآخرين الذين يتشاءم منهم في حصوله له، كما أنه لا أثر لابتعادهم في صرْفه عنه.

وقولُ الرسل الثلاثة لأهل القرية: طائركم معكم. يحمل معنى آخر، وهو التهديدُ بالعذاب. وكأنهم يقولون لهم: إن ما ينتظركم من العذاب والهلاك والدمار ليس بسببنا، بل بسبب ما أنتم عليه من الكفر.

فإذا أردتم صرْفَ ما ينتظركم من الخطر والشر، فعليكم أن تُغيِّروا ما بأنفسكم، وأن تتخلّوا عن كفركم.

بقي أن نقول إن التطيّرَ من الرسل، ليس خاصاً بأهل القرية، بل هو سنّةٌ عامة، وموقف محدَّد مطَّرد، فما من قوم جاءهم رسول إلّا تطيّروا به وتشاءموا من دعوته.

ها هم قوم ثمود يتطيرون برسولهم صالح عليه السلام، وها هو يردّ عليهم: ﴿قَالُوا: اطَّيْرنا بِكَ، وَبِمَنْ مَعَكَ. قَالَ: طَائِرُكُمْ عِنْدَ الله، بَلْ أَنْتُم قَوْمٌ تُفْتَنُون﴾[١].

---

(١) سورة النمل: آية ٤٧ .

وقوم فرعون: تطيّروا بموسى عليه السلام ومن معه. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ. لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُون. فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا: لَنَا هٰذِهِ. وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَمَنْ مَعَهُ. أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾(١).

والكافرون واجهوا محمداً ﷺ بالتطيُّر والتشاؤم: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا: هَذِهِ مِنْ عِنْدِ الله، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولوا: هٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ. قُلْ: كُلٌّ مِنْ عِنْدِ الله. فَمَا لِهؤلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾(٢).

وهل التطيُّر والتشاؤم ضدّ الرسل فقط؟ كلا. إنَّه موقف دائم واجَه به الْكُفّارُ والأعداء كلَّ الدعاة والمربين والمصلحين، في كل زمان ومكان.

وقد حاول الإمام الزمخشري أن يحلِّل نفسية الكفّار والأعداء المتطيِّرين من الحق وأهلِه تحليلاً نفسياً، فقال: (وذلك أنهم كرهوا دينهم، ونفرت منهم نفوسهم.

وعادة الجهّال أن يتيمَّنوا بكل شيء مالوا إليه واشتهوْه وآثروه وقَبِلَتْهُ طِباعُهُمْ، ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه. فإنْ أصابهمْ نعمة أو بلاء قالوا: ببركة هذا، وبشؤم هذا)(٣).

على الدعاة أن يردوا على المتطيِّرين تطيُّرهم، وعلى المتشائمين تشاؤمهم، وأن يبينوا أن طائرهم معهم، وأن ما سوف يصيبهم من الشر والدمار، ليس بسبب الدعاة أو دعواتهم أو دعائهم، بل بسبب ضلال القوم وانحرافِهم وذنوبهم ومعاصيهم.

---

(١) سورة الأعراف: آيتا ١٣٠ ـ ١٣١.
(٢) سورة النساء: آية ٧٨.
(٣) الكشاف ٣: ٣١٨.

عليهم أن يواجهوهم بما واجه به الرسل الثلاثة قومهم: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ؟ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾.

والمسرفون قد يكونون مسرفين في الكفر أو الشرك أو الفساد أو الذنوب أو التطير أو التهديد أو التعذيب. المهم أنهم مسرفون مجاوزون للحد الطبيعي.

٥ ــ سلاح الرجم والتعذيب:

وجَّه أهل القرية ضد الرسل الثلاثة سلاحاً ظنّوه فتاكاً مؤثِّراً، وذلك عندما قالوا لهم: ﴿لَئِنْ لم تَنْتهوا لنرجمَنَّكُمْ، وليمسَّنَّكمْ منا عذاب أليم﴾.

وبهذا السلاح أسفر الكفّار المسرفون في القرية عن حقيقتهم، وأظهروا غُشْمهم وبغيهم وظلمهم، واستخدموا الأسلوب الغليظ العنيف البشع، وعاملوا الرسل الهداة بإرهاب وإفساد واضطهاد وتعذيب.

إنهم يَضيقون بوجود الهداة الدعاة، ولا يحتملون رؤيتهم، ولا يقبلون بوجودهم معهم. ومع ذلك هم عاجزون عن مقاومة المنطق بالمنطق، وإبطال الحجة بالحجة، ومواجهة الفكرة بالفكرة، لأنهم لا يملكون منطقاً أو حجّة أو فكراً يواجهون به منطقَ وحجّةَ وفكرَ الرسل. ولذلك يلجأون إلى السلاح البدائي الحيواني، سلاحِ التهديد والرجم والتعذيب والإيذاء.

ولجوءُ الكفّار من أهل تلك القرية إلى ذلك السلاح الهمجي البدائي، ليس موقفاً خاصاً بهم وحدَهم. بل هو السلاح نفسه الذي لجأ إليه واستخدمه الكفار دائماً ضد الرسل والأنبياء. استخدمه الكفار ضد نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى وغيرهم عليهم الصلاة والسلام.

وهو السلاح نفسه الذي يلجأ إليه ويستخدمه الأعداء الظالمون المفسدون الطغاة البغاة، ضد أتْباع الرسل من الدعاة والمصلحين، وقد حوى

تاريخُنا نماذج كثيرة من استخدام هذا السلاح ضد جنود هذا الدين، وسجَّل التاريخ الحديث المعاصر الذي يعتبره كثيرون القمة في الحضارة والمدنية والرقيّ، نماذجَ صارخةً لاستخدام أولئك الطغاة البغاة لهذا السلاح الهمجي البدائي الحيواني «الرجم والتعذيب والقتل» ضد الدعاة إلى الله. حيث أوقعوه بهم بطريقة ما كان إنسان يتخيل أو يتصور أن يسلكها إنسان بشر ضد إنسان آخر، ولكنهم سلكوها وفعلوها!

وكانوا بذلك السلاح يهدفون إلى إسكات صوت الحق، والقضاءِ على الدعوة إلى الله. فماذا كانت النتيجة؟

لقد قَوِيَت الدعوةُ وتمكّنتْ واستقرّتْ، وتوسعتْ وتقدّمتْ وانتشرتْ، رغم ما واجهها من صعوبات ومعوقات. ورغم ما تحمَّله أهلُها من آلام وتضحيات. لأنَّ الدعوة إلى الله لا تتقوى إلّا بالمحنة والشدّة والابتلاء.

وذهب أولئك الطغاة المعذِّبين الراجمين الباطشين، ذهبوا يجرُّون أذيالَ الهزيمة والفشل، ويُشيَّعون باللعنات والسخريات، وذهبوا إلى ربهم يذوقون أصناف العذاب.

ما من دعوة إلى الله إلّا وُوجِهَتْ بسلاح الاضطهاد والتعذيب، وما من دعاة إلى الله إلّا ووجِهوا بسلاح الرجم والتعذيب. وما من أعداء لهذا الدين إلّا تعاملوا مع الدعاة من خلال قول أصحاب القرية لرسلهم: ﴿لئن لم تنتهوا لنرجمنكم. وليمسنكم منا عذاب أليم﴾.

ولكن أولئك الدعاة اقتدوا بالرسل الثلاثة، وواجهوا قومهم بما واجه به الرسل أهل القرية: ﴿طائركم معكم. أئن ذكرتم. بل أنتم قوم مسرفون﴾.

مع الرجل المؤمن في نصرة الرسل:

المشهد الثاني في قصة أصحاب القرية مع الرسل، هو مجيءُ الرجل المؤمن من أقصى المدينة يسعى، لينصر المرسلين، ويدعو إلى اتّباعهم.

وقد ربط سيد قطب بين المشهدين، وبيَّن الصلة بين جزأي القصة، فقال: «تلك كانت الاستجابة من القلوب المغلقة على دعوة الرسل. وهي مثل للقلوب التي تحدثت عنها السورة في الجولة الأولى، وصورةٌ واقعية لذلك النموذج البشري المرسوم هناك.

فأمّا النموذج الآخر الذي اتّبع الذكر وخشي الرحمٰن بالغيب، فكان له مسلك آخر، وكانت له استجابة غير هذه الاستجابة»[1].

مع سيد قطب في تحليل نفسية الرجل:

وقف سيد قطب أمام النموذج الخيّر الطيّب، الرجل المؤمن المستجيب لدعوة الرسل، وحلّل نفسيته الفاضلة، فقال:

«إنّها استجابة الفطرة السليمة لدعوة الحقّ المستقيمة، فيها الصدق. والبساطة. والحرارة. واستقامة الإدراك. وتلبية الإيقاع القويّ للحق المبين.

فهذا الرجل سمعَ الدعوة واستجاب لها، بعدما رأى فيها دلائل الحق والمنطق ما يتحدث عنه في مقالته لقومه.

وحينما استشعر قلبه حقيقة الإيمان تحرّكت هذه الحقيقة في ضميره فلم يطق عليها سكوتاً. ولم يقبع في داره بعقيدته، وهو يرى الضلال من حوله والجحود والفجور، ولكنّه سعى بالحق الذي استقر في ضميره وتحرك في شعوره. سعى به إلى قومه وهم يكذّبون ويجحدون ويتوعدون ويهدّدون. وجاء من أقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق، وفي

---

(١) الظلال ٥:٢٩٦٢ .

كفّهم عن البغي، وفي مقاومة اعتدائهم الأثيم الذي يوشكون أن يصبّوه على المرسلين.

وظاهر أن الرجل لم يكن ذا جاه ولا سلطان، ولم يكن في عزّةٍ من قومه أو منعة من عشيرته، ولكنّها العقيدة الحيّة في ضميره، تدفعه وتجيء به من أقصى المدينة إلى أقصاها»[1].

ومع الإمام الرازي في لطائفه البيانية:

للرازي وقفاتٌ ممتعة لطيفة، أمام السياق القرآني، يَلحظ فيها لفتاتٍ ولطائف طريفة، ويسجل فيها تحليلات وتعليلات طيِّبة.

وقد وقف أمام السياق القرآني عن الرجل المؤمن، وأورد حوله بعض النظرات، ونحن نسجّل أهمها بتصرُّف واختصار:

١ ـ في ارتباط موقف الرجل المؤمن مع ما سبق من آيات القصّة وجهان:

أحدهما: أنّه بيان لكونهم أتوا بالبلاغ المبين، حيث آمن بهم الرجل الساعي، وعلى هذا ففي قوله: «من أقصى المدينة» بلاغةٌ باهرة، فهو يدل على أن إنذارالرسل قدبلغ إلى أقصى المدينة.

الثاني: أن ذكر قصة الرجل المؤمن بالمرسلين تسليةٌ لقلوب أصحاب الرسول ﷺ، وتثبيتهم على الدعوة، كما كان ذكر الرسل الثلاثة تسليةً لقلب الرسول عليه الصلاة والسلام.

٢ ـ في تنكير «رجل» فائدتان وحكمتان:

الأولى: أن يكون تعظيماً لشأنه، أي رجلٌ كاملٌ في الرجولية.

---

(١) الظلال ٥: ٢٩٦٢ ـ ٢٩٦٣.

الثانية: أن يكون مفيداً لظهور الحق من جانب المرسلين، حيث آمن رجلٌ من الرجال لا معرفة لهم به، فلا يقال أنّهم تواطؤا.

٣ ــ في قوله «يسعى» تبصيرٌ للمؤمنين وهداية لهم، ليكونوا في النصح باذلين جهدهم، ساعين فيه، مقتدين بذلك الرجل الذي جاء يسعى.

٤ ــ في قوله: «يا قوم» معنى لطيف: حيث يشير إلى إشفاقه عليهم، وإضافتهم إليه دليل على أنّه لا يريد بهم إلّا خيراً.

٥ ــ في قوله: «اتبعوا المرسلين» دعوة منه لهم إلى اتّباع المرسلين، ولم يقل «اتبعوني» كما دعا مؤمن آل فرعون في سورة غافر. وذلك لأنّه جاء من أقصى المدينة، ولم يكن معهم ولا بيْنهم، فدعا إلى اتّباع المرسلين الذين أظهروا لهم الدليل، وأوضحوا لهم السبيل.

٦ ــ جمع في قوله ﴿اتبعوا المرسلين﴾ بين إظهار النصيحة في قوله ﴿اتبعوا﴾ وإظهار الإيمان في قوله ﴿المرسلين﴾ وقدّم النصيحة على الإيمان لكونه أبلغ في النصح.

٧ ــ في قوله ﴿اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون﴾ معنى حسن لطيف، واستخدامٌ لأحسن الأساليب في النقاش والجدال والإقناع. حيث نزل فيه درجةً لإقناعهم. وكأنه يقول لهم: افترضوا أنهم ليسوا مرسَلين ولا هداة، لكنهم مهتدون عالمون بالطريقة المستقيمة التي توصلهم إلى الحق. ثم هم لا يسألونكم أجراً ولا مالاً. وهذا الأمر يدعوكم إلى اتّباعهم والاستجابة لهم.

٨ ــ في قوله ﴿وما لي لا أعبد الذي فطرني﴾ استفهام إنكاري، وفيه إشارةٌ إلى أنّ الأمر من جهة عبادة الله وحده لا خفاءَ فيه، وعلى الذي لا يعبده أن يقدِّم السبب الذي يمنعه من عبادته، أما أنا فلا أجد مانعاً يمنعني من عبادته.

٩ ــ وفي قوله ﴿وما لي لا أعبد الذي فطرني﴾ لطيفة أخرى، حيث عدَل عن مخاطبة القوم إلى الحديث عن نفسه، والحكمةُ في ذلك، هو أنه لا يَخفى عليه حالُ نفسه، ولذلك فهو لا يطلب العلةَ والدليلَ من أحد آخر، لأنه أعلم بحال نفسه.

١٠ ــ جمع في قوله ﴿وما لي لا أعبد الذي فطرني﴾ بين أمريْن في إيمانه بالله. الأول هو عدم المانع الذي يمنعه من الإيمان في قوله ﴿وما لي لا أعبد﴾.

والثاني: هو قيامُ المقتضي الذي يدعوه إلى الإيمان، وهو في قوله ﴿الذي فطرني﴾، فالله الخالق مالكٌ ومنعِم وعلى العبيد عبادته وشكره.

١١ ــ قدَّم عدمَ المانع من الإيمان على المقتضي الذي يدعوه للإيمان في قوله ﴿وما لي لا أعبد الذي فطرني﴾ ولم يقل ﴿فطركم﴾، لأنه هو الأهم من المقصود من السياق.

١٢ ــ قال ﴿فطرني﴾ ولم يقل ﴿فطركم﴾ لأنه يتحدث عن نفسه وليس عنهم، ولتناسقه مع قوله ﴿وما لي لا أعبد﴾، حيث أسند العبادة إلى نفسه فناسب أن يسند الخلق إلى نفسه.

١٣ ــ يتضمن قوله ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعون﴾ الخوف والرجاء في عبادة الله، فمن يكون إليه المرجع والمآب، يُخَاف منه ويُرْجى.

١٤ ــ هناك حكمة لطيفة من الالتفات إليهم في قوله ﴿وإليه تُرجعون﴾ ليبيِّن الفرق بينه وبينهم في الرجوع إلى الله، فرجوعه هو إلى الله ليس كرجوعهم هم.

رجوعه هو إلى الله رجوعُ العابد المؤمن بالله، ولهذا رجوعُه للإكرام والإنعام.

أما رجوعهم هم فهو رجوعُ الكافر العاصي، ليحاسَب ويعاقَب ويعذَّب، فرجوعهم للعذاب والإهانة.

وشتان بين الرجوعَيْن!

١٥ ـ في قوله ﴿أأتخذ من دونه آلهة﴾ إشارةٌ إلى كمال التوحيد، فقوله ﴿وما لي لا أعبد الذي فطرني﴾ إشارةٌ إلى وجود الله، وفي قوله ﴿أأتخذ من دونه آلهة﴾ إشارةٌ لنفي الشرك به وعدم عبادة غيره.

١٦ ـ في قوله ﴿من دونه آلهة﴾ إشارة لطيفة، فالدونيَّةُ هنا مقصودة، فبما أنه ثبت أن الله وحده هو الخالق المعبود، فكل غير الله هم ﴿من دونه﴾ وهؤلاء جميعاً مشتركون في كونهم مخلوقين ضعفاءَ، محتاجين إلى الله، مفتقرين إليه، ولذلك يجب أن يكونوا جميعاً عابدين له. وبما أنهم كلهم ﴿من دونه﴾ شركاء في الدونية، فكيف يكون من بينهم آلهة؟.

١٧ ـ في قوله ﴿إني آمنتُ بربكم﴾ يخاطب الجميع، سواء كانوا من المرسَلين أو من أهل القرية، لكنه أول ما يتوجه إلى أهل القرية، حيث يثبت لهم أن الله هو وحده ربُّهم.

١٨ ـ في قوله ﴿فاسمعون﴾ ما يدلّ على أنه كلامُ متروٍّ مفكِّر، فإن المتكلم إذا كان يعلم أن لكلامه جماعةً سامعين، فإنه يتفكر فيه.

كما أنه يَقصد أن يُسمعَهم ليقيم الحجة عليهم، وكأنه يقول لهم: إني أخبرتُكُمْ بما فعلتُ، حتى لا تقولوا: لِمَ أَخْفَيْتَ عنا أمرَك، ولو أظهرتَ أمرَكَ لاتّبعناك.

١٩ ـ المراد بالسماع في قوله ﴿فاسمعون﴾ ليس مجرد سماع الصوت، بل قبولُ الدعوة، والاستجابة لصوت الحق، والدخول في الإيمان(١).

---

(١) تفسير الرازي ٢٦ : ٥٤ ـ ٦٠ بتصرف واختصار.

بين هذا الرجل وبين صاحب موسى:

رجلان مؤمنان، وقَفا موقفيْن إيمانييْن مشهوديْن:

أحدهما: صاحب موسى في سورة القصص.

والثاني: صاحب يسن في قصة أصحاب القرية.

وعندما تحدث القرآن عن كل منهما، حصل اختلاف في التعبير عن ذلك:

قال القرآن عن صاحب موسى عليه السلام: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى. قَالَ: يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ. فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾[1].

وقال القرآن عن الرجل صاحب يسن: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى، قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾.

ونلاحظ في التعبير أنه بالنسبة لصاحب موسى قدَّم ذكْر الرجل وأخبر عن المكان الذي قدم منه وهو أقصى المدينة. بينما الرجل صاحب يٰس قدَّمَ ذكْر المكان الذي قدم منه، وأخر ذكر الرجل.

فما هي الحكمة من ذلك؟

إن ترتيب كلمات الجملة في الآية، على حسب السياق والمقصود منه.

ففي قصة موسى في سورة القَصص، كان المقصود هو الإشارة إلى موقف الرجل الناصح الذي جاء يحذِّر موسى، وينصحه بمغادرة المدينة، ولم يكن المقصود بيانُ المكان الذي جاء منه، فلا يهم إن جاء من أقصى المدينة أو من طرفها. ولهذا قدم ذكره ــ والله أعلم ــ.

(١) سورة القَصص: آية ٢٠ .

أمـا في قصة أصحـاب القريـة فإن المقصـود هو المكـان الذي قَـدِمَ منه الرجل أوَّلاً، ليشير إلى وصول دعوة الرسل الثلاثة إلى أبعد نقطة في المدينـة، وهي أقصى المدينة، فلماذا لا يستجيبُ أهل القرية للرسل وهم قريبون منهم؟ ولهذا قدَّم ذكْر المكان الذي قدم منه الرجل يسعى ـ والله أعلم ـ .

يقول حول هذا التقديم والتأخير الإمام المبدِع ابن الزبير الغرناطي، في كتابه الفريد «ملاك التأويل»:

إن وروده في سورة القَصص متقدِّمـاً ﴿وجاء رجـل من أقصى المدينـة﴾ واردُ على الـوضـع الطبيعي، لأن مـرتبةَ الفـاعـل في الأصـل أن يتقـدَّم بحيث يلي الفعل.

أما تأخيرُ الفاعل في سورة يسن وتقديم المجرور عليه ﴿وجاء من أقصى المدينة رجل﴾، فإنه يشير إلى معنى جـليـل، وهو فضيلةُ السـابق إلى الإيمان ولو بَعُدَتْ إقامته، فَبُعْدُ الدار لـم يضره طالما هو قـريبٌ من الرسـل بقلبه، وفي المقابل فإن الكافر القريبَ من الـرسل بـداره لم ينفعه ذلـك القربُ المكـاني، لوجود الكفر عنده يُبْعِدُ المنزلةَ بينه وبين الرسل.

وفي هذا إشارة إلى حال قريش وحال الأنصار في المدينة.

فقريش قريبةٌ في المكان من رسول الله ﷺ، ولكنها بعيدةٌ عنه بقلوبها، فلم ينفعهـا ذلـك القـربُ الحسّي. أمـا الأنصـار فـإن بُعْـد الإقـامـة والمكـان لم يمنعهم من الاقتراب من رسول الله عليه الصلاة والسلام والدخول في دينه.

فموقف قريش يشبـه موقفَ أهـل القريـة. وموقف الـرجل المؤمن يشبـه موقفَ الأنصار.

فمجيء الرجل المؤمن من أقصى المدينة مثال لمن بَعُدَ منزلُه فلم يضرَّه، وذكْـر أهلِ القـرية مثـال لمن قرُب وطـالت مباشـرتُه ولم ينفعـه قـربُـه. فقـدَّم

المَجرور على الفاعل في سورة يٓس ليحقق المعنى المقصود، فالتقديم للاعتناء»[1].

الوصف بالرجولة للمدح والتعظيم:

وصف القرآنُ ذلك المؤمن بالرجولة. وهذا الوصف للمدح والثناء والتكريم والتعظيم.

ومعلوم أن هناك فرْق بين الرجولة وبين الذكورة، فإن الذكورة تقابل الأنوثة. فالزوجان هما الذكر والأنثى.

لكن لا تستلزم الذكورةُ الرجولةَ، بل هي مظنَّة لوجودها فقط. فليس كل ذَكر رجلاً، ولكن كل رجل ذكر.

الذكورةُ صفةٌ جسديةٌ بدنيةٌ ليس إلاَّ.

لكن الرجولةَ تشير إلى القوة والشدة والتحمُّل والشجاعة والثبات، فهي تشير إلى صفاتٍ نفسية، ومزايا معنوية، وفضائل أخلاقية.

ولعله لأجل هذا وردت صفة الرجولة في مقام مدحٍ وثناءٍ وإشارةٍ:

قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى، قَالَ يَا مُوسَى إن الملأ . . .﴾.

وقال تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعوا الْمُرْسَلين﴾.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَه . .﴾[2].

وقال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدوا الله عَلَيْهِ﴾[3].

---

(١) ملاك التأويل لابن الزبير ٢: ٧٥٦ ـــ ٧٥٨ بتصرف واختصار.

(٢) سورة غافر: آية ٢٨.

(٣) سورة الأحزاب: آية ٢٣.

وقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالغُدُوِّ والآصال، رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةَ وَإِيتاء الزَّكَاة﴾(١).

وقَالَ تعالى: ﴿فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّروا. وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرين﴾(٢).

إنه لا يقدِّر الرجال إلَّا الرجال، ولا يثبت معهم إلَّا الرجال.

حكمة أخرى من تنكير الرجل:

ردَّدْنا فيما سبق مع الإمام الرازي حكمتيْن لتنكير كلمة «رجل»: الأولى للثناء عليه. فالتنكير للتكريم والتعظيم.

والثانية: لإبعاد التهمة عنه ونفي التواطؤ بينه وبين المرسلين، فهو رجل من بين الرجال، لا معرفة مسبقة بينه وبينهم.

لكننا نلحظ حكمةً أخرى من تنكير كلمة «رجل»: فالتنكير هنا للإبْهام والإجمال، لا للتحديد والتبيين والتوضيح.

إنه رجل مبهَم من بين الرجال، رجل غيرُ معيَّن ولا مبيَّن ولا محدَّد. وقصَد القرآنُ إلى إبهامه. فلا يعنينا اسمُه ولا معرفةُ قومه أو أهله، لا عملُه ومركزُه. فكل هذه مبهمات سكت عنها القرآن، ولو علم الله أن في بيانها خيراً أو فائدة أو نفعاً، لبينها وحددها. ولكنه علم أنه لا فائدة ولا نفع منها فأبقاها على إبهامها، وجاء بدلها بالتنوين ـ تنوينْ التنكير والإبهام ـ.

ولذلك لم يَفْهم عن القرآن هذه الإشارة كلُّ الذين خاضوا في تعيين وتبيين ذلك الرجل. فقال بعضهم هو يوسف النجار وقال آخرون هو شمعون. أما نحن فقد وعَيْنا عن القرآن إشارتَه وقصْدَه لإبهام الرجل، ولذلك لم نحاول تعيينه، ولم نقل في ذلك شيئاً.

---

(١) سورة النور: آيتا ٣٦ ـ ٣٧.

(٢) سورة التوبة: آية ١٠٨.

آمنت بربكم فاسمعون:

ونقف لحظةً أمام قول الرجل المؤمن «إني آمنت بربكم فاسمعون» لنأخذ منه درساً إيمانياً بالغاً:

إنه دافَع عن المرسلين، ودعا قومه إلى اتباعهم، ونَصحهم بالتخلي عن ما هم فيه من الكفر، وأَتْبع هذا النصح والبيان بحركة عملية واقعية حيث أعلن عن إيمانه واتِّباعه المرسلين، وطلب من قومه أن يسمعوا ما يقول، وأن يفهموا حقيقة ما يفعل.

لقد سبق أن أوردْنا ملاحظة الإمام الرازي، من أن قوله لقومه «فاسمعون» يدل على أن كلامه كلامُ رجل متروٍّ مفكّر، وليس نتيجة فورةٍ أو عاطفة أو اندفاع، وأن حقيقة قوله «فاسمعون» يعني استجيبوا إليَّ وادخلوا فيما دخلتُ فيه.

لكن الذي يعنينا هنا هو فهمُ حقيقة موقفه، وبيانُ وجه الاقتداء به:

إن خطوته العملية الإيمانية تُعتبر مَعْلماً بارزاً من معالم الطريق إلى الله، والدعوةِ إليه، حيث أَتْبع القناعة النظرية بحركة عملية، وهذا دليل على قوةِ وحيوية وفاعلية إيمانه، إذ لم يقبل أن يبقى في منطقة الذهن النظري فقط، بل أثبتَ نفسَه في عالم الواقع.

وخطوةُ ذلك الرجل المؤمن تُعتبر موقفاً إيمانياً عظيماً، وتدل على أن الحياة فعلاً مواقف، وأن الرجال بمواقفهم لا بأعمارهم، لقد آمن في وقتِ المحنة والشدة والابتلاء، واتَّبع المرسلين وهم مستضعَفون، وتحدى بذلك القوةَ المادية الغاشمة، وأعلن عن إيمانه وطلب منهم أن يسمعوه. مع أنه يرى الخطر أمامه، ويتوقع أن يناله الأذى والمكروه، وقد يؤدي موقفُه إلى إزهاق روحه، ومع ذلك آمن وأعلن إيمانه، واستعد لتحمُّل نتيجةِ موقفه.

وقد تُعتبر خطوته تلك تهوُّراً، وقد يُعتبر موقفه ذلك انتحاراً، وإلقاءاً

بنفسه إلى التهلكة، لكن عند أصحاب النظرة المادية التجارية، الذين يقيسون عالم الإيمان والدعوة كما يقيسون عالم المال والتجارة، وما فيه من أرباح وخسائر، فلا يُقْدمون إلَّا إذا ضمنوا الربح المادي في هذه الدنيا.

وهذه النظرة مرفوضة وملغاة في عالم الإيمان والدعوة، أليس قد آمن وصدَّق واقتنع؟ فلماذا لا يُعلن إيمانه، ويدعو قومه للاقتداء به؟ أليس المرسَلون بحاجة إلى من ينصرهم ويقف معهم؟ فلماذا يجبن عن ذلك الموقف؟.

ما الذي يمنعه من ذلك الموقف؟ هل هو الخطر والأذى والمحنة والتعذيب؟ ومنذ متى كانت هذه الأمور صوارفَ تصرفُ عن الإيمان،أو معوقاتٌ تعيق عن الدعوة؟

ثم هو الرابح الفائز في الحقيقة، باختياره لطريقه الجديد، وإعلانه عنه، ودعوته الآخرين لاتباعه.

ويبقى موقفُ ذلك الرجل الإيماني مُعْلَماً بارزاً على الطريق إلى الله، يَقتدي به الدعاةُ في انحيازهم إلى جانب الحق والتزامهِ والدعوة إليه. ولسانُ حال أحدهم يقول للآخرين «آمنت بربكم فاسمعون».

ولا ينتصرُ الحق، ولا يتعرف عليهِ الناس إلَّا بأن نكون نحن معه، ونتبعه ونعلن عن ذلك، ونرفع أصواتَنا لإسماع الآخرين وإقامة الحجة عليهم.

إذا لم نُسمعْهم نحن فمن هو الذي يُسمعهم؟ وإذا جبُنّا عن تمثيل صوت الحق فمن هو الذي يمثِّله؟ وإذا لم نفعل هذا فكيف يتم البلاغ؟ وكيف نقدِّم لهم الحق؟ وكيف نقيم عليهم الحجة؟

إن الحياةَ لا تزكو ولا تَحلو إلا بنصرة الحق وتحدِّي الباطل، وإن الرجال المؤمنين لا يُعرفون ولا يرتقون ولا يَسْمُون إلَّا بمواقِفهم الإيمانية.

فَلْنجعل موقف ذلك الرجل موقفاً دَائماً لنا، ولنجعل هُتافه هُتافاً لنا، وشعاراً لنا، وإعلاناً لنا: «إِني آمنت بربكم فاسمعون».

ماذا جرى للرجل بعد إيمانه؟

سكت القرآن عن بيان ما جرى للرجل بعد إعلان إيمانه، وقوله: «إِني آمنت بربكم فاسمعون» وتركها «فَجْوَة» فنية في السياق القصصي والعرْض الفني، وترك لخيال القارىء أن يملأها، من خلال تصوُّره أو توقُّعه لما سيصيبه.

إن ما جرى له معروف من خلال الجو الذي يعيشه، والناس الذين حوله، وإلاَّ فماذا نتوقع لرجل أعلن إيمانه، وسط قوم من الكفار، يستعدون لمحاربة المرسلين، ويقولون لهم: ﴿لئن لم تنتهوا لنرجمنَّكم وليمسنَّكم منا عذاب أليم﴾؟

إنهم سيرجمون ذلك الرجل الذي تجرأ وتحدَّاهم، وسيناله منهم عذاب أليم.

إن هذه النهاية متوقَّعة، ولكننا لا نقول شيئاً في تفصيلها، فلا نُثبت فيها أحداثاً وتفصيلات لم تحدث يقيناً. صحيح أن السابقين سجَّلوا بعض تلك الأحداث والتفصيلات، وقالوا: فعلوا به كذا وكذا. لكن ليس لكلامهم دليل صحيح نذهب إليه، وكلُّ ما سجلوه إما أخذوه من الأساطير أو الإسرائيليات، ونحن لا نجيز الأخذ عنها، وإما سجلوا ما توقعوه بخيالهم، وهذا التوقُّع المتخيَّل لا يلزم أن يكون هو ما حصل في عالم الواقع.

يجب أن نبقى عند حدود النص القرآني، لا نجاوزه ولا نتعدّاه، فالرجل آذاه قومه وعذبوه واضطهدوه، ولعلَّهم قتلوه وأزهقوا روحه، لأن هذا ما يشير به القرآن في قوله: ﴿قيل ادخل الجنة﴾ أما تفصيلات ما جرى له فلا نقول فيها شيئاً!

قيل ادخل الجنة:

وقف المفسرون أمام حقيقة قوله ﴿قيل ادخل الجنة﴾. فذهب بعضهم إلى أنه قيل له ذلك، وأن الملائكة قد أخذتْه وأدخلتْه الجنة فعلاً، وأنه يعيش فيها حقيقة.

وذهب بعضهم إلى أنه لم يدخل الجنة حقيقة، لأن دخول المؤمنين الجنة لا يكون إلَّا بعد البعث والحساب يوم القيامة، وقرروا أن قوله: ﴿أُدْخُل الجنة﴾ يعني إخبارَه بأنه استحق دخول الجنة بموقفه الإيماني، وتبشيره بذلك، لينال عاجل البشرى[1].

ونحن مع القول الثاني ـ والله أعلم ـ

إنه يستحق البشارة باستحقاقه الجنة، وأنها وجبتْ له، لموقفه الإيماني، يستحق ذلك لانحيازه إلى جانب الحق، وتحديه للباطل.

ونقف هنا لنتساءل: هل كان خاسراً في اختياره وموقفه أم كان رابحاً فائزاً؟

ما الذي دفَعه ثمناً لإيمانه؟ دفع حياتَه وعمرَه ودنيَاه، وهو هبة ومنحة من الله.

لكن ماذا نال؟ نال الجنة. الأمَل والغايةَ والهدفَ.

نال الجنة بحياتها الدائمة، ونعيمها الخالد، ولذّاتها المتجددة.

هل يمكن أن تسمي هذا خسارة؟

لقد كان رابحاً ربحاً وفيراً، وفائزاً فوزاً عظيماً، رابحاً وفائزاً بجميع الحسابات والمقاييس والموازين أليس نال الجنة؟ أليس قيل له ﴿ادخل الجنة﴾؟ فماذا يريد غيرها؟.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٥: ١٩.

وهكذا كل مَنْ اختار جانب الحق، ونصر دين الله وجنودَه، والتـزم دعوة الله، وواجه أعداء الله، واستعلى على مـا يواجهـه في سبيل الله، ودفـع الثمن راضيـاً، محتسباً لله، إنـه بـذلـك يَـدخـل الجنـة، ويستحق مـا فيهـا من نعيم مقيم. وتبشره الملائكة بقولها «ادخل الجنة».

قال: يا ليت قومي يعلمون:

بعد تبشيره باستحقاقه الجنة تذكَّر قومه الذين آذوه، فقال: «يَا لَيْتَ قَوْمي يَعْلَمون، بما غَفَرَ لي رَبِّـي وَجَعَلَنِي مِنَ المُكْرَمين».

وقد قال المفسرون في حقيقَة تمنيه بقولين:

الأول: أنَه تمنى أن يعلموا بحاله، ليعلموا حُسْن مآله.

الثاني: أنه تمنى ذلك ليؤمنوا مثل إيمانه، فيصيروا إلى مثل حاله. ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: لقد نَصَحَ قومه حياً وميْتاً[1].

وقد رجح الإمام الزمخشري الاحتمال الثاني، وأيد ابنَ عباس فيما رُوي عنه، وأَخَذَ من ذلك دلالة لطيفة قال فيها:

«وفي هذه الآية تنبيه عظيم، ودلالـة على وجوب كـظم الغيظ، والحلمِ عن أهـل الجهـل، والتـرؤُّفِ على من أدخـل نفسـه في غمـار الأشـرار وأهـل البغي، والتَّشَمُّـر في تخليصه، والتلطفِ في افتـدائه، والاشتغـالِ بذلـك عن الشمـاتة بـه، والدعـاء عليه، ألا تـرى كيف تمنّى الخير لقتلتـه، والبـاغين لـه الغوائل، وهم كفرةٌ عبدة أصنام»[2].

تمنى أن يعرف قومه نهـايته وعاقبته، لعلهم يُسْلمون.

---

(١) انظر تفسير القرطبي ١٥: ٢٠.

(٢) الكشـاف للزمخشـري ٣: ٣١٩ ـ ٣٢٠ وعنـه أخـذ مفسـرون آخـرون بـالنص، أنـظر القرطبـي ١٥: ٢٠ وقارون بينهما لتقف على كيفية تقويم التفاسير.

لقد قتله قومه، وقضوا عليه، وأوقعوه في خسارة بالغة وما دروا أنهم بذلك قد قدَّموا له خيراً ومعروفاً، لقد جعلوه يغادر هذه الدنيا غيرَ آسف عليها، ويُحرمُ مما فيها من لذات زائلة، وحياة منغَّصة، ويَذهب إلى الجنة الغالية ذات النعيم الدائم والحياة الخالدة.

قدموا له خيراً ومعروفاً من حيث لم يقصدوا ولم يريدوا. ولهذا تمنّى لهم الهداية. فنصحهم في حياته ونصحهم في مماته.

«بما غفر لي ربي وجعلني من المُكْرَمين» متى غَفَر له؟ ومتى أَكْرمه؟ بعد نصرته لدين الله، واتباعه المرسلين، ومواجهته للكافرين.

لو بقي على قناعته النظرية، ولو لم يخطُ خَطوتَه العملية فهل كان سينال المغفرة، ويحظى بذلك التكريم؟

وهكذا كلُّ داعية إلى الله، يصيبه ما يصيبه من أجل دعوته وطريقه، وعندما يعرف ما أعد الله له من جنة ونعيم ومغفرة وتكريم، يتمنى لو يعلم قومه الذين آذوه عاقبتَه، فيأسى لهم، ويشفقُ عليهم، ويحزنُ لحالهم، ويرجو لهم الهداية والإيمان والالتزام ليحظوا بالخير العميم.

وشتان بين الموقفين!.

إهلاك أهل القرية:

رفضَ أهل القرية الدعوةَ إلى الإيمان، وكذَّبوا الرسل وآذوهم، واضطهدوا الرجل الذي آمَن. ولعلَّهم قتلوا الرسل والذي آمن معهم.

وبسبب تلك الجرائم استقدَموا عذاب الله وبأسه وانتقامه، فجاءهم سريعاً، إذ لم يرسل الله عليهم جنداً ملائكةً مِن السماء لإهلاكهم، بل أخذهم بالصيحة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ، وَمَا كُنّا مُنْزِلين إنْ كَانَتْ إلاّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإذا هُمْ خامِدون﴾.

لقد أخذتهم الصيحةُ من السماء، فإذا هم خامدون كما تخمد النار بعد الاشتعال، إذا هم جثثٌ هامدة بعدما كانوا يملأون الأرض حركةً ونشاطاً وبَغْياً وكفراً وإفساداً.

ولقد عذَّب الله كفاراً بالصيحة:

فقوم ثمود لما كذبوا صالحاً عليه السلام وعقروا الناقة قال الله عنهم: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ، فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِين، كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فيهَا﴾(١).

وقوم مدين لما كذبوا شعيباً قال الله عنهم: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمينَ، كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا. أَلاَ بُعْداً لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمود﴾(٢).

وقوم لوط: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقين، فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجّيل﴾(٣).

وقال الله عن عاد وثمود وقارون وفرعون وهامان: ﴿وَعَاداً وَثَمودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ، فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبيل، وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِين. وَقَارونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَان، وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَات، فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ، وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ: فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْض. وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا. وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمون﴾(٤).

---

(١) سورة هود: آيتا ٦٧ ــ ٦٨.

(٢) سورة هود: آيتا ٩٤ ــ ٩٥.

(٣) سورة الحجر: آيتا ٧٤ ــ ٧٥.

(٤) سورة العنكبوت: آيات ٣٨ ــ ٤٠ .

وبالنسبة لأهل القرية، وقف الإمام الزمخشري متسائلاً عن الْحِكْمة من عدم إرسال الملائكة جنوداً عليهم لتدميرهم، بل إهلاكهُم بِالصَيحة. بينما أنزل الله الملائكةَ يوم بدر والخندق لنصرة رسوله ﷺ وإهلاكِ الكفار من قريش والأحزاب.

قال في الجواب: «إن الله أجرى هلاك كل قوم على بعض الوجوه دون بعض، وما ذلك إلَّا بناءً على ما اقتضتْه الحكمة، وأوجبتْه المصلحة. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حاصِبا، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَة، وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْض، وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا﴾.

فإن قلتَ: فَلِمَ أَنْزَلَ الجنودَ من السماء يوم بدر والخندق؟ قلت: إنما كان يكفي مَلَكٌ وَاحَد، فقد أُهْلكت مدائن قوم لوط بِريشة من جناح جبريل، وبلاد ثمود بصيحة منه.

ولكن الله فضَّل محمداً ﷺ بكل شيء على كبار الأنبياء وأولي العزم من الرسل، وَأَوْلاه من أسباب الكرامة والاعزاز ما لم يُولِ أحداً، فمن ذلك أنه أنزل له جنوداً من السماء.

وكأنه أشار بقوله: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنّا مُنْزِلين﴾ إِلَى أَنَّ إنزالَ الجنود من عظائم الأمور التي لا يؤهَّل لها إلَّا مثلك، وما كنا نفعله بغيرك»(1).

أما الأستاذُ الإمام سيد قطب فيسجل حكمةً أخرى من إهلاكهم بالصيحة وعدم إنزال الجنود من السماء عليهم. وذلك حيث يقول:

«ولا يطيلُ هنا في وصْف مصرع القوم، تَهويناً لشأنهم، وتصغيراً لقدرهم.

---

(1) الكشاف ٣: ٣٢٠.

فما كانت إلَّا صيحة واحدة أخمدت أنفاسهم . . ويُسدل الستار على مشهدهم البائس المهين الذليل»[1].

لمّا جاءهم أمر الله عجزوا عن مواجهته، ولم ينفعهم ما هم عليه من كفر وبغي، ولم يجدوا مَنْ ينصرهم من دون الله.

الصيحة واحدة، فإذا هم خامدون. ليسوا غالبين ولا منتصرين، وغادروا هذه الدنيا أذلّاء مهانين، وهم الذين كانوا يتهددون ويتوعدون، ويقولون للرسل: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وليمسنَّكُمْ مِنا عَذَابٌ أَلِيم﴾.

ألا ما أَضعفَ الإنسان، وما أعجزه عن دفْع قدر الله إذا ما وقع به.

أما الكافرون فما أشد غباءَهم وجهلهم وسذاجتهم، إنهم يظنون أنفسهم أقوياء، فإذا هم أمام الله ضعافاً مهازيل أذلاء مُهَانين. إنهم يستطيلون على دعوة الله، وينتقصون من دين الله، ويؤذون جنود الله، ويعذّبون أولياء الله، ويظنون أنفسهم ناجين من عذاب الله. أليسوا جهلاء أغبياء في ذلك التصور وتلك الأعمال؟.

ومتى وقع بهم عذاب الله؟ ومتى أخذتْهم الصيحة،؟ إنها بعد تكذيبهم وتعذيبهم للمرسلين. إنهم بذلك قد جَنَوْا نتيجة أعمالهم، وقطفوا ثمار طغيانهم وبغيهم وإجرامهم.

وهذه هي سنة الله في إهلاك القوم الكافرين. حيث يأخذهم بسبب بغيهم وكفرهم. ونتيجة إيذائهم لجنوده وأحبابه وأوليائه.

يا حسرة على العباد:

وقبل أن نغادر قصة أصحاب القرية، نقف لحظة أمام تعقيب القرآن على قصتهم، وأخْذهم بالصيحة، لنستخلص منه درساً دائماً، وعبرة بالغة.

---

(١) الظلال ٥: ٢٩٦٤.

قال تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ، مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئون. أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ القُرونَ، أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعون. وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرونَ﴾[1].

قال الأستاذ سيد قطب في بيان هذا التعقيب:

«والحسرة إنفعالٌ نفسي على حال مؤسِفة، لا يملك الإنسان شيئاً حيالها، سوى أن يتحسَّر وتأْلَم نفسُه.

والله سبحانه وتعالى لا يتحسر على العباد، ولكنه يقرر أن حالة هؤلاء العباد مما يستحق حسْرة المتحسِّرين! فهي حال بائسة مؤسفة تنتهي بأصحابها إلى شر وخيم وبلاء عظيم!.

يا حسرة على العباد: تتاح لهم فرصة النجاة فيعرضون عنها، وأمامهم مصارع الهالكين قبلهم لا يتدبرونها ولا ينتفعون بها. ويفتح الله لهم أبواب رحمته بإرسال الرسل إليهم الحين بعد الحين، ولكنهم يتجافون أبواب الرحمة، ويسيئون الأدب مع الله»[2].

إن الكفار الظالمين لا يعتبرون مما جرى لمن قبلهم، ولا يتعظون من أحداث التاريخ، ويتعاملون مع الدعاة الناصحين المصلحين بسذاجة وجهل وغباء، فيظلمونهم ويؤذونهم ويعذبونهم ويقتلونهم، فتحق عليهم سنَّة الله، فيأخذهم ويهلكهم ويدمرهم.

إنهم بسذاجتهم وغبائهم يستحقون الحسرة والإشفاق والأسى، فيا حسرة على العباد.

تكذيب الكفار بالحق وأهله سنَّةٌ دائمةٌ، واستهزاؤهم بأولياء الله ومحاربتهم سنَّةٌ دائمةٌ، لكن نصرَ الله لأوليائه وإنجاءهم سنَّةٌ ربانيةٌ، وإهلاكه للكفار وتدميرَهم سنَّةٌ ربانية. ويا ليت قومي يعلمون!.

---

(١) سورة يٓس: آيات ٣٠ ـ ٣٢.

(٢) الظلال ٥: ٢٩٦٦ ـ ٢٩٦٧.

٨

قِصَّةُ أَصْحَابِ الأُخْدُودِ

قِصَّة أَصْحَاب الأُخْدُود

إشارات سورة البروج :

قال تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ
﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ
بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ
مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ
وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ
لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا
يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾
وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾ ﴾[1] .

لفتات مـن الآيـات :

سورة البروج المكّيةُ القصيرة، تعرض ـ كما يقول سيّد قطب ـ «حقائق العقيدة، وقواعد التصور الإيماني . . أموراً عظيمة، وتشعُّ حولها أضواءً قوية

---

(١) سورة البروج .

بعيدة المدى، وراء المعاني والحقائق المباشرة التي تعبِّر عنها نصوصها، حتى لتكاد كل آية ـ وأحياناً كل كلمة في الآية ـ أن تفتح كوَّة على عالم مترامي الأطراف من الحقيقة)[1].

وتعرض هذه السورة قصّة أصحاب الأخدود، فهي موضوعُها الأساسي، لكنها تعرضها على طريقة القرآن في عرض قصص السابقين، حيث يغفل ـ غالباً ـ عامداً الحديث عن تفصيلات القصّة، وأسماءِ أبطالها، ومكانها وزمانها، ولا يعرض من تفصيلاتها ومشاهدها ولقطاتها إلاّ بمقدار ما يحقق العبرة والعِظَة.

هكذا عرضت سورةُ البروج قصةَ أصحاب الأخدود.

وسوف نقف وقفات سريعة أمام الآيات وهي تتحدث عن القصة، ونستخرج منها بعض اللفتات والإشارات والإيحاءات:

القَسَم في السورة:

١ ـ مهَّدَت السورة للقصة بجو عظيم وهو جو القَسَم. حيث أقسمت بأربعة أشياء:

(أ) أقسَمَتْ بالسماء ذات البروج ـ ومنه أخذت السورة اسمَها ـ والسماء عظيمة ضخمة واسعة، وبروجُها عظيمة كذلك ضخمة. وقد يُرادُ بالبروج النجومَ الكبيرة أو المجرات الهائلة، أو يراد بها منازل تلك النجوم والكواكب، التي تنتقل إليها فيّ جريانها في الفضاء. وعلى كلا الأمرين تُلقي ظلَّ الضخامة والاهتمام[2].

(ب) وأقسَمَتْ باليوم الموعود، وهو يوم القيامة، الذي وعده الله المؤمنين.

---

(١) الظلال ٦: ٣٨٧١.

(٢) الظلال ٦: ٣٨٧٣.

(ج) وأقسَمَتْ بالشاهد، وقد يراد بالشاهد رسول الله ﷺ، الذي يستشهده الله على الأمة. كما قال الله عنه: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾[1]. وقد يراد به الشاهد ـ أيُّ شاهد ـ الذي يستشهده الله يوم القيامة.

(د) وأقسَمَتْ بالمشهود، والمشهود قد يكون يوم القيامة، لأن جميع الخلائق تشهده، وكما قال الله عنه: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاس، وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهود﴾[2]. وقد يُراد به الأعمال التي تكون مشهودة، يشهدُها أصحابها في ذلك اليوم.

وتعتبر هذه الأمورُ الأربعة العظيمة بدايةً جيدة للحديث عن قصة أصحاب الأخدود، حيث تمهِّد برسم الجو الخاص الذي تُعرض من خلاله أحداث القصة.

قال الأستاذ الإمام سيد قطب عن هذا الجو:

(وتلتقي السماء ذات البروج، واليوم الموعود، وشاهد ومشهود، تلتقي جميعاً في إلقاء ظلال الاهتمام والاحتفال والاحتشاد والضخامة، على الجو الذي يُعرض فيه بعد ذلك حادث الأخدود. كما توحي بالمجال الواسع الشامل الذي يوضَع فيه هذا الحادث، وتوزَن فيه حقيقته، ويُصفّى فيه حسابه. وهو أكبر من مجال الأرض، وأبعد من مدى الحياة الدنيا، وأَجلِها المحدود)[3].

---

(١) سورة الفتح: آية ٨.

(٢) سورة هود: آية ١٠٣.

(٣) الظلال ٦: ٣٨٧٣.

من صفات الطواغيت:

٢ ـ قُتل أصحاب الأخدود: وأصحابُ الأخدود هم الظالمون الكافرون، الذين حَفَروا الأخدود في الأرض ثم أشعلوه ناراً، ثم ألقوا فيه المؤمنين، وتفرجوا عليهم وهي تأكلهم النار.

وفي الآية دعاءٌ عليهم بالقتل. والدعاء من الله واقع لا محالة، ودعاء الله عليهم بالقتل يدل على بشاعةِ وشناعةِ وقبحِ جريمتهم، ويدلّ على مدى ظلمهم وبغيهم الذي أغضب اللَّهَ سبحانه عليهم، فدعا عليهم بالقتل.

٣ ـ النارِ ذات الوقود: ووردت النار في السورة بدلاً من الأخدود: الأخدودِ النارِ ذات الوقود. وهذا يوحي بعِظم وضخامة النار التي أوقدوها في الأخدود. والتي تدلّ على مدى حقدهم على المؤمنين، حيث سعَّروها وزادوها، لتقضي على مخالفيهم ليستريحوا منهم.

٤ ـ إذ هم عليها قعود: إنهم قاعدون على جوانب النار ذات الأخدود، قاعدون يتفرجون على منظر المؤمنين وهم يحترقون بالنار، قاعدون يتسلون ويتفرجون ويتلهون ويتمتعون. وهل منظر حرْق المؤمنين بالنار يدعو إلى الفرجة والتسلية؟ هل هو ملهاة؟ ماذا تقول عن الذين يفعلون ذلك؟ هل هم بشر؟ هل بقي عندهم شيء من المشاعر والعواطف والأحاسيس؟ لقد فقدوا كل ذلك، وتحوّلوا إلى جمادات ميتة فاقدة الإحساس.

لكن هل هم وحدهم الذين كانوا يتفرجون ويتسلّون على إحراق المؤمنين؟ إن الذين يفعلون فعلهم ويقتدون بهم من الطواغيت البغاة، كثيرون في هذه الدنيا. وقد سجَّل التاريخ ـ وبخاصة المعاصر منه ـ نماذجَ بشعةً مفزعةً لهؤلاء الطواغيت، الذين قعدوا في ساحات وغرف التعذيب، يتسلون ويتفرجون على منظر التعذيب الوحشي الرهيب للمؤمنين.

٥ ــ وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود: هم شهود يشاهدون تعذيب المؤمنين وحرْقهم بالنار. وهذا يعني أن أعوانهم من الجلادين البشعين ما كانوا يفعلون ذلك إلّا بإذنهم ورضاهم وقبولهم. إنهم يشاهدون ذلك التعذيب برضى، ويتابعونه بشغف واهتمام.

الشهود في سورة البروج:

وردت الشهادة ومشتقاتها أربعَ مرّات في سورة البروج:

مرّتان عن الشاهد والمشهود ﴿وشاهد ومشهود﴾. بمعناه العام الذي يشمل رسولَ الله الشاهد وغيرَه من الشاهدين، ويشمل يوم القيامة المشهود وغيره من الأعمال المشهودة.

ونلاحظ أن كلمة «شاهد» اسم فاعل. وكلمة «مشهود» اسم مفعول.

ومرة عن أصحاب الأخدود الشاهدين على التعذيب، المشاهِدين لحرْق المؤمنين بالنار: ﴿وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود﴾.

والمرة الرابعة تحدث فيها عن شهود الله لهذه المعركة وغيرها. فهو الله الذي له ملك السموات والأرض، وهو على كل شيء شهيد.

ومعنى كون الله شهيداً: أنه شاهد على ما وقع من الطغاة، وأنه شاهد على ثبات المؤمنين على إيمانهم، وأنه شاهد على ثواب المؤمنين وتعذيب الكافرين.

ذنب المؤمنين عندهم:

ما هو ذنْب المؤمنين الذي استحقّوا به الإحراقَ بالنار؟ ما هي جريمتهم؟ ما هي تهمتهم؟

الجواب في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ. الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْض، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد﴾.

إنَّ ذَنْبَهُم الوحيد عند قومهم هو إيمانهم بـالله! وهل الإيمـان بالله وحـده ذنْب يلام عليه صاحبه؟ وهل المؤمن مذنب؟

ما هو الذنب في الحقيقة؟ إنه الكفر والظلم والعصيان.

ومن هو المذنب في الحقيقة؟ إنه الكافر والظالم والعاصي.

فكيف انقلبت المفاهيم والموازين عند القوم الكفار أصحاب الأخـدود؟ وكيف نظروا للإيمان والكفر بذلك المنظار المادي الجاهلي المنحرف؟

جـريمـة المؤمنين والمؤمنـات في هـذه القصـة هي في عبـادتهم لله وعبوديتهم له، وخضوعهم له، واستسلامهم له. إنها جريمة بشعة استحقوا بها أن تُشق لهم الأخاديد في باطن الأرض، وأن توقد فيها النيران، وأن يُلقَوا فيهـا أحياء لتُحرَقَ أجسادهم، وتُزهق أرواحهم!

يا لها من عقوبة عادلة لتلك الجريمـة النكـراء، في عرف ونـظام وقانـون القوم هناك!

إن كفـر القوم وانحـرافهم وظلمهم وفسادهم، جعلهم يقلبـون الحقـائق، ويُزيفون الأمور، ويجعلون الحق باطلاً والباطـل حقاً، فيعـاقبون على الإيمـان والعبادة والاستقامة والطاعة، ويثيبون على الكفر والضلال والظلم والفساد.

وهكـذا يفعلون دائماً، ومـا أكثـر النمـاذج البشعـة التي سجلهـا تـاريـخ البشرية القديم والوسيط والحديث، التي طبقوا فيها هذه القـوانين! وكم أصاب المؤمنين من مصـائب وآلامٍ ونكباتٍ ومـآسٍ، وكم دفعوا لـذلك من أرواحهم ودمائهم وأجسادهم وأموالهم!

وتذكر الآية صفـاتٍ لله الذي آمن به المؤمنـون فعُوقبـوا على ذلك بـذلك العقاب.

إنه الله. العزيز. الحميد. الذي له ملك السموات والأرض. والذي على كل شيء شهيد.

نقمة الكفار على المؤمنين:

أثناء بيان الآية لذنب المؤمنين وجريمتهم في عرف قومهم الكافرين، وأثناء حديثها عن سبب المعركة بين الفريقين، ذكرت كلمةً واحدة، عرفنا من خلالها طبيعة تلك المعركة ضد المؤمنين: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاّ أَنْ يُؤْمِنُوا بالله﴾.

إنها كلمة ﴿نَقَمُوا﴾.

إنها بيان لطبيعة المعركة وجوِّها، وتصويرٌ لمدى بشاعتها وشراستها. إنها تحليل لنفسيات الكفار ومشاعرهم أثناءها.

إنها معركة انتقامية، طابعها العام هو الانتقام من المؤمنين، وهم إنتقاميون، ينتقمون من المؤمنين.

وتصوَّرْ مدى شراسة وبشاعة معركة، رجالها منتقمون إنتقاميون. يحرّكهم الانتقام والحقد واللؤم والكيد، ويوجِّه حركاتهم وأفعالهم.

إن حرب الكفّار للمؤمنين في قصة أصحاب الأخدود حربٌ انتقامية حاقدة لئيمة، ولذلك كانت بشعة شرسة.

وليست هذه الحرب فقط. بل هكذا هي كل حروب الكفّار ضد المؤمنين، في أي زمان ومكان.

قال الله عن كفّار الأخدود: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهم إِلاّ أَنْ يؤمِنوا بالله﴾.

وقال السحرة لفرعون عندما هددهم بعد إيمانهم بالله واتّباعهم لموسى عليه السلام: ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنّا إِلاّ أَنْ آمَنّا بآياتِ رَبِّنا لَمّا جاءَتْنا﴾[1].

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٢٦.

وَأَمر الله رسولَـهُ ﷺ ــ وهو أمر لنا أيضاً ــ بأن يبيِّن لأهل الكتـاب طبيعة عداوتهم لنا، وأنها تقوم على النقمة والحقد والانتقـام: ﴿قُـلْ يَا أَهْـلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنّا إِلاّ أَنْ آمَنّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْـزِلَ إِلَيْنَا وَمَـا أُنْزِلَ مِنْ قَبْـل، وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُون﴾[1].

وبيَّن القـرآن في آيـة رابعـة أن النقمـة نفسهـا هي التي سيَّـرتْ ووجهت مكـائـد وجـرائم المنـافقين ضـد رسـول الله ﷺ ومَن معـه مِنَ المؤمنين. قـال تعـالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِـاللَّهِ مَـا قَـالُـوا. وَلَقَـدْ قَـالُـوا كَلِمَـةَ الْكُفْـرِ، وَكَفَـرُوا بَعْـدَ إِسْـلَامِهِمْ، وَهَمُّـوا بِمَـا يَنَـالُـوا. وَمَـا نَقَمـوا إِلاّ أَنْ أَغْنَـاهُمُ اللَّهُ وَرَسُـولُـهُ مِنْ فَضْلِه﴾[2].

إنَّ فِعْـل «نَقَمَ» لم يُـذكـر في القـرآن إلاّ في الأربعـة مـواضع التي أوردْنـاها. وهـو في هـذه المـواضـع كلهـا في سيـاقٍ واحـد، هـو العـداءُ بين المؤمنين والكافرين، والحربُ البشعة التي يشنها الكافرون على المؤمنين.

إنّ القـرآن بهذا يبيِّن لنـا طبيعةَ الحـرب ضـد المسلمين، إنّهـا الحـرب الانتقاميّة!

معنى تلك النقمة ونتائجها:

الكفّار ناقمون على المؤمنين، وينتقمون منهم، ولذلك يحاربونهم. فما معنى هذه النقمة وهذا الانتقام؟

إن القرآن يعرِّف المؤمن على عدوّه الكافـر الظالم، ويحلّل لـه نفسيّتَـه، ويصـوِّر لـه حقيقتَه من داخـل نفسه. إن عـدوه رجل نـاقم حاقـد حاسـد ظالم باغٍ، ولهذا يحاربه بكل ما في نفسـه الحاقـدة المنتقمة من حقـد وَحَسَد وظلم وبغي وانتقام وكيد وشراسة وبشاعة.

---

(۱) سورة المائدة: آية ٥٩ .

(۲) سورة التوبة: آية ٧٤ .

ثم إن الكافر الذي يواجه المؤمن بهذه الرذائل والنقائص، لا يمكن أن يسالم المؤمن أو يسكت عنه أو يتركه أو يوقِف عداوته له.

وصدق المتنبّي في قوله:

سِوَى حَسَدِ الْحُسّادِ دَاوِ فَإِنَّه ... إِذَا حَلَّ فِي قَلْبٍ فَلَيْسَ يَحُولُ

أما نتائجُ نقمة الكفّار على المسلمين في حربهم لهم، وآثارُها على تلك الحرب، فهي بارزة واضحة بيِّنة.

ماذا تتصور من حرب يتزود الكفار لها بكل ما يقدرون عليه من الحقد والنقمة واللؤم والظلم والكيد والشراسة والبشاعة؟

كم سيصيب المؤمنين من ذلك الغل والحقد؟

صدق الله إذ يقول عن هذه الحرب وعن حقد الكفّار على المؤمنين فيها: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّة، يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ، وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ، وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُون. إِشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدّوا عَنْ سَبِيلِهِ، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُون. لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّة، وَأُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُون﴾(١).

إنهم لا يرقُبُون في مؤمن إِلًّا وَلَا ذِمَّة. ومعنى هذا أنهم لا يراعون في حربهم للمؤمنين عهداً ولا قرابة.

لماذا؟ لأنهم حاقدون: يُرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم.

يحاربون بكل ما تملك قلوبهم من حقد ونقمة.

وهم في سبيل القضاء على المؤمنين لا يراعون عهداً ولا قرابة، ويلغون من قاموسهم كلمات: العدل. والرحمة. والحرية. والديمقراطية. والحقوق. والكرامة. وغير ذلك.

---

(١) سورة التوبة: آيات ٨ ــ ١٠.

إنهم في حربهم للمؤمنين، يوقفون العمل بالقوانين والتشريعات والمبادىء والنظم، ويُبعدون عن المؤمنين القضاة والمحامين والمحاكم المدنية، ويعلنون حالة الطوارىء، ويسلبون المؤمنين حقوقهم المدنية والجزائية، ويطبِّقون عليهم أحكام المحاكم العسكرية الاستثنائية، وأوامر الحاكم العسكري الجائرة، التي يصادِر فيها كل ما يملكه المؤمن من حقوق ومزايا.

وابحث في هذا الجو الاستثنائي الحاقد الجائر عن المؤمن المنكوب، إبحث عن حقوقه وحريته، وعن وظائفه وأعماله ومشاريعه، وعن أمواله ودخْله، وعن أسرته وعائلته، وعن زوجته وأولاده. إبحث عن نفسه وجسمه، وعن حريته وكرامته، وعن دينه وإيمانه، وعن عِرْضه وقلبه، وعن حواسه وجوارحه، وعن دمائه ونبضاته. . . إبحث عن روحه إن كان قد بقي له روح، أو ما زالت فيه حياة!

صدق الله ﴿لا يرقبون في مؤمن إلًّا وَلا ذِمَّة﴾.

آثار الحرب الانتقامية الكافرة ضد المؤمنين تتمثل في قول فرعون مهدداً السحرة الذين آمنوا بموسى عليه السلام: ﴿لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَاف، ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِين﴾(١).

وفي قوله لهم: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَاف، وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخل، وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَأَبْقى﴾(٢).

آثار هذه الحرب ونتائجها في فعْلة الكفار بالمؤمنين في قصة أصحاب الأخدود: ﴿النارِ ذاتِ الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود﴾.

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٢٤.

(٢) سورة طَه: آية ٧١.

آثار هذه الحرب ونتائجها في ما سجّله التاريخ من تعذيب رهيب صبّه الرومان الّذين ألّهوا عيسى عليه السلام منهم، ضد الرهبان الصالحين الذين آمنوا بأنّ عيسى هو عبد الله ورسوله، وبخاصة أتباعُ المؤمنِ الشهيد «عبد الله آرْيوس» من الأَريسِيّينَ الشهداء.

آثار هذه الحرب في ما سجّله التاريخ من مصائب ونكبات أصابت المسلمين في الأندلس على أيدي الصليبيين في «محاكم التفتيش».

آثار هذه الحرب في ما صُبَّ على دعاة الإسلام من تعذيب في سجون مصر الثورية في عهد عبد الناصر والسادات وغيرهما[1].

ثم لم يتوبوا:

في تعقيب القرآن على قصة أصحاب الأخدود، عبارةٌ ذات أبعاد بالغة: هي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِين فَتَنُوا الْمُؤمِنينَ والمُؤْمِناتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا، فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيق﴾.

إنها جملة ﴿ثم لم يتوبوا﴾.

إنها تفتح الباب أمام الظالمين الحاقدين الناقمين، الذين حرقوا المؤمنين وقتلوهم وأزهقوا أرواحهم.

تفتح أمامهم باب التوبة، وتدعوهم إلى دخوله، وتدعوهم إلى الاستفادة من ذلك، وكسْب آخر فرصة، قبل أن يُغلق الباب.

الذين فعلوا ما فعلوا بالمؤمنين، ماذا يفعل الله بهم إنْ آمنوا وأسلموا، واستغفروا لذنوبهم، وتابوا إلى ربهم، وتراجعوا عن جرائمهم، وأخلصوا دينهم لله، والتزموا بعبادته؟

---

(١) إقرأ كتب: البوابة السوداء لأحمد رائف. وأيام من حياتي لزينب الغزالي. ويوميات سجين في السجن الحربي لكمال فرماوي. ورسائل من السجن الحربي لسمير الهضيبي، وغير ذلك.

إن الله يتوب عليهم، ويتجاوز عن كل جرائمهم وسيئـاتهم، ويقبلهم مع جنوده وأوليائه.

وإن المؤمنين يُغيِّـرون مـوقفَهم من أولئـك، ونـظرتَهم إليهم، وصلتَهم بهم، وتعـاملَهم معهم. إنهم ينسون كـل مـا فعلوه بهم، ويتجـاوزون عن كـل جـرائمهم، ويحتسبون عنـد الله كلَّ مـا نالهم منهم، وأصـابهم على أيـديهم، ويفتحون معهم حياة جديدة تقوم على المحبة والأخوة والمودّة.

ما أعظم رحمة الله وأوسعها، الذي يقبل كلَّ مَن جاءه تـائباً منيبـاً مسلماً مطيعاً، ويتوب عليه، ويعفو عن كل ما ارتكبه ضد دينه وجنوده وأوليائه.

ومـا أعظم هـذا الدين الـذي يقيم هـذه المبـادئَ السـاميـة، والحقـائقَ الأصيلة، والقيمَ النبيلة، التي يسمـو بها على كـل المبـادىء والنـظم البشـريـة المادية.

ومـا أحلم المؤمن، الـذي يتجـاوز عن كـل مَنْ أسـاءوا إليـه، ويعفـو ويصفـح عنهم، ويجعلهم إخـوة أحبـابـاً لـه، طـالمـا شـاركـوه لـذّة العبـادة والجندية لله.

أين حريق من حريق؟

إذا تـاب الظالمـون وأنابـوا فهُمْ إخـوان للمؤمنين، مقبـولـون عنـد الله. لكنهم إذا لم ينتهـزوا تلك الفرصـة، ولم يدخلوا بـاب التـوبـة، وأصـرّوا على كفرهم وحقدهم، فأمامهم، عذاب رهيب عظيم أليم.

﴿إن الذين فَتَنُوا الْمُؤمنين والْمُـؤْمِنَات ثُمَّ لَمْ يَتُوبُـوا، فَلَهُـمْ عَذَابُ جَهَنَّم وَلَهُمْ عَذَاب الْحَرِيق﴾.

لقد أحرقوا المؤمنين بنار الأخـدود ذات الوقـود. فناسَبَ أن يعـذِّبهم الله بالنار. وأن يحرقهم بالنار. وفق القاعدة المطَّردة التي تبين أنّ الجزاء من جنس

العمل. فإحراقهم للمؤمنين بنار الدنيا، يناسبه أن يحرقهم الله بنار جهنم الخالدة يوم القيامة. جزاء وفاقاً، وما ربك بظلّام للعبيد.

أين حريق من حريق؟ أين حريق الدنيا من حريق جهنم؟

يقول سيد قطب: «وينُصّ على «الحريق» وهو مفهوم من عذاب جهنم. ولكنه ينطق به وينص عليه، ليكون مقابلاً للحريق في الأخدود. وبنفس اللفظ الذي يدل على الحَدَث.

ولكن أين حريق من حريق؟ في شدّته أو في مدّته! وحريق الدنيا بنار يوقدها الخلْق، وحريق االآخرة بنار يوقدها الخالق!

وحريق الدنيا لحظات وتنتهي، وحريق الآخرة آباد لا يعلمها إلا الله!

ومع حريق الدنيا رضى اللَّهِ عن المؤمنين، وانتصارٌ لذلك المعنى الإنساني الكريم. ومع حريق الآخرة غضب الله، والارتكاسُ الهابط الذميم»[1].

كم هو بائس وشقي ومحروم، ذلك الذي يرتكب في دنياه ما يُعرضُه لعذاب جهنم وعذاب الحريق! والذي لا يحرص على النجاة من ذلك الحريق الدائم الرهيب!

الفوز الكبير للمؤمنين:

ماذا جنى المؤمنون الذين ثبتوا على إيمانهم، وآثروا ما عند الله، وتحمَّلوا النار والحريق في سبيل الله؟ هل ربحوا أم خسروا؟ وهل فازوا أم فشلوا؟

---

(١) الظلال ٦: ٣٨٧٤.

الجواب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَار. ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِير﴾.

لقد كانوا فائزين ناجحين مفلحين، نالوا الجنّات التي تجري من تحتها الأنهار، واستحقّوها بفضل الله وبرحمته، وبسبب ما دفعوه ثمناً لها من حياتهم وأجسادهم وأعمارهم وأرواحهم.

لقد فازوا بذلك الفوز الكبير الذي ما بعده فوز. وَمَنْ فَازَ بالجنّة فقد فاز، كما قال الله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْت، وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَة. فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُور﴾[1].

إن الدنيا ليست النهاية، إن النهاية هناك، والمهم هو العاقبة يوم القيامة، صحيح أن المؤمنين في القصة غادروا هذه الدنيا، واعتبرهم الناس خاسرين هالكين أمواتاً، لكن العبرة بمصيرهم يوم القيامة، منعَّمين في جنات تجري من تحتها الأنهار.

هل كان أولئك المؤمنون فائزين أم خاسرين؟ لقد كانوا فائزين بكل مظاهر الفوز ومعانيه وصوره ومجالاته.

وتعال معنا نردد مع الإمام الشهيد سيد قطب قوله عن فوزهم:

(قد كان في مكنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم. ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم في الدنيا قبل الآخرة؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير: معنى زهادة الحياة بلا عقيدة، وبشاعتها بلا حرية، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد. إنه معنى كريم جداً، ومعنى

(١) سورة آل عمران: آية ١٨٥ .

كبير جداً، هذا الذي ربحوه وهم بعدُ في الأرض.. ربحوه وهم يجدون مسَّ النار فتحترق أجسادهم، وينتصر هذا المعنى الكريم الذي تزكيه النار؟ وبعد ذلك لهم عند ربهم حساب.. لهم جنات تجري من تحتها الأنهار. ذلك الفوز الكبير..)[1].

قصّة أصحاب الأخدود في الحديث الشريف:

أورد رسول الله ﷺ بعض التفصيلات في قصّة أصحاب الأخدود، وفيها إضافات نافعة قيّمة على ما ورد في القرآن منها.

وطالما صحّ الحديث عن رسول الله ﷺ، فيجب أن نأخذه وأنّ نقول به، وأن نضيف ما دلَّ عليه إلى ما دلّ عليه القرآن، وأن ننظر في المصدريْن معاً، وأن نخرج بدلالاتهما مجتمعة.

روى مسلمٌ في صحيحه عن صُهَيْب بن سنان الرومي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

كان مِلك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر.

فلما كبر قال للملك: إنّي قد كبرت. فابعث إليّ غلاماً أعَلِمْه السحر. فبعث إليه غلاماً يعلمُه.

فكان في طريقه إذا سلك راهب، فقعد إليه وسمع كلامه، فأعجبه.

فكان إذا أتى الساحر مرّ بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه. فشكا ذلك إلى الراهب. فقال: إذا خشيتَ الساحر فقل حبسني أهلي. وإذا خشيت أهلَك فقل: حبسني الساحر.

فبينما هو كذلك إذ أتى على دابّة عظيمة قد حبست الناس. فقال: اليوم

---

(١) الظلال ٦: ٣٨٧٤.

أعلم آلساحر أفضل أم الراهب؟ فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الـراهب أحب إليك من أمر الساحر فـاقتل هـذه الدّابـة، حتّى يمضيَ النّاس. فـرماهـا فقتلها. ومضى النّاس.

فـأتى الراهب فـأخبره. فقـال له الـراهب: أيْ بنيّ: أنت اليـوم أفضـل منّي، قد بلـغ من أمرك ما أرى. وإنّك ستُبتلى، فإن ابتُليت فلا تدلّ عليّ.

وكان الغلامُ يبرىء الأكمه[1] والأبرص ويداوي النّاس من سائر الأدواء. فسمـع جليسٌ للملك كان قد عمي. فأتاه بهـدايا كثيـرة. فقال: مـا ههنا لـك أجمـع، إن أنت شفيتني. فقـال: إنّي لا أشفي أحـدا، إنّمـا يشفي الله، فـإن أنت آمنت بالله، دعوت الله فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله.

فـأتى الملكَ، فجلس إليه كمـا كـان يجلس. فقـال لـه الملك: من ردّ عليك بصرك؟ قال: ربـي. قال: ولك رب غيري؟ قال: ربّـي وربّك الله.

فأخذه فلم يزل يعذبه، حتّى دل على الغلام، فجيء بـالغلام، فقـال له الملك: أيْ بنيّ! قـد بلـغ من سحـرك مـا تبـرىء الأكـمـه والأبـرص وتفعــل وتفعل، فقال: إنّي لا أشفي أحدا. إنّما يشفي الله.

فأخذه فلم يزل يعذبه. حتّى دلّ على الراهب، فجيء بـالراهب. فقيـل لـه: إرجـع عن دينك. فـأبى. فدعـا بالمنشـار. فـوضـع المنشـار في مفـرق رأسه، فشقّه حتّى وقـع شقاه.

ثم جيء بجليس الملك، فقيـل له، إرجـع عن دينـك. فأبى. فـوضـع المنشار فـي مفرق رأيه، فشقه، حتى وقـع شقّاه.

ثم جيء بالغلام فقيل له: إرجـع عن دينك، فـأبـى.

---

(١) الأكمه: الذي خلق أعمى.

فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: إذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه، وإلا فاطرحوه، فذهبوا به، فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم إكفِنِيْهِم بما شئت. فَرَجَفَ بِهِمُ الجبلُ فسقطوا.

وجاء يمشي إلى الملك. فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانِيهمُ الله.

فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: إذهبوا به، فاحملوه في قرقور[1]، فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه، وإلاّ فاقذفوه. فذهبوا به، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة، فغرقوا.

وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال؛ كفانيهم الله.

فقال للملك: إنّك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد[2] واحد، وتصلبني على جذع. ثم خُذْ سهماً من كنانتي. ثم ضع السهم في كبد القوس[3]. ثم قل: باسم الله رب الغلام. ثم ارمني. فإنّك إذا فعلت ذلك قتلتني.

فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهماً من كنانته. ثم وضع السهم في كبد القوس. ثم قال: باسم الله رب الغلام. ثم رماه. فوقع السهم في صِدْغه، فوضع يده في صدغه في موضع السهم. فمات.

---

(١) القرقور: السفينة الصغيرة.
(٢) الصعيد: الأرض البارزة.
(٣) كبد القوس: مقبضها عند الرمي.

فقال النّاس: آمنا برب الغلام. آمنا برب الغلام. آمنا برب الغلام.

فأُتي الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نـزل بك حـذرك. قد آمن النّاس.

فأمر بالأخدود فـي أفواه السّكك[1] فخُدَّتْ. وأُضرم النيران.

وقـال: من لم يرجـع عن دينـه، فاحمـوه[2] بهـا. أو قيـل لـه: اقتحم. ففعلوا.

حتّى جاءت امرأة ومعها صبيّ لها. فتقاعست[3] أن تقـع فيها. فقال لها الغلام: يا أمّه، إصبري، فإنّك على الحقّ»[4].

القصّة فـي رواية ابن إسحاق:

أورد الإمـام ابن إسحـاق في السيـرة روايـةً أخـرى عن قصّـة أصحـاب الأخدود، تختلف عن ما أورده الإمام مسلم عن رسول الله ﷺ. وهو لم يرفعها إلى رسـول الله عليه الصـلاة والسلام، وإنّمـا أخـذهـا عن التابعي محمـد بن كعْب القُرظي.

قال ابن إسحاق:

حدّثني يزيد ابن زياد عن محمد بن كعب القرظي، وحدّثني أيضاً بعض أهل نجران عن أهلها:

أن أهـل نجران كـانوا أهـلَ شرك يعبـدون الأوثان، وكـان فـي قريـة من قراها قريباً من نجران ساحر، يعلّم غلمان أهل نجران السحر.

---

(١) أفواه السلك: أبواب الطرق.

(٢) أحموه: بمعنى ألقوه.

(٣) تقاعست: توقفت.

(٤) صحيح مسلم (٥٣) كتاب الزهد والرقائق (١٧) باب قصة أصحاب الأخدود. حديث رقم (٣٠٠٥).

فلمّا نزلها «فَيْمِيُونْ» ــ ولم يسمُّوه لي باسمه الذي سمّاه به وهب بن مُنَبِّه، قالوا: نزلها رجل[1] ــ إبتنى خيمة بين نجران، وبين تلك القرية التي بها الساحر، فجعل أهل نجران يرسلون غلمانهم إلى ذلك الساحر، يعلمهم السحر.

فبعث إليه «الثّامر» ابنه، «عبد الله الثّامر» مع غلمان أهل نجران، فكان إذا مرّ بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى منه من صلاته وعبادته، فجعل يجلس إليه، ويسمع منه. حتّى أسلم، فوحّد الله وعبده، وجعل يسأل عن شرائع الإسلام.

حتى إذا فقه فيه جعل يسأل عن الإسم الأعظم، فكتّمه إياه، وقال له: يا ابن أخي إنّك لن تحمله، أخشى عليك ضعفك.

والثامر ــ أبو عبد الله ــ لا يظن إلا أن ابنه يختلف إلى الساحر، كما يختلف الغلمان.

فلمّا رأى عبد الله أن صاحبه الراهب، قد ضَنَّ بالإسم الأعظم عنه، وتخوّف ضعفه عليه، عمد إلى قِداح فجمعها، ثم لم يُبق لله اسماً يعلمُه إلا كتبه في قدح، لكل اسم قدح. حتّى إذا أحصاها أوقد لها النار، ثم جعل يقذفها فيها قدحاً قدحاً. حتّى إذا مرّ بالإسم الأعظم قُذف فيها بقدحه، فوثب القدح، حتّى خرج منها لم تضرّه شيئاً، فأخذه ثم أتى صاحبه الراهب، فأخبره بأنّه قد علم الإسم الذي كتمه. فقال: وما هو؟ قال: هو كذا وكذا. قال:

---

(١) ذكر ابن إسحاق قبيل قصة ابن الثامر وأصحاب الأخدود حديث فَيْمِيُون الراهب الصالح، وتفصيلات خروجه من الشام إلى نجران، ودعوته إلى دين عيسى عليه السلام في نجران، وتتلمذ ابن الثامر عليه. وأخذ قصته عن التابعي وهب بن منبه، والله أعلم بذلك الراهب فَيْمِيُون وبقصته كيف كانت. انظر الروض الأنف ١: ١٩١ ــ ١٩٥.

وكيف علمته؟ فأخبره بما صنع. قال له: أيْ ابن أخي: قد أصبتَه، فأمسك على نفسك، وما أظن أن تفعل.

فجعل عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يَلق أحداً به ضُرّ إلّا قال له: يا عبد الله: أتوحّد الله، وتدخل في ديني، وأدعو الله فيعافيك مما أنت فيه من البلاء؟ فيقول: نعم. فيوحد الله ويسلم، فيدعو له فيشفى. حتّى لم يبقَ بنجران أحد به ضر إلّا أتاه فاتبعه على أمره.

حتى رُفع شأنُهُ إلى ملك نجران. فدعاه فقال له: أفسدت عليّ أهل قريتي، وخالفت ديني ودين آبائي. لأمثّلن بك، قال له: لا تقدر على ذلك.

فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل، فيُطرح على رأسه، فيقع إلى الأرض، ليس به بأس. وجعل يبعث به إلى مياه نجران، بُحورٍ لا يقع فيها شيء إلّا هلك. فيُلقى فيها، فيخرج ليس به بأس.

فلمّا غلبه، قال له عبد الله بن الثامر: إنّك والله لن تقدر على قتلي حتّى توحّد الله، فتؤمن بما آمنت به، فإنّك إنْ فعلت ذلك، سُلّطت علي فقتلتني. فوحّد الملك الله، وشهد شهادة عبد الله بن الثامر. ثم ضربه في عصا في يده، فشجّه شجّة غير كبيرة فقتله. ثم هلك الملك مكانه.

واستجمع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر، وكان على ما جاء به عيسى ابن مريم من الإنجيل وحكْمه. ثم أصابهم مثلُ ما أصاب أهل دينهم من الأحداث. فمن هنالك كان أصل النصرانية بنجران. والله أعلم بذلك.

قال ابن إسحاق: فهذا حديث محمد بن كعب القرظي وبعض أهل نجران عن عبد الله بن الثامر. والله أعلم أيّ ذلك كان!.

قال ابن إسحاق: ثم سار إلى أهل نجران ذو نُواس ـ ملك

اليمن ــ بجنوده، فدعاهم إلى اليهودية. وخيّرهم بين ذلك والقتل. فاختاروا القتل.

فخدّ لهم الأُخدود. وَحَرَقَ بِالنّارِ مَنْ حَرَقَ، وَقَتَلَ مَنْ قَتَلَ بِالسَّيْفِ، وَمَثّلَ بِهِمْ. حَتّى قَتَلَ مِنْهِمْ قَرِيْباً مِنْ عِشْرِيْنَ أَلْفاً.

ففي ذي نُواس وجنده تلك، أنزل الله تعالى على رسوله سيدنا محمد ﷺ: «قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ. النّارِ ذَاتِ الوَقُودِ. إِذْهُمْ عَلَيْهَا قُعود. وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينِ شُهُود، وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلّا أَن يُّؤمِنُوا بِالله العَزِيْزِ الحَمِيدِ».

قال ابن إسحاق: حدّثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، أنّه حُدِّث: أنّ رجلاً من أهل نجران كان في زمان عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، حَفَرَ خِرْبَة من خِرَبِ نَجرَان لبعض حاجته، فوجدوا عبد الله بن الثامر تحت دَفْنٍ منها قاعداً، وَاضِعاً يَدَهُ عَلَى ضربة في رأسه، ممسكاً عليها بيده، فإذا أُخِّرَتْ يده عنها تنبعث دماً، وإذا أُرسلت يده ردّها عليها، فأمسكتْ دمها. وفي يده خاتم مكتوب فيه: «ربّي الله». فكُتب فيه إلى عمر بن الخطّاب يخبر بأمره. فكتب إليهم عمر رضي الله عنه: أن أَقِرّوه على حاله. وردوا عليه الدفن الذي كان عليه. ففعلوا»[1].

تعليق على ابن إسحاق:

يلاحظ أن ابن إسحاق في إيراده قصّة عبد الله بن الثامر ونصارى نجران، لم يروِ ذلك عن رسول الله ولا عن أحدٍ من صحابته الكرام، وإنما

(١) الروض الأنف للسهيلي بتحقيق عبد الرحمن الوكيل ١: ١٩٦ ــ ٢١٧ وانظر شرح السهيلي لبعض كلام ابن إسحاق المذكور، وتعليق عبد الرحمن الوكيل على ذلك في الكتاب.

رواه موقوفاً على محمد بن كعب القرظي ـ التابعي الجليل ـ عن بعض أهل نجران.

ورغم أنهم اعتَبروا آياتِ سورة البروج نازلة في عبد الله بن الثامر وإخوانه من أصحاب الأخدود، إلَّا أننا لا نقول بذلك.

إننا نعتمد الحديث الصحيح الذي أورده مسلم والترمذي عن صهيب الرومي عن رسول الله ﷺ، والذي أورد بعضَ التفصيلات في قصة أصحاب الأخدود، والذي أبهمَ الكلامَ عن أسماء الأشخاص والزمان والمكان في أحداث القصة.

أما رواية ابن إسحاق، فلا نجزمُ بوقوعها، لعدم ورودها في المصادر المأمونة الثابتة عن رسول الله ﷺ، وكم بيَّنّا مراراً أن قصصَ السابقينَ وأخبارَ الماضين لا تُؤخذ إلَّا من صريح القرآن أو صحيح الحديث عن الرسول ﷺ.

لذلك لا نجزم بوقوع أحداث روايةابن إسحاق عن عبد الله بن الثّامر، ولا نجزم أنهم هم المعنيّون بآيات سورة البروج.

وكذلك لا نجزم بنفي تلك الرواية، لأن النفيَ مثلُ الإثبات يحتاج إلى أدلة يقينية، ونحن لا نملكها للحكم على رواية ابن إسحاق.

فالأسلم هو التوقف فيها، بلا نفي ولا إثبات، فلا نحكم لها ولا عليها. ولا نثبت أن عبد الله بن الثامر هو الغلام المؤمن الداعية الشهيد، كما لا ننفي أن يكون هو فعلاً المقصود بكلام رسول الله ﷺ.

هي أخاديد وليست أخدوداً واحداً:

كثير من العلماء والمؤرخين على أن قصةَ أصحاب الأخدود ليست خاصة بقوم ما، ولا في زمان أو مكان ما. بل تكررتْ هذه القصة عدةَ مرات، وشملت مؤمنين بالله آذاهم قومهم الكفار، وحفروا لهم الأخاديد، وألقوهم فيها.

وفي هذا يقول جبير بن نُفَير: الذين خَدّوا الأخاديد ثلاثة: الأخدود في اليمن زمن تبّع.

والأخدود في القسطنطينية زمن قسطنطين وأمه هيلانة، عندما ادَّعيا الدخول في النصرانية، حيث صرف قسطنطين النصارى عن دين المسيح والتوحيد، وقال بأن عيسى ابن الله، واتخذ الأخدود وألقى فيه النصارى الذين كانوا على التوحيد.

والأخدود الثالث في بابل في العراق في زمن بختنصر، حيث صنع صنماً وأمر الناس بالسجود له، فامتنع دانيال وصاحباه، فأوقد لهم النار في الأخدود وألقاهم فيها، فجعلها الله برداً وسلاماً عليهم.

وقال السُّدِّي: كانت الأخاديد ثلاثة: خُدّ بالشام، وخُدّ بالعراق، وخُدّ باليمن[1].

وقال مقاتل: الأخاديد ثلاثة: واحدة بنجران باليمن، والأخرى بالشام، والأخرى بفارس، حُرِّقوا بالنار. أما التي بالشام فهو أنطانيوس الرومي، وأما التي بفارس فهو بختنصر، وأما التي بأرض العرب فهو يوسف ذو نواس. فأما التي بفارس والشام فلم ينزل الله فيهم قرآناً، وأنزل قرآناً في التي كانت بنجران[2].

ولا نعلق على أقوال هؤلاء العلماء إلَّا بقولنا: الله أعلم أيُّ ذلك كان.

نظرات في رواية الإمام مسلم للقصة:

سبق أن أوردْنا رواية الإمام مسلم لقصة أصحاب الأخدود، عن صهيب الرومي عن رسول الله ﷺ.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٢: ١٣١ ــ ١٣٢.

(٢) الروض الأنف ١: ٢١٧ حاشية الوكيل.

وتبدو في الحديث دلالاتٌ وإشاراتٌ وعبرٌ كثيرة، ويمكن أن تُؤخذ منه دروس وإيحاءات نافعة.

وبين يديَّ رسالةٌ بعنوان «أَصْحابُ الأُخْدُود» لِرفاعي سُرور، وقف فيها صاحبها أمام الحديث وقفات، ونظر فيه نظرات، ثم استخلص منه كثيراً من العبر والعظات والدلالات.

وسوف ألخص فيما يلي أهم ما يمكن أن يؤخذ من الحديث:

١ ــ في قوله «كان فيمن كان قبلكم ملك»:

بيانٌ لبداية القصة. وإشارةٌ لزمانها التاريخي. ونلاحظ حرص الرسول ﷺ على إبهام الأشخاص، فلم يحدد لنا اسمَ القوم. أو المكان الذي وقعت عليه، أو القرن الذي حدثت فيه. مما يدعونا إلى الالتزام بالمنهج النبوي في عرْض قصص السابقين، والبحث في أخبارهم.

٢ ــ وفي تجريد أحداث القصة من أسماء الأشخاص والزمان والمكان حكمةٌ أخرى، وهي أن تتجاوز القصة القَيْد التاريخي، لتبقى قائمة في كل مراحل التاريخ. فهي وإنْ وقعت في زمن مضى، إلَّا أنها تقدم نفسَها بدروسها ودلالتها تجربةً قائمةً حيَّةً حتى قيام الساعة.

٣ ــ كلمة «قبلكم» في قوله «كان فيمن كان قبلكم» ربط للماضي بالحاضر، حيث ربط رسول الله ﷺ بين أصحاب الأخدود الشهداء، وبين حاضر الصحابة المستضعفين في مكة. فالصحابة في مكة هم امتدادٌ صحيح للدعوة التي استُشهد من أجلها شهداء الأخدود.

٤ ــ ذكْر الملك في بداية القصة «كان ملك فيمن كان قبلكم» إشارةٌ إلى طبيعة أعداء الدعوة في كل زمان ومكان. أنهم الملأ المستكبرون أصحاب السلطة والجاه.

ثم فيها إشارة إلى طبيعة الدعوة، وضرورة المواجهة منذ البداية بين الدعوة وبين الملأ الكفار والسلطة الظالمة.

٥ ـ في قوله «وكان له ساحر» بيانُ الارتباط بين الملك والساحر، أو الارتباط الوثيق بين الأنظمة الجاهلية الكافرة وبين السحرة والدّجالين. إن الطواغيت يعتمدون على السحرة، لينشروا الوهم والخرافة بين شعوبهم، ليضمنوا خضوعَهم لهم، لأن تفكيرَ الشعوب ووعيَهم وثقافتَهم كفيل بتحررهم، وزوال أنظمة الكفر عنهم. فيقوم السحرة بعملية وأْد الفكر وطمس الوعي.

٦ ـ لما كبر الساحر أشار على الملك باختيار غلام ليتعلم السحر. وفي هذا بيان لحرص بطانة السوء حول الكافرين الحكام على بقاء الأوضاع كما هي، وعلى استمرارها.

كما أن في طلب الساحر إشارةً إلى رغبته في استمرار عمله ووظيفته ورسالته من بعده، فبما أنه كبر واقترب أجله، فليعمل على توريث عمله لغيره.

٧ ـ طلب الساحر غلاماً «فابعث إليّ غلاماً أعلْمه السحر» وفيه إشارةٌ إلى تخطيط الجاهليين ومكرهم وتآمرهم في إفساد الناس، واستمرار الجاهلية، وتنشئة الأجيال اللاحقة على مبادىء الجاهلية وضلالها وكفرها وسحرها.

وطلبه لغلام، يدل على اختيارهم الأطفال الصغار ليبدأوا معهم الانحراف، وليطمسوا الحق من فطرتهم، ويشوهوها بما يقدمونه لهم من كفر وسحر وضلال.

٨ ـ «فبعث إليه غلاماً يعلمه» فالغلام الآن في محنة وفتنة، وفطرتُه توشك أن تُطمس ويُقضى عليها. وهكذا تصرُّف الجاهليين بالأطفال

والغلمان، كما قال نوح عليه السلام عنهم: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الكافِرِينَ دَيّاراً. إنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ. وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً﴾[1].

٩ ــ سخر الله لذلك الغلام راهباً في طريقه: «فكان في طريقه إذا سلك راهب» ويقدِّر الله للغلام أن يلتقي بالراهب. وفي هذا بيان لنفاذ قدر الله ومشيئته سبحانه، ولفشل الطواغيت في تخطيطهم ومكرهم.

إن الملك والساحر قد أرادا إفساد الغلام وتعليمَه السحر، وإن الله قد أراد فشلهما فيما سعيَا فيه، وأراد للغلام أن يكون مؤمناً داعياً إلى الله شهيداً في سبيل الله. ولا يكون إلَّا ما يريده الله.

١٠ ــ وجود الراهب في ذلك المجتمع الجاهلي، والجوِّ الموبوء، إشارةٌ إلى أن الناس ــ غالباً ــ لا يخلون من أفراد مؤمنين صالحين طيبين، ولو كانوا قليلين مستَخْفين أو مضطَّهدين.

١١ ــ قعد الغلام إلى الراهب وسمع كلامه وأعجبه. وفي هذا إشارة إلى إرادة الخير به وله. وإلى حسْن أسلوب الراهب في الدعوة إلى الله، وجودة كلامه. وإلى حسْن الاستعداد عند الغلام، وصفاء فطرته، ونقاء سريرته، وأن الملك والساحر لم يتمكنا من إفساده.

١٢ ــ صار الغلام يتلقى من مصدريْن متناقضيْن، معلومات متعارضة. فهو يتعلم من الراهب الدينَ والحقَّ الصحيح، ويتعلم من الساحر السحر والضلال.

ولكنه كان يُحسن التلقي والإختيار، لقد كان يستوعب كلام الراهب ويقبله لأنه الحق، أما كلام الساحر فما كان يقبله ولا يرضى به، بل كان

(١) سورة نوح: آيتا ٢٦ ــ ٢٧.

يسمعه كارهاً، ويقابل الساحر كارهاً، وما كان يُدخل كلامه إلى عقله وقلبه، بل يلقيه سريعاً من سمعه.

١٣ ـ كان الغلام مصرّاً على الذهاب إلى الراهب، كلما ذهب إلى الساحر، وفي هذا إشارة إلى حرصِه على التزود من الراهب بالزاد الإيماني الذي يمكنه من الثبات أمام الساحر وسحره.

١٤ ـ كان الساحر يضربُ الغلام، لأنه يأتيه متأخراً، وفي هذا إشارة إلى عنف الجاهلية وقسوتها على الأطفال، واستخدامها للضرب والعقاب البدني.

كما أن في ضرب الساحر للغلام، إشارةً إلى وقوع البلاء والابتلاء والمحنة بالغلام، وهي ملازمة لكل من سار في طريق الله.

١٥ ـ تقدَّم الغلام بالشكوى مما يعانيه إلى الراهب، لأن الراهب هو شيخُه ومربيه وموجهه، والداعية يَطلب من مربيه توجيهَه، ومن قائده حلَّ مشكلاته.

ولم تكن شكوى الغلام بهدف تقديم المعاذير والتراجع عن الطريق. بل بهدف حل المشكلة التي تعيق سيره واستمراره.

١٦ ـ لما سمع الراهب شكوى الغلام، قدم له الحلَّ والعلاج، لأنه المربّي والقائد، وهكذا فليفعل القادة بمشكلات الجنود.

١٧ ـ حلَّ الراهب مشكلة الغلام بأن أباح له الكذب على الساحر الكافر. فيقول للساحر حَبَسني أهلي لينجو من الضرب، ويقول لأهله حبسني الساحر لينجو من ضربهم.

وكِذبُه إنما هو للخروج من المحنة وتجاوز الفتنة، ولذلك أذِن له فيه الراهب للضرورة. وليس في هذا إباحةٌ للكذب، فهو محرَّم منهيٌّ عنه، ولكنه مأذون فيه للضرورة.

ومعلوم أنه في ديننا مأذون فيه في حالات ثلاث: في الصلح بين اثنيْن متخاصميْن. وفي إشادة الرجل بجمال زوجته. وفي مواجهة الرجل للكفار حفظاً على أسرار المسلمين.

لكننا لا نطبق هذه الحالات على إذْن الراهب للغلام، لأنه لم يكن على شرعنا، فله شريعته الخاصة به، فلماذا نطبق عليه شريعةً لم يكلفْه الله بها، ولم تكن قد شرعت في زمانه؟.

١٨ ــ سخّر الله للغلام دابةً عظيمةً حبَست الناس، فدعا الله إنْ كان أمر الراهب أحبَّ إليه أن يقتلها، فرماها بحجر فقتلها، ومضى الناس.

ولعل قوله: «اليوم أعلم آلساحر أفضل أم الراهب» يشير إلى قلَقه لتلقّيه من الساحر والراهب في نفس الوقت، معلوماتٍ متعارضة، ورغْبته في إنهاء هذه الازدواجية المُتْعبة.

وفي هذا إشارة إلى تأثُّره بما عليه الراهب، واختياره لطريقه، وتلقّيه دينَه ليس معلوماتٍ نظرية عقلية ثقافية، ولكن حقائق مُعاشة، وقيماً حياتية.

فقد كان ممكناً أن يستمر في تلقّي الدين والسحر معاً دون قلق، إذا كان يسمع للراهب والساحر بدون تفكير أو شعور، لأن سماعَه سيكون مجرداً من التأثير، وسيكون الدين والسحر عنده مجرَد كلام.

ولكن الغلام لم يفعل هذا لأن الدين الذي تلقّاه يريد منه غير هذا.

١٩ ــ قول الغلام في دعائه: «إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر» ليس معناه أن الراهب والساحر كانا في نظره سواء، ويريد أن يطمئن إلى أحدهما، كما قد يفهم بعض الناس. ولكن دعاءه يعني أنه كان يطلب اليقين على أمر الراهب ودينِه من الواقع، بعد وصوله إلى يقين الفطرة والفكر والنظر.

ومما يدل على اقتناعه بأمر الراهب وقبوله له، قوله «اللهم» وخطابُه اللَّهَ بهذه الصيغة التي تعلَّمها من الراهب، والتي تدلُّ على إيمانه بالله.

٢٠ ــ كونُ الدابة التي تحبس الناس مجالاً للاختبار ثم اليقين، بشرى خير، وفألاً حسناً.

فتلك الدابة في حبْسها للناس تمثل الملك الطاغية الذي يُعبِّد الناسَ له من دون الله، ويصدُّهم عن دين الله.

وقتْلُه للدابة بالحجر يوحي بأنه هو الذي سيخلِّص الناس من ذلك الطاغية، ويدلُّهم على طريق الله، ويقودهم إلى جنته.

٢١ ــ اختيار الغلام للدابة ليخلِّص الناس منها، إشارة إلى بدئه دعوتَه بخدمة الناس وتقديم الخير لهم، وصدّ الأذى والمكروه عنهم، وبذلك قدَّم نفسه ودعوته للناس من خلال هذا الطرح العملي والخدمة الاجتماعية، وفي هذا حياةٌ للدعوة، وتمهيد لقبول الناس لها.

٢٢ ــ لما قتل الغلام الدابة، ورجع إلى الراهب وأخبره، سُرَّ الراهب بفعل الغلام، وقال له: «أي بني: أنت اليوم أفضل مني».

وإخباره بكونه أفضلَ منه بعبارة: أيْ بني، وهي كلمة التحبب والتودد، يدل على العلاقة الروحية المتينة بينهما، ويدل على رضى نفس الراهب وهو يخبره.

٢٣ ــ إخبار الراهب الغلام بأنه أصبح أفضلَ منه يدل على إخلاصه لله وزهْده في هذه الدنيا، وتجرُّده عن كل حظوظ النفس.

٢٤ ــ كون الغلام أفضلَ مِن الراهب، وهو تلميذه، والراهبُ أسبق منه في عالم الإيمان، وقَطَع سنوات طويلة في السير إلى الله، يدل على أن الفضل والمنزلة في الدعوة لا تكون بالعمر الذي يعيشه المسلم فيها، بل بمقدار الإيمان والتقوى والإخلاص والتجرد.

٢٥ ــ أخبر الراهب الغلام بأنه سيُبتلى. وهو في هذا يعرِّف الغلامَ ــ كما يعرفُنا نحن أيضاً ــ على طريق الدعوات، وعلى معالمه وسماته ويقدم حقيقة قاطعة، وسنّة مطردة دائمة، وهي أن الابتلاء سنّة الدعوات، وأن الدعاة لا بدّ أن يصيبهم منه ما قدره الله لهم.

وإخباره للغلام بذلك في بداية المرحلة العلنية للدعوة، حتى يوطِّن نفسه على ما سيلاقيه، ويستعد له، ويتزود له بالصبر والتقوى والثبات.

وعلى القادة والمربين الدعاة، أن يعرِّفوا أتباعهم على طريق الدعوة، وعلى معالمه وسماته، وأن يبيّنوا لهم ما هم مقدِمون عليه، وما ينتظرهم خلاله، حتى يكونوا على بينة من الأمر، وحتى يستعدوا لمواجهة الأخطار.

٢٦ ــ طلب الراهب من الغلام أن لا يدل عليه. وفي هذا أخذ بمبدأ «السِّرِّيَّة» في التنظيم الدعوي.

والسرية التنظيمية للدعوة، من حيث التنظيم والقيادة، أمر لا بدّ منه للدعوات في أي زمان ومكان.

وهذه السرية بارزة في كثير من حياة السابقين، كما توحي بذلك لقطاتُ ومشاهدُ من قصصهم في القرآن.

وأبرز ما تَبدو هذه السرية في قصة موسى عليه السلام في سورة القصص. وفي دفاع الرجل المؤمن الذي كان يكتم إيمانه عن موسى عليه السلام أمام فرعون كما في سورة غافر[1].

أما في سيرة الرسول ﷺ، وبخاصة في الفترة المكية من الدعوة فإن السرية كانت ملحوظةً مقصودةً مُرَادةً، في كثير من حياة الصحابة وتصرفاتهم

(١) انظر بياننا للسرية في هاتين القصتين في كتابنا «مع قصص السابقين في القرآن: القسم الأول».

وأعمالهم. وأبرز مثال على ذلك قصةُ إسلام أبي ذر الغفاري رضي الله عنه. وهجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة.

٢٧ ــ بعدما عُرف الغلام، واشْتَهر أمره بين الناس، إنطلق بدعوته بينهم. وفي هذا انتقال منه من السرية إلى العلنية في الدعوة.

٢٨ ــ اختار الغلام مجالاً طيّباً وميداناً مؤثِّراً، لتعريف الناس به وبدعوته وبدينه. إنه مجال خدمتهم، وتقديم الخير لهم، وكف الأذى عنهم. حيث صار يبرىء الأكْمَهَ والأبرصَ، ويداوي الناس من سائر الأدواء.

وقد كان الغلام موفَّقاً في هذا الميدان، ناجحاً في هذا المجال. لأن الناس سوف يحبونه لِخِدمته لهم، ويحبون دينه الذي يقدمه لهم، ويحبون الله ربَّه الذي يشفيهم.

وعلى الدعاة أن يَعْرفوا هذا الدرس من طريقة الغلام في الدعوة.

٢٩ ــ معالجتُه الناس من الأدواء، وإبراؤه للأكمه والأبرص بإذن الله، بدون تعلُّم منه لأسس العلاج ومبادىء الطب، يُعتبر كرامةً من الله سبحانه له، وهذا من كرامات الأولياء، التي يكرمهم الله بها.

إن الشفاء والبرء بإذن الله وإرادته، لكن تصرُّف الغلام هو سبب مادي ظاهري بشري لتحقيق قدر الله سبحانه.

٣٠ ــ ما جرى بينه وبين جليس الملك الذي كان قد عَميَ، وجاءه ليعالجه يعتبر درساً للدعاة في صلتهم بالناس.

فقد جاءه الجليس بهدايا كثيرة، وقال له: ما ها هنالك أجمع، إن أنت شفيتَني.

فتجرَّدَ الغلامُ لربه ودعوته، ورفضَ هدايا الجليس الكثيرة كلها.

على الداعية أن يتجرد لدينه وربه ودعوته، وأن لا يسأل الناسَ شيئاً، وأن لا يأخذ منهم شيئاً، وأن لا يطلب منهم على دعوته أجراً، وأن لا يكلفهم مالاً ولا متاعاً، وإذا قدموا له من ذلك شيئاً، فيحاول ردَّه إليهم. لتبقى صلتُه بهم خالصةً من أية شائبة مالية أو مادية.

لأن هذا أَدْعى لمحبة الناس له، وقبولِهم لدعوته. فالزهد في ما أيدي الناس سبب لمحبة الناس للزاهد.

٣١ ـ رد الغلام على عرض الجليس المادي بقوله: أنا لا أشفي، ولكن الله هو الذي يشفي».

إنه يعرِّف الجليس على الله، ويقدم له العقيدة والإيمان، بصفاء ووضوح. كما أنه يبدأ مع المدعو بالأساس والأهم وهو العقيدة والإيمان.

٣٢ ـ طلب الغلام من الجليس الإيمانَ باللَّهِ إن أراد الشفاء: إن آمنتَ باللَّه دعوتُ الله فشفاك.

وهو في ذلك يستغل حاجةَ الجليسِ إلى الشفاء ليعرض عليه الإيمان، أو بالأصح يستغلُّ قُربه إلى اللَّهِ وحاجتَه له وتوجُّهَ قلبه وفطرته له، لأن الإنسان أقرب ما يكون إلى الله، في حالة الاضطرار والحاجة.

٣٣ ـ إستجاب الجليس لدعوة الغلام، فآمن باللَّه، فشفاه الله بدعاء الغلام، وردَّ له بصره.

وهذا يدل على أن الإيمان كامنٌ في أعماق قلوب الناس، وأن فِطَرهم تتوجه إلى الله، لكن كفر أناس ومعاصيهم وذنوبهم تُغطي على تلك الفطر، وتطمس على قلوبهم. فإذا وَجَدَ أحدُهم الداعيةَ الناجح المؤثر، والأسلوبَ الصحيح الفعال، فإنه يصحوقلبه،وتستيقظ فطرته، ويتوجه إلى ربه.

٣٤ ـ هناك فرق بعيد بين موقف الراهب مع الغلام، وموقف الغلام مع الملك.

فقد عرفْنا رغبة الراهب في السرية، ولذلك أوصاه بأن لا يدل عليه عند المحنة والإيذاء والابتلاء.

بينما لا نجد هذه الوصية في صلة الغلام الجليس. إنه لم يقل له: لا تدل عليَّ!.

فما هو الفرق بين الوقفتيْن؟.

إن الفرق هو في المرحلة التي وصلتْها الدعوة.

عند وصية الراهب للغلام كانت الدعوة سرية، ولذلك حرص الراهب على عدم كشفها.

أما عند معالجة الجليس فقد كانت الدعوة علنية، لأن الغلام انتقل بها إلى مرحلة العمل العلني والتحرك العلني، حيث كان يداوي الناس من سائر الأدواء، الناسَ كلَّ الناس.

لقد أصبح معروفاً للناس، فلا معنى لأن يطلب من الجليس أن لا يدل عليه.

في المرحلة الأولى السريَّة، كان الارتباط فردياً بين الراهب والغلام.

أما في المرحلة الثانية فقد كان الارتباط عاماً بين الغلام وبين الناس، من خلال اتصاله بهم ومعالجته لهم.

ثم إن الراهب في المرحلة الأولى آثر العمل السري، ولم يدخل المجال العلني. أما الغلام فقد تحرك تحركاً علنياً، أثَّر به في الناس، وكسَبَ قلوبهم وتأييدهم.

التحركُ في المرحلة الأولى كان محدوداً ضيقاً قليلاً، كما يبدو في تعرف الغلام على الراهب ولقائه به. بينما هذا التحرك في المرحلة الثانية كان علنياً عاماً جماهيرياً.

لهذه الفروق بين المرحلتَيْن ناسَب أن يوصي الراهب غلامه أن لا يدل عليه، بينما أسقط الغلام هذه الوصية للجليس، وكأنه يوصيه بعكسها، ويطلب منه أن يدل النَّاس عليه!

٣٥ ــ ذهب الجليس إلى الملك مزوَّداً ببصره، ومزوّداً بعزّته وجرأته وكرامته وشجاعته، والأهم أنه مزوَّد بإيمانه.

وجلس إلى الملك كما كان يجلس. وفوجىء الملك به وقد عاد إليه بصرُه. فسأله: من ردَّ عليك بصرك؟ فأجابه: ربّي. فسأَل: ولك رب غيري؟ فأجابه الجليس البصير المؤمن: ربّي وربك الله.

لقد تحوّل هذا الرجل من جليسٍ للملك، سميرٍ له، عابدٍ له، ذليلٍ بين يديه، إلى مؤمن داعية إلى الله.

واختار لدعوته أعتى رجل وأظلم رجل. إنه الملك الذي يدّعي الربوبية، والذي يُعبِّد الناسَ له من دون الله. اختاره للدعوة والبلاغ والإعلان. إنه يقول له كلاماً عجيباً يسمعه لأول مرة، ويهزه من الداخل هزاً عنيفاً: ربّي وربك الله.

وتَلحظ في عبارة الجليس البصير المؤمن: الجرأةَ والشجاعةَ والصراحةَ والعزةَ والحرصَ على البيان والدعوةَ والتبليغ.

٣٦ ــ ويُصيب الجليسَ البصيرَ ما يصيب كلَّ داعية من أعدائه، حيث يعذبه الملك عذاباً رهيباً، فيثبت على دينه.

إن موقفَه شبيه بموقف السحرة الذين جاءوا فرعون مرتزقة مأجورين، فلما آمنوا برب العالمين، وخالط الإيمانُ قلوبَهم، تحوّلوا إلى دعاة مبلِّغين، وواجهوا تعذيبَ فرعون بصبر وثبات ويقين.

٣٧ ــ بعدما اكتشف الملك أمرَ الغلام، قال له: أيْ بنيّ. إنه يخاطبه

بهذه العبارة التي ظاهرُها المودة والمحبة والرأفة. ولكنها في الحقيقة كلُّها مكر وخبث وخداع. وكأنه يريد أن يضغط عليه عن طريق الإغراء بأن يشير له بمزايا القرْبِ منه، والخضوعِ له. وأن يَعِدَه بما ينتظره من مستقبل زاهر وحياة مترفة.

فرْق بعيد بين الكلمة الأبويِّة الرحيمة الرقيقة التي قالها الراهب للغلام أيْ بنيّ. وبين الكلمة الماكرة الخبيثة الصادرة له من الملك: أيْ بنيّ.

إن الحروف في الحالتين واحدة والكلمات واحدة، ولكن الفرق في هدف قائلها منها، وفي حالته وهو يقولها.

٣٨ ــ ويتجلى خبثُ الملك ومكرُه في قوله للغلام: قد بلغ من سحرك ما تبرىء الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل. حيث يحاول بذلك أن ينسب نجاح الغلام إليه، وأن يفسر أعماله بالسحر الذي تلقّاه عن ساحر الملك. وفي هذا تزويرٌ للحقائق، وتلبيسٌ للأمور على الناس، وتفسير للحق بالباطل، لإخفاء الحقيقة على الناس.

٣٩ ــ وينجح الغلام في مواجهته للملك، ويجتاز منعطفَ الإغراء، ويستعلي عليه بفضل الله.

ويقف أمام الملك بإيمان وجرأة واستعلاء وثبات: إني لا أشفي أحداً. إنما يشفي اللَّهُ.

ولا ينجح في مواجهة كبراء الطغاة إلَّا عظماءُ الدعاة الرجال المؤمنين.

٤٠ ــ ويمر الغلام بمرحلة أخرى خطيرة، حيث يأخذه الملك، ويعذبهُ. ولم يزل يعذبه. ويثبتُ على دينه، ولكنه لا يثبت على سرِّ أستاذه، حيث يضطرُّ مرغماً إلى إفشاء سره، فيدل على الراهب.

ولم يكن الغلام الداعية مؤاخَذاً في هذا ولا آثماً. ولكنها الأسرار التنظيمية، التي قد لا تبقى أسراراً أمام الاضطهاد البشع، والتعذيب الرهيب.

كم من الأسرار التنظيمية الدعوية التي أُفشيتْ من قبل دعاة صادقين ملتزمين، في ساحات التعذيب و «زنازينه» ووسائله وأدواته. أفشاها الدعاة كارهين مضطرين، وأحياناً أفشوها وهم في حالة لا إدارية.

إن الطغاةَ يخترعون من وسائل التعذيب الرهيبة، ما يجعلون بها الداعية المعذَّب، يفقد وعيه وعقله وإدراكه واختياره، فتفلت منه أسراره من «خانة» اللاوعي أو اللاشعور، فينطق بها وهو شبه مخدَّر أو منوَّم.

ولعل هذا الأمر يدعو الدعاة، إلى التقلل من الأسرار الدعوية التنظيمية، وإلى عدم البحث فيما لا يعنيهم من تلك الأمور والأسرار الدعوية التنظيمية، وإلى عدم الإكثار من الأخبار والمعلومات عن إخوانهم وتنظيمهم. فإذا ما عاشوا في التعذيب حالةَ الهَذَر والهذيان، لم يجد الطغاة عند عقلهم الباطن أخباراً أو معلومات.

كما أنه على القيادة أن تقدِّر الوضْعَ والجوَّ والحالة التي أفضى فيها الداعية بما عنده، وقدم للطغاة بعض أسرار دعوته، فلا تعامل الجميع معاملة واحدة، إدانةً أو عفواً وإعذاراً، ولكن تُصدر حكمَها بالإدانة والعقوبة، أو العفو والصفح، على حسب الحالة القائمة، ووضْع الداعية أمام الطغاة، وطريقةِ وكيفيةِ إفضائه بما عنده، ومستوى ما قدَّم لهم من معلومات وأخبار.

٤١ ـ قام الملك بتعذيب الجليس والراهب، وكان حريصاً على ارتدادهما، لأن في ارتدادهما قتْلاً للدعوة، وفي قتلهما حياةً لها. ولهذا عرض عليهما الرجوع عن الدين، ولما أبيا قَتَلَهما بنشرهما بالمنشار.

وقتلُهما بواسطة المنشار يدل على تمكُّن الحقد من قلب الملك، على الدعوة والدين، كما يدل على الحرب الانتقامية الناقمة التي يشنُّها الأعداء ضد الدعاة، وعلى استخدامهم وسائل غير إنسانية ولا معقولة فيها.

كما أن في لجوء الملك إلى أسلوب القتل دليلاً على أن الكافرين

لا يُحسنُون إلّا هذا الأسلوب في مواجهة الحق وأهله، وأنهم يـرفضون الحـوار والمناقشة والإقناع والمناظرة.

أما ثبات الجليس والراهب على الدين، وإيثـارُهما الشهـادةَ على الردة، فـدليـل على تمكُّن الإيمـان فيهمـا، وعلى ثبـاتهمـا واستعـلائهمـا وطلبهمـا لرحمة الله ومرضاته.

٤٢ ــ كـان الملك يعتبرُ الغـلام القـائـدَ العملي للدعـوة، ولهـذا كـان حـريصاً على ردتّـه وإغـوائـه، وعلى عدم قتلـه، لأن في تخليـه عن دينـه قتـلاً لـدعوتـه، ثم إن قتْلَه يحدث بلبلة وفتنـة لدى النـاس، فهو معـروف عِنـدهم، مشهور بينهم، محبوب من قِبلهم، لخدمته لهم.

٤٣ ــ يَـظهرُ حـرصُ الملك على عدم قتـل الغلام في أنـه أراه مصـرع الـراهب والجليس، لعله يضعف أو يتأثـر فيتراجـع. ثم أرسله مـع طـائفـة من الجنود ليلقوه من الجبـل أو يغرقـوه في البحر، وكـان بإمكـانه أن ينشـر جسمه بالمنشار كما فعل مع زميليْه وأخويْه.

٤٤ ــ لعل في اختيار الملك تلك الـوسيلة في قتل الغـلام هدفـاً آخر. حيث كـان يـريـد أن يتيـح للغـلام فـرصـةً للتفكيـر والتـردد ثم التـراجـع عن ما هو عليه، وذلك أثناء المسافة الطويلة، في طريقه إلى الجبل، أو البحر.

٤٥ ــ كان الغلام مؤمناً بربه، متوكِّلاً عليه، مفوِّضاً أمره إليه، طالباً منـه وحده الخلاص والفرج، كما يبدو هذا من دعائه ربـه هو على قمـة الجبل وفي وسط البحر: اللهم اكفنيهم بما شئت.

لقـد كان الغـلام وقتَها عـاجزاً عن إنقـاذ نفسه، ولا يملك من الأسبـاب المادية شيئاً للخلاص، فتـركَ الأمر لـربه، أن يكفيـه شرَّهم بـأي سبب يختاره سبحانه، وبأية كيفية يريدها عزّ وجلّ.

٤٦ ـ تظهر في استجابة الله للغلام، وتخليصِهِ له من بين الزبانية، حيث رجف بهم الجبل فسقطوا وماتوا، وانكفأت بهم السفينة فغرقوا، تظهر نصرةُ الله له، وكونه سبحانه معه، ودفاعه عنه، وتسخيره ما يشاء من المؤيدات له.

وتظهر في ذلك أيضاً كرامة من الله لهذا الغلام الداعية الناصر لدين الله وتضاف إلى كراماته السابقة.

٤٧ ـ ماذا فعل الغلام بعد هلاك الزبانية في المرتيْن؟ هل هرب من الميدان وكان بإمكانه ذلك؟ هل اختفى عن العيون والأنظار؟ ومع أن حياته مهددة بالخطر، فهل كان حريصاً على الحياة؟.

لقد جاء في المرتيْن يمشي إلى الملك! وهو يعلم ماذا تعني عودتُه إلى الملك، وماذا ينتظره عند الملك.

لماذا عاد إلى الخطر المباشر؟ لأنه في مواجهة قوية، ومعركة ساخنة، واختفاؤه وإيثاره للنجاة يعني هزيمتَه وهزيمةَ دعوته في تلك المعركة.

لقد وَجَدَ مصلحته في مصلحة الدعوة، وحياتَه في حياة الدعوة، وطالما أن من مصلحة الدعوة ركوبَ الخطر فليفعل. وحتى لو كان في مصلحة الدعوة موتُه والقضاءُ على حياته، فليفعل.

لا تفسَّرُ عودته على أنها تهوُّر، كما لا تفسر نجاته على أنها حكمة وكياسة. لقد كان في عودته في قمة الشجاعة.

يجب أن نفرق في مواقف المواجهة مع الطغاة وأعوانهم بين ثلاث كلمات: الجبن والتهور والشجاعة.

فالجبن: هو عدم الاستعداد للبذل والتضحية عند الحاجة لذلك.
والتهوُّر: هو التضحية بلا ضرورة ولا حاجة.

والشجاعة: هي التضحية الضرورية النافعة.

٤٩ ـ تبدو لنا حكمة من قول الملك له لدى عودته: ما فعل أصحابك؟ حيث نسبَ الزبانية إلى الغلام، وأضافَهم له، وجعلَهم أصحابَه، مع أنهم يريدون قتله، وخرجوا لتعذيبه، فما معنى هذه الصحبة.

لقد كانوا قبل خروجهم أصحاباً للملك، حيث قال: «فدفعه إلى نفر من أصحابه» والضمير هنا يعود على الملك. ووجْه صُحبتهم للملك أنهم خرجوا بتكليف منه، منفِّذين لأمره.

أما بعد هزيمتهم أمام ثبات الغلام، وإهلاك الله لهم، فلم يعودوا أصحاباً للملك، لقد تخلى الملك عنهم بعد هزيمتهم، وهكذا يتخلى الطغاة عن أعوانهم عند فشلهم. لم ينسبهم الملك له، حتى لا ينسب هزيمتهم له أمام الغلام المنتصر.

٥٠ ـ أيقن الملك أنه عاجز عن قتل الغلام، وعرف الغلام بعجزه، فصار يُصدر إليه الأمر، والملكُ ينفِّذ ذلك!

قال له: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به؟ قال: وما هو؟

سبحان الله. كيف يمكر الله بأعدائه، ويُذل الطواغيت. لقد كان الملك قبل قليل هو الآمر الناهي، المتكبِّر المنتفش، يزعم أنه رب الناس. وها هو الآن ذليل على يديْ الغلام، ذليل بين يديْ الغلام، واقف أمه بعجزه وذله وصَغاره وهوانه.

إنه يريد الخلاصَ من هذا المأزق، والقضاءَ على الغلام بأية طريقة، حتى لا ينتشر دينه بين الناس، فيخسر الملك، وإنه ليسمع أية نصيحة في ذلك، حتى لو صدرت عن الغلام نفسه.

الغلام الآن عملاق أمام الملك، الذي تحوَّل إلى قزم صغير. الغلام الآن هو الآمر، والملك يتلقى الأمر للتنفيذ.

الغلام يقول له: حتى تفعل ما آمرك به، والملك يقول بلهفة: ما هو؟

ولعل هذا أول أمر يتلقاه الملك في حياته! ويجد نفسه مضطراً إلى تنفيذه!.

٥١ ــ ونقف أمام تبيين الغلام طريقةَ قتْله والخلاص منه، لنقول: إنه يعلم أن المرحلة القادمة تقتضي ذلك. إن حياته موقوفةٌ على دعوته، وإنه يبذلها لهذه الدعوة.

إنه يريد إنهاءَ ادعاء الملك للربوبية، وأن يُرِي الناسَ ضعفه وعجزه، ولو كان هذا على حساب روحه وحياته.

٥٢ ــ في قول الغلام للملك: «تجمع الناس في صعيد واحد» يبدو حرصُه على دعوة الجماهير، ليشهدوا الأحداث ويفكروا فيها، ويعرفوا الحق من الباطل، إنه في هذا ينتقل إليهم، ويريد أن لا يبقوا غائبين أو متفرِّجين، يريد لهم أن يدخلوا المعركة، وأن يشاركوا فيها، وأن ينحازوا إلى جانب الحق فيها.

إن الطغاة عندما يواجِهون الحق، يحرصون على تغييب الجماهير وتحييدها، وعلى مواجهة جنود الحق والتنكيل بهم في معزل عن تلك الجماهير، لأنهم يخشون استيقاظَ الفطرة في قلوب هؤلاء، فينحازون إلى جانب الحق.

٥٣ ــ دل الغلامُ على طريقة الخلاص منه، وأمَر الملكَ بتنفيذها: أن يصلبه على جذع: وذلك ليكتمل ضعف الغلام أمام الجماهير المحتشدة، فينفعلون لذلك المنظر: غلام صغير ضعيف مجرَّد من القوى المادية، مصلوب على جذع شجرة.

وفي هذا مشاركة وجدانية عاطفية بين الغلام والناس.

٥٤ ـ أمَر الملكَ بأخذ سهم من كنانة الغلام المصلوب، وليس من أي مكـان آخـر، ليَعْلم الملكُ والنـاس أن سبب القتـل أيضـاً يملكـه الغـلام ولا يملكه الملك.

٥٥ ـ يـوجِّه الغـلام الملكَ إلى كـل حـركـة في عمليـة قتله، ويـأمـره بالخطوات التفصيلية المفهومة ضمناً، وذلك حيث يقول لـه: «ثم تضع السهم في كبـد القوس» إنـه يـريـد إظهـارَ عجـز الملك، وأن لا يتصـرف من عنـده، ولا يتحرك حركة من تلقاء نفسه، ليكون خضوعُه للغلام كامـلاً، وضعْفُه أمـامه بالغاً.

٥٦ ـ وأمر الغلام الملك أن يعتـرف باللَّهِ ربـه ورب الغلام، وأن يقتـل الغلام باسم الله: قل: بسم الله ربِّ الغلام.

إنـه يـريـد قبـل أن يمـوت، أن يقـدِّم للجمـاهيـر التفسيـر الصحيـح لـلأحداث، وأن يعـرِّفهم على الله، وأن يـريَهم عجـزَ الملك وضعفَـه، فكيف يتخذونه رباً لهم من دون الله؟

٥٧ ـ لقـد أراد الملك قتْـلَ الغـلام مرتْين، وعجز، وأهلك الله جنـوده، ومهما حاول قتْله فسوف يعجز ويفشل لأن الله لا يريد ذلك.

أما عندما يريد الله موت الغلام فلا يكون إلَّا ما يـريد سبحـانه، فـاختيار الغلام هذه الـطريقة المؤثِّـرة الدعـوية لنهـايته. ليَعـرف الناسُ أن هـلاكه وقتله إنمـا بقـدر الله ومشيئتـه وإرادتـه، وليس بـإرادة الملك الـذي عـرفـوا عجـزه عن ذلك.

٥٨ ـ ويستجيب الملك لأوامر الغلام استجابة الضعيف المضـطر، لأنه وجد نفسه أمام ثلاثة أمور:

إمَّا أن يترك الغلام، يدعو كما شاء،وفي هذا سيؤمنون باللَّهِ.

وإما أن يستمر في محاولات قتْله، وسوف يستمر في تأكيد عجزه أمام الناس.

وإما أن يقتله حسبما يأمر هو. ليتخلص منه.

لقد اختار الأمر الثالث، مكرَهاً مضطَراً، وما درى العاجز المسكين أن الناس سيؤمنون باللَّهِ رب الغلام.

٥٩ ــ اختيار الغلام لعبارة: «باسم الله ربِّ الغلام» لقتْله، يهدف منه إلى تعريف الناس باللَّهِ ربِّ الملك، فقد أحبه الناسُ لما قدَّمه لهم من خير ومنفعةٍ، فبقي قبل أن يغادر دنياهم إلى ربه، أن يدلَّهم على الله ربه الذي ألهمه خدمتَهم ونفعَهم، والذي كان هو الشافي لهم.

كما يهدف منه أن يريهم مقدار العجز والضعف الذي بلغه الملك، فهو الطاغية الجبار الذي كان يدَّعي الربوبية، ويقتل من لا يُقر له بذلك، كما فعل مع الراهب والجليس، إنتهى به الأمر إلى أن يعترف باللَّهِ رب الغلام، وأن يقتله باسمه.

٦٠ ــ نفَّذ الملك ما أمره به الغلام، ورمى الغلام بسهم، فوقع السهم في صدغه، فوضع الغلام يده في صدغه في موضع السهم، فمات.

والناس ينظرون، ويتأثرون لهذه النهاية المحزنة للغلام، والذي أحبه كثيرون منهم لما قدمه لهم.

ويغادر الغلامُ هذه الدنيا داعية ثابتاً مجاهداً، وينال الشهادة غايةَ الأماني ونهايةَ الآمال. ويفوز بما عند الله.

لقد جعل الغلام عمره وقفاً على دعوته، ولذلك بَذَلَه في سبيلها، ودعا إلى الله، في حياته وفي مماته. كانت حياته دعوة إلى الله، وكان موته دعوة إلى الله.

٦١ ــ أحدث استشهاد الغلام الأثَرَ المطلوبَ في نفوس الناس، وصاروا يفكرون: غلام صغير يحبهم ويقدِّم لهم الخير والنفع، ويموت من أجلهم، ويُثبت لهم عجز الملك وضعفه، فلماذا لا يؤمنون برب الغلام؟.

وزال الخوف من الملك المقهورِ العاجز من قلوبهم، وآمنوا برب الغلام.

متى آمن الناس؟ بعد استشهاد الغلام.

فكروا فعرفوا أنها دعوة سامية عظيمة، تلك التي يقدِّم صاحبها روحَه وحياتَه من أجلها، والتي يـؤْثِرها على كل ما في الدنيا، والتي يَخرج صاحبها من هذه الدنيا متجرداً من كل ما فيها. لأنه ذاهب إلى ما هو خير وأبقى.

إن الناس يريدون من أصحاب الدعوات التضحية والزهد والتجرد، وعندما يرون هؤلاء الدعاةَ يبذلون لدعواتهم ما يبذلون من أموالهم وأوقاتهم وأعمالهم وآمالهم وأجسامهم ودمائهم وأرواحهم، يتأثرون بهم، ويدخلون في دعواتهم، وقد يكونُ هذا بعد مغادرة الدعاة هذه الدنيا شهداء في سبيل الله.

٦٢ ــ صار الناس يهتفون: آمنا برب الغلام. آمنا برب الغلام. آمنا برب الغلام.

وكان إيمانُهم العظيم في لحظة الانطلاق من قيود الوهم والجهل.

وفي لحظة العزة بعد القهر والذل.

وفي لحظة القوة بعد الوهن والخوف والضعف.

لقد كانوا عظماءَ في إيمانهم برب الغلام، متجرِّدين لله، منيبين إليه، مستعدين للبذل والتضحية في سبيله.

إنهم يعلمون أن إيمانهم سيكلفهم الكثير، وهم على استعداد لبذل ذلك الكثير، إنهم يشهدون استشهاد الغلام، ويعلمون أنهم قد يصيبهم ما أصابه،

وتكـون نهايتهم مثلَ نهايتـه. ومع ذلـك لم يخافـوا ولم يجبُنـوا، بـل جهـروا بإيمانهم.

كانوا قبل لحظات ضعافاً خائفين أذلاء مستَعْبَدين، والآن تحولوا إلى قوة عظيمة أثبت من الجبال، وتتحدى الأهوال.

حقاً إن الإيمان يصنع الأمجاد والبطولات.

٦٣ ــ وأُسقط في يــد الملك، وأُفلتت الأمـور من بين يــديـه، وفقــد السيطرة على تلك المجموع، وجاءه من يقسم له قائلاً: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك. قد آمن الناس.

مكر ضد الحق، ومكر الله به، والله خير الماكرين.

٦٤ ــ لجأ الملك في مواجهة جماهير المؤمنين إلى الوسيلة ذاتها، التي يلجأ إليها كل طاغية. وهي التعذيب والاضطهاد، وقتل المؤمنين وسفك دمائهم.

حيث أمر بالأخاديد على أبواب الطرق فشُقت، وأُضرمت فيها النار ذات الوقود، وأمـر أن يُعرض النـاسُ المؤمنون عليهـا، فَمَنْ تَخَلّى عن دِيْنِهِ وَإِيْمَـانِهِ يعود عنده معزّزاً مكرّماً. ومن بقـي على دينه وإيمانه يقذفونـه فيها، أو يقـولون له: إقتحمها بنفسك.

وسلوك الطغاة أسـاليب البطش والقتـل يعني فشلهم فـي مواجهة الحق، وهـزيمتهم في المعركة النظرية الفكرية معه.

لمــاذا لا يسلكـون معــه أسلوب الحـوار والنقــاش والجــدال؟ لمــاذا لا يحاولون إيقافه ونقض حقـائقه؟ لأنهم لا يملكـون حجّة أو دليـلاً أو منطقـاً، ولذلك يوقنون بهزيمتهم أمامه.

فـلا يبقى أمامهم إلاّ الـوسيلة غيـر الإنسـانيـة، الـوسيلة التي تلجـأ لهـا حيوانات الغابة لتسوية حساباتها فيما بينهـا، وحلّ مشكـلاتِها وفضّ نـزاعاتهـا، أسلوب الضرب والأذى والقتل وسفك الدماء.

٦٥ ـ هل أوقفت الأخاديد زحف الجماهير الإيماني؟ وهل نجحت في ردّتهم عن دينهم؟ وهل أوقعت في نفوسهم الخوف والجبن والهلع؟

منذ متى تنجح وسائل البطش والتعذيب في ردّة الناس وإغوائهم؟ ومنذ متى تقضي تلك الوسائل على دعوة الحق؟

إن دعوات الحق لا تتقوّى إلّا بالشدّة، ولا تمتد وتنمو وتترسخ إلّا بالابتلاء، ولا تثبت إلّا بالمحن.

واصلتْ جَمَاهِيرُ المُؤْمِنِين اندفاعها حتّى أَخَادِيدِ النّيرَانْ.

ثبتت الجماهير المؤمنة على إيمانها، وآثرت ما عند ربّها، وَبَذَلَتْ أَرْوَاحَهَا فِي سَبِيلِ دِينِهَا.

احترقت أجسادهم بالنّار ذات الوقود، وَحَلَّقَتْ أَرْوَاحَهُم في سماء العلياء، وفازوا بالشهادة والجنّة، وغادروا هذه الدنيا غير آسفين عليها.

هذا هو الطريق:

نختم كلامنا عن قصّة أصحاب الأخدود، بِفَصْل «هَذَا هُوَ الطَرِيق» الذي جعله الأستاذ الإمام سيد قطب، آخر فصل في كتابه الرائد «معالم في الطريق». والذي علّق فيه على قصّة أصحاب الأخدود، وسجّل فيه بعض ما توحي به القصّة من معالم الطريق.

وقد كتب سيد قطب هذا الفصل تعقيباً منه على تفسير سورة البروج في الظلال، على أنْ يُطبع مع الظلال، ولكن الرقابة المصرية منعت نشره عندما طُبع الظلال.

فأبقى سيد قطب ذلك التعقيب ونشره في كتاب المعالم.

وإذا علمنا أنّ كتاب «معالم في الطريق» هو آخر ما صدر لسيّد قطب، وعلمنا أنّ فصل «هذا هو الطريق» آخر فصول الكتاب، أدركنا كأن سيد قطب كان يرى لنفسه نهاية كنهاية أصحاب الأخدود، وشهادة في سبيل الله ينالها كما نالها أصحاب الأخدود، وكأنّه ينعي لنا نفسه من خلال هذا الفصل.

وكأن سيد قطب في هذا الفصل يوصي الدعاة من بعده، وهو يغادر دنياهم مودّعاً، بالثبات على الطريق، مهما واجهوا فيه، فهذا هو الطريق الذي قدّره الله للدعاة.

نصّ كلام سيد قطب:

إن قصّة أصحاب الأخدود ـ كما وردت في سورة البروج ـ حقيقة بأن يتأملها المؤمنون الداعون إلى الله في كلّ أرض وفي كلّ جيل. فالقرآن بإيرادها في هذا الأسلوب، مع مقدمتها والتعقيبات عليها، والتقريرات والتوجيهات المصاحبة لها.. كان يخطّ بها خطوطاً عميقة في تصوّر طبيعة الدعوة إلى الله، ودور البشر فيها، واحتمالاتها المتوقّعة في مجالها الواسع ـ وهو أوسع من رقعة الأرض، وأبعد مدى من الحياة الدنيا ـ وكان يرسم للمؤمنين معالم الطريق، ويعد نفوسهم لتلقّي أيٍّ من هذه الاحتمالات التي يجري بها القدر المرسوم، وفق الحكمة المكنونة في غيب الله المستور.

إنّها قصّة فئة آمنت بربها، واستعلنت حقيقة إيمانها. ثم تعرضت للفتنة من أعداء جبّارين بطّاشين، مستهترين بحق الإنسان في حرّية الاعتقاد بالحقّ، والإيمان بالله العزيز الحميد، وبكرامة الإنسان عند الله عن أن يكون لعبة يتسلّى الطغاة بآلام تعذيبها، ويتلهون بمنظرها في أثناء التعذيب بالتحريق.

وقد ارتفع الإيمان بهذه القلوب على الفتنة، وانتصرت فيها العقيدة

على الحياة، فلم ترضخ لتهديد الجبارين الطغاة، ولم تفتن عن دينها، وهي تحترق بالنّار حتّى تموت.

لقد تحررت هذه القلوب من عبوديتها للحياة، فلم يستذلها حب البقاء وهي تعاين الموت بهذه الطريقة البشعة، وانطلقت من قيود الأرض وجواذبها جميعاً، وارتفعت على ذواتها بانتصار العقيدة على الحياة فيها.

وفي مقابل هذه القلوب المؤمنة الخيّرة الرفيعة الكريمة، كانت هناك جبلّات جاحدة شريرة مجرمة لئيمة. وجلس أصحاب هذه الجبلات على النار. يشهدون كيف يتعذب المؤمنون ويتألمون. جلسوا يتلهون بمنظر الحياة تأكلها النار، والأناس الكرام يتحولون وقوداً وتراباً. وكلما أُلقي فتى أو فتاة، صبية أو عجوز، طفل أو شيخ، من المؤمنين الخيّرين الكرام في النار، ارتفعت النشوة الخسيسة في نفوس الطغاة، وعربد السعار المجنون بالدماء والأشلاء!

هذا هو الحادث البشع الذي انتكست فيه جبلات الطغاة، وارتكست في هذه الحمأة، فراحت تلتذ مشهد التعذيب المروع العنيف، بهذه الخساسة التي لم يرتكس فيها وحش قط، فالوحش يفترس ليقتات، لا ليلتذ آلام الفريسة في لؤم وخسّة.

وهو ذاته الحادث الذي ارتفعت فيه أرواح المؤمنين، وتحررت، وانطلقت إلى ذلك الأوج السامي الرفيع، الذي تشرف به البشرية في جميع الأجيال والعصور.

* * *

وفي حساب الأرض يبدو أن الطغيان قد انتصر على الإيمان. وأن هذا الإيمان الذي بلغ تلك الذروة العالية، في نفوس الفئة الخيرة الكريمة الثابتة

المستعليـة، لم يكن لـه وزن ولا حسـاب في الـمعـركـة الـتي دارت بـين الإيمان والطغيان.

ولا تذكر الروايات التي وردت في هذا الحادث، كما لا تذكـر النصوص القرآنية، أن الله قد أخذ أولئك الطغاة في الأرض بجريمتهم البشعة، كما أخذ قوم نوح وقـوم هود وقـوم صالـح وقوم شعيب وقـوم لوط. أو كمـا أخذ فـرعون وجنوده أخذ عزيز مقتدر.

ففي حساب الأرض تبدو هذه الخاتمة أسيفة أليمة!

أفهكـذا ينتهـي الأمـر، وتـذهب الفئـة المؤمنـة التي ارتفعت إلى ذروة الإيمان؟ تذهب مع آلامها الفـاجعة في الأخـدود؟ بينما تـذهب الفئة البـاغية، التي ارتكبت هذه الحمأة، ناجيـة؟

حساب الأرض يحيك في الصدر شيء أمام هذه الخاتمة الأسيفة!

ولكن القرآن يعلم المؤمنين شيئاً آخر، ويكشف لهم عن حقيقة أخـرى، ويبصرهم بطبيعة القيم التي يزنون بها، وبمجال المعركة التي يخوضونها.

إن الحياة وسائر ما يلابسها من لذائذ وآلام، ومن متاع وحرمان. . ليست هي القيمة الكبرى في الميزان. . وليست هي السلعة التي تقرر حساب الربـح والخسارة. والنصر ليس مقصوراً على الغلبة الظاهرة. فهـذه صورة واحـدة من صور النصر الكثيرة.

إن القيمة الكبرى في ميزان الله هي قيمة العقيـدة، وإن السلعة الـرائجة في سوق الله هي سلعة الإيمان. وإن النصر في أرفـع صُوَرِه هو انتصـار الروح على المادة، وانتصار العقيدة على الآلام، وانتصار الإيمان على الفتنة. . وفي هـذا الحادث انتصـرت أرواح المؤمنين على الخـوف والألم، وانتصـرت على جواذب الأرض والحياة، وانتصرت على الفتنة انتصاراً يشرف الجنس البشـري كله في جميـع الأعصار. . وهذا هو الانتصار. .

إن النـاس جميعاً يمـوتون. . وتختلف الأسبـاب. ولكن النـاس جميعـاً لا ينتصـرون هذا الانتصـار، ولا يرتفعـون هـذا الارتفـاع، ولا يتحـررون هـذا التحـرر، ولا ينطلقـون هذا الانـطلاق إلى هذه الآفـاق. . إنما هـو اختيـار الله وتكريمه لفئة كريمة من عباده لتشارك الناس في الموت، وتنفرد دون الناس في المجد، المجد في المـلأ الأعلى، وفي دنيـا الناس أيضـاً، إذا نحن وضعنا في الحساب نظرة الأجيال بعد الأجيال. .

قـد كان في استـطاعة المؤمنين، أن ينجـو بحياتهم في مقـابل الهـزيمـة لإيمـانهم. ولكن كم كانـوا يخسرون هم أنفسهم؟ وكم كـانت البشـريـة كلهـا تخسر؟ كما كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير، معنى زهادة الحياة بلا عقيدة، وبشاعتها بلا حريـة، وانحطاطهـا حين يسيطر الـطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد؟

إنه معنى كريم جداً، ومعنى كبير جداً، هذا الـذي ربحوه وهم بعـدُ في الأرض، ربحوه وهم يجدون مس النار، تحترق أجسادهم الفانية، وينتصر هذا المعنى الكريم الذي تزكيه النار!

ثم إن مجال المعركة ليس هو الأرض وحـدها، وليس هـو الحياة الـدنيا وحـدها. وشهـود المعركـة ليسوا هم النـاس في جيل من الأجيـال. إن المـلأ الأعلى يشارك في أحداث الأرض، ويشهدها ويشهد عليها. ويزنها بميزان غير ميزان الأرض، في جيل من أجيالها، وغير ميزان الأرض في أجيـالها جميعـاً. والملأ الأعلى يضم من الأرواح الكريمة أضعـاف أضعـاف ما تضم الأرض من الناس. . وما من شك أن ثناء الملأ الأعلى وتكريمه أكبر وأرجـح في أي ميـزان من رأي أهل الأرض، وتقديرهم على الإطلاق!

وبعد ذلك كله هناك الآخرة، وهي المجال الأصيل الذي يلحق به مجال الأرض، ولا ينفصـل عنـه، لا في الحقيقـة الـواقعـة، ولا في حس المؤمن بهذه الحقيقة.

فالمعركة إذن لم تنتهِ، وخاتمتها الحقيقية لم تجىء بعد، والحكم عليها بالجزء الذي عرض منها على الأرض حكم غير صحيح، لأنه حكم على الشطر الصغير منها والشطر الزهيد.

* * *

النظرة الأولى هي النظرة القصيرة المدى الضيقة المجال التي تعن للإنسان العجول. والنظرة الثانية الشاملة البعيدة المدى، هي التي يروض القرآن المؤمنين عليها، لأنها تمثل الحقيقة التي يقوم عليها التصور الإيماني الصحيح.

ومن ثم كان وعد الله للمؤمنين جزاء على الإيمان والطاعة، والصبر على الابتلاء، والانتصار على فتن الحياة.. هو طمأنينة القلب: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ. ألا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوب...﴾[1].

وهو الرضوان والود من الرحمن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدّاً﴾[2].

وهو الذكر في الملأ الأعلى.. قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم. فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم. فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حَمَدَكَ واسترجع. فيقول: إبنوا لعبدي بيتاً في الجنة، وسموه بيت الحمد...»[3].

وقال ﷺ: «يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني. فإذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في

(١) سورة الرعد: آية ٢٨.
(٢) سورة مريم: آية ٩٦.
(٣) أخرجه الترمذي.

ملأ خير منه. فإن اقترب إليَّ شبراً اقتربت إليه ذراعاً، وإن اقترب إليَّ ذراعاً اقتربتُ منه باعاً، وإن أتاني مشياً أتيته هرولة»[1].

وهو اشتغال الملأ الأعلى بأمر المؤمنين في الأرض.. ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ، يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا. رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً. فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾[2].

وهو الحياة عند الله للشهداء: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ. فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ، أَنْ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[3].

كما كان وعده المتكرر، بأخذ المكذبين والطغاة والمجرمين في الآخرة، والإملاء لهم في الأرض، والإمهال إلى حين.. وإن كان أحياناً قد أخذ بعضهم في الدنيا.. ولكن التركيز كله على الآخرة في الجزء الأخير: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ. مَتَاعٌ قَلِيلٌ، ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[4].

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ. إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ. مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ، لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ، وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾[5].

---

(١) أخرجه الشيخان.
(٢) سورة غافر: آية ٧.
(٣) سورة آل عمران: آيات ١٦٩ ــ ١٧١.
(٤) سورة آل عمران: آيتا ١٩٦ ــ ١٩٧.
(٥) سورة إبراهيم: آيتا ٤٢ ــ ٤٣.

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يوعَدُون. يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً، كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُون. خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّة. ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُون﴾[1].

وهكذا اتصلت حياة الناس بحياة الملأ الأعلى، واتصلت الدنيا بالآخرة، ولم تعد الأرض وحدها هي مجال المعركة بين الخير والشر، والحق والباطل، والإيمان والطغيان. ولم تعد الحياة الدنيا هي خاتمة المطاف، ولا موعد الفصل في هذا الصراع.. كما أن الحياة وكل ما يتعلق بها من لذائذ وآلام ومتاع وحرمان، لم تعد هي القيمة العليا في الميزان.

إنفسح المجال في المكان، وانفسح المجال في الزمان، وانفسح المجال في القيم والموازين، واتسعت آفاق النفس المؤمنة، وكبرت اهتماماتها، فصغرت الأرض وما عليها، والحياة الدنيا وما يتعلق بها. وكبر المؤمن بمقدار ما رأى وما عرف من الآفاق والحيوات، وكانت قصة أصحاب الأخدود في القمة، في إنشاء هذا التصور الإيماني الواسع الشامل الكبير الكريم.

* * *

هنالك إشعاع آخر تطلقه قصة أصحاب الأخدود وسورة البروج، حول طبيعة الدعوة إلى الله، وموقف الداعية أمام كل احتمال.

لقد شهد تاريخ الدعوة إلى الله، نماذج منوّعة من نهايات في الأرض مختلفة للدعوات..

شهد مصارع قوم نوح، وقوم هود، وقوم شعيب، وقوم لوط، ونجاة الفئة المؤمنة القليلة العدد، مجرد النجاة. ولم يذكر القرآن للناجين دوراً بعد ذلك

(١) سورة المعارج: آيات ٤٢ ـ ٤٤.

في الأرض والحياة. وهذه النماذج تقرر أن الله سبحانه وتعالى يريد أحياناً أن يعجل للمكذبين الطغاة بقسط من العذاب في الدنيا، أما الجزاء الأوفى فهو مرصود لهم هناك.

وشهد تاريخ الدعوة مصرع فرعون وجنوده، ونجاة موسى وقومه، مع التمكين للقوم في الأرض، فترة كانوا فيها أصلح ما كانوا في تاريخهم. وإن لم يرتقوا قط إلى الاستقامة الكاملة، وإلى إقامة دين الله في الأرض.. منهجاً للحياة شاملاً.. وهذا النموذج غير النماذج الأولى.

وشهد تاريخ الدعوة كذلك مصرع المشركين الذين استعصوا على الهدى والإيمان بمحمد ﷺ، وانتصار المؤمنين انتصاراً كاملاً، مع انتصار العقيدة في نفوسهم انتصاراً عجيباً. وتم للمرة الوحيدة في تاريخ البشرية أن أقيم منهج الله، مهيمناً على الحياة، في صورة لم تعرفها البشرية قط، من قبل ولا من بعد.

وشهد ـ كما رأينا ـ نموذج أصحاب الأخدود.. وشهد نماذج أخرى أقل ظهوراً في سجل التاريخ الإيماني، في القديم والحديث.. وما يزال يشهد نماذج تتراوح بين هذه النهايات التي حفظها على مدار القرون.

ولم يكن بد من النموذج الذي يمثله حادث الأخدود، إلى جانب النماذج الأخرى، القريب منها والبعيد..

لم يكن بد من هذا النموذج، الذي لا ينجو فيه المؤمنون، ولا يؤخذ فيه الكافرون! ذلك ليستقر في حس المؤمنين ـ أصحاب دعوة الله ـ أنهم قد يُدعون إلى نهاية كهذه النهاية في طريقهم إلى الله. وأن ليس لهم في الأمر شيء، إنما أمرهم وأمر العقيدة إلى الله!.

إن عليهم أن يؤدوا واجبهم، ثم يذهبوا. وواجبهم أن يختاروا الله، وأن

يؤثروا العقيدة على الحياة، وأن يستعلوا بالإيمان على الفتنة، وأن يصدقوا الله في العمل والنية. ثم يفعل الله بهم وبأعدائهم، كما يفعل بدعوته ودينه ما يشاء. وينتهي بهم إلى نهاية من تلك النهايات التي عرفها تاريخ الإيمان، أو إلى غيرها مما يعلمه هو ويراه..

إنهم أجراء عند الله، أينما وحينما وكيفما أرادهم أن يعملوا، عملوا وقبضوا الأجر المعلوم! وليس لهم ولا عليهم أن تتجه الدعوة إلى أي مصير، فذلك شأن صاحب الأمر لا شأن الأجير!.

وهم يقبضون الدفعة الأولى طمأنينة في القلب، ورفعة في الشعور، وجمالاً في التصور، وانطلاقاً من الأوهاق والجواذب، وتحرراً من الخوف والقلق، في كل حال من الأحوال. وهم يقبضون الدفعة الثانية ثناء في الملأ الأعلى، وذكراً وكرامة، وهم بعد في هذه الأرض الصغيرة.

ثم هم يقبضون الدفعة الكبرى في الآخرة، حساباً يسيراً، ونعيماً كبيراً.

ومع كل دفعة ما هو أكبر منها جميعاً، رضوان الله، وأنهم مختارون ليكونوا أداة لقدره، وستاراً لقدرته. يفعل بهم في الأرض ما يشاء..

* * *

وهكذا انتهت التربية القرآنية بالفئة المختارة من المسلمين في الصدر الأول إلى هذا التطور، الذي أطلقهم من أمر ذواتهم وشخوصهم. فأخرجوا أنفسهم من الأمر البتة، وعملوا أُجراء عند صاحب الأمر، ورضوا خيرة الله على أي وضع، وعلى أي حال.

وكانت التربية النبوية تتمشى في التوجيهات القرآنية، وتوجه القلوب والأنظار إلى الجنة، وإلى الصبر على الدور المختار حتى يأذن الله بما يشاء في الدنيا وفي الآخرة سواء.

كان ـ ﷺ ـ يرى عماراً وأمه وأباه ـ رضي الله عنهم ـ يعذبون العذاب الشديد في مكة، فما يزيد على أن يقول: «صبراً آل ياسر. موعدكم الجنة . . .».

وعن خباب بن الأرت ـ رضي الله عنه ـ قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد برده في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ أو تدعو لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم، يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين. ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يبعده عن ذلك عن دينه. والله ليتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، فلا يخاف إلّا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون[1].

* * *

إن لله حكمة وراء كل وضع ووراء كل حال. ومدبر هذا الكون كله، المطلع على أوله وآخره، المنسّق لأحداثه وروابطه، هو الذي يعرف الحكمة المكنونة في غيبه المستور، الحكمة التي تتفق مع مشيئته في خط السير الطويل.

وفي بعض الأحيان يكشف لنا ـ بعد أجيال وقرون ـ عن حكمة حادث، لم يكن معاصروه يدركون حكمته. ولعلهم كانوا يسألون: لماذا؟ لماذا يا رب يقع هذا؟ وهذا السؤال نفسه هو الجهل الذي يتوقاه المؤمن. لأنه يعرف ابتداء أن هناك حكمة وراء كل قدر، ولأن سعة المجال في تصوره، وبعد المدى في الزمان والمكان والقيم والموازين، تغنيه عن التفكير ابتداء في مثل هذا السؤال. فيسير مع دورة القدر في استسلام واطمئنان. .

(١) أخرجه البخاري.

لقد كان القرآن ينشىء قلوباً يعدها لحمل الأمانة، وهذه القلوب كان يجب أن تكون من الصلابة والقوة والتجرد، بحيث لا تتطلع ـ وهي تبذل كل شيء، وتحتمل كل شيء ـ إلى شيء في هذه الأرض، ولا تنظر إلّا إلى الآخرة، ولا ترجو إلّا رضوان الله، قلوباً مستعدة لقطع رحلة الأرض كلها في نصب وشقاء وحرمان وعذاب وتضحية حتى الموت. بلا جزاء في هذه الأرض قريب، ولو كان هذا الجزاء هو انتصار الدعوة، وغلبة الإسلام وظهور المسلمين، بل لو كان هذا الجزاء هو هلاك الظالمين، بأخذهم أخذ عزيز مقتدر، كما فعل بالمكذبين الأوّلين!

حتى إذا وجدت هذه القلوب، التي تعلم أن ليس أمامها في رحلة الأرض إلّا أن تعطي بلا مقابل ـ أيّ مقابل ـ وأن تنتظر الآخرة وحدها موعداً للفصل بين الحق والباطل. حتى إذا وجدت هذه القلوب، وعلم الله منها صدق نيّتها على ما بايعت وعاهدت، آتاها النصر في الأرض، وائتمنها عليه. لا لنفسها، ولكن لتقوم بأمانة المنهج الإلهي، وهي أهل لأداء الأمانة منذ كانت لم توعد بشيء من المغنم في الدنيا تتقاضاه، ولم تتطلع إلى شيء من المغنم في الأرض تُعطاه. وقد تجردت لله حقاً يوم كانت لا تعلم لها جزاء إلّا رضاه.

وكل الآيات التي ذكر فيها النصر، وذكر فيها المغانم، وذكر فيها أخذ المشركين في الأرض بأيدي المؤمنين، نزلت في المدينة.. بعد ذلك.. وبعد أن أصبحت هذه الأمور خارج برنامج المؤمن وانتظاره وتطلعه. وجاء النصر ذاته، لأن مشيئة الله اقتضت أن تكون لهذا المنهج واقعية في الحياة الإنسانية، تقرره في صورة عملية محددة تراها الأجيال. فلم يكن جزاء على التعب والنصب والتضحية والآلام. إنما كان قدراً من قدر الله تكمن وراءه حكمة نحاول رؤيتها الآن!.

وهذه اللفتة جديرة بأن يتدبرها الدعاة إلى الله، في كل أرض وفي كل

جيل، فهي كفيلة بأن تريهم معالم الطريق واضحة بلا غبش، وأن تثبّت خطى الذين يريدون أن يقطعوا الطريق إلى نهايته، كيفما كانت هذه النهاية. ثم يكون قدر الله بدعوته وبهم ما يكون. فلا يلتفتون في أثناء الطريق الدامي المفروش بالجماجم والأشلاء، وبالعرق والدماء، إلى نصر أو غلبة، أو فيصل بين الحق والباطل في هذه الأرض. ولكن إذا كان الله يريد أن يصنع بهم شيئاً من هذا لدعوته ولدينه فسيتم ما يريده الله. لا جزاء على الآلام والتضحيات. لا. . فالأرض ليست دار جزاء. وإنما تحقيقاً لقدر الله في أمر دعوته ومنهجه على أيدي ناس من عباده يختارهم ليمضي بهم من الأمر ما يشاء. وحسبهم هذا الاختيار الكريم، الذي تهون إلى جانبه وتصغر هذه الحياة، وكل ما يقع في رحلة الأرض من سراء أو ضراء.

* * *

هنالك حقيقة أخرى، يشير إليها أحد التعقيبات القرآنية على قصة أصحاب الأخدود في قوله تعالى: ﴿وما نقموا منهم إلّا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾.

حقيقة ينبغي أن يتأملها المؤمنون الداعون إلى الله في كل أرض وفي كل جيل.

إن المعركة بين المؤمنين وخصومهم هي في صميمها معركة عقيدة وليست شيئاً آخر على الإطلاق. وإن خصومهم لا ينقمون منهم إلّا الإيمان. ولا يسخطون منهم إلّا العقيدة.

إنها ليست معركة سياسية، ولا معركة اقتصادية، ولا معركة عنصرية. ولو كانت شيئاً من ذلك لسهل وقفها، وسهل حلّ إشكالها. ولكنها في صميمها معركة عقيدة ــ إما كفر وإما إيمان. . إما جاهلية وإما إسلام.

ولقد كان كبار المشركين يعرضون على رسول الله ﷺ المال والحكم

والمتاع، في مقابل شيء واحد، أن يدع معركة العقيدة، وأن يدهن في هذا الأمر! ولو أجابهم ـ حاشاه ـ إلى شيء مما أرادوا ما بقيت بينهم وبينه معركة على الإطلاق.

إنها قضية عقيدة ومعركة عقيدة. وهذا ما يجب أن يستيقنه المؤمنون حيثما واجهوا عدواً لهم. فإنه لا يعاديهم لشيء إلّا لهذه العقيدة ﴿إلّا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾، ويخلصوا له وحده الطاعة والخضوع!

وقد يحاول أعداء المؤمنين أن يرفعوا للمعركة راية غير راية العقيدة، راية اقتصادية أو سياسية أو عنصرية، كي يموهوا على المؤمنين حقيقة المعركة، ويُطفئوا في أرواحهم شعلة العقيدة. فمن واجب المؤمنين ألّا يُخدعوا، ومن واجبهم أن يُدركوا أن هذا تمويه لغرض مبيت. وإن الذي يغير راية المعركة، إنما يريد أن يخدعهم عن سلاح النصر الحقيقي فيها، النصر في أية صورة من الصور، سواء جاء في صورة الانطلاق الروحي كما وقع للمؤمنين في حادث الأخدود، أو في صورة الهيمنة ـ الناشئة من الانطلاق الروحي ـ كما حدث للجيل الأول من المسلمين.

ونحن نشهد نموذجاً من تمويه الراية في محاولة الصليبية العالمية أن تخدعنا عن حقيقة المعركة، وأن تزور التاريخ، فتزعم لنا أن الحروب الصليبية كانت ستاراً للاستعمار.. كلا.. إنما كان الاستعمار الذي جاء متأخراً هو الستار للروح الصليبية التي لم تعد قادرة على السفور كما كانت في القرون الوسطى! والتي تحطمت على صخرة العقيدة بقيادة مسلمين من شتى العناصر، وفيهم صلاح الدين الكردي، وتوران شاه المملوكي، العناصر التي نسيت قوميتها وذكرت عقيدتها، فانتصرت تحت راية العقيدة!

﴿وما نقموا منهم إلّا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾.

وصدق الله العظيم، وكذب المموهون الخادعون!.

● ● ●

الخاتمة

وهكذا نكمل ما قدَّره الله لنا من الكلام عن قصص السابقين في القرآن في هذا القسم الثالث. وبهذا القسم نكْمِل ما نويْنا كتابته حول تلك القصص.

لقد تكلّمنا في هذا القسم عن ثماني قصص:

الأولى: قصة هاروت وماروت. في سورة البقرة.

الثانية: قصة الذي مر على قرية. في سورة البقرة أيضاً.

الثالثة: قصة ابنَيْ آدم. في سورة المائدة.

الرابعة: قصة الذي انسلخ من آيات الله. في سورة الأعراف.

الخامسة: قصة لقمان. في سورة لقمان.

السادسة: قصة سبأ. في سورة سبأ.

السابعة: قصة أصحاب القرية. في سورة يسن.

الثامنة: قصة أصحاب الأخدود. في سورة البروج.

لقد كانت الوقفات أمام تلك القصص مطوّلة، وكانت النظرات فيها فاحصة، وكانت الدروسة المستخرجة منها شاملة، وكانت اللفتات والإيحاءات منها بليغة موحية. ولله الحمد.

ولا نـدَّعي الصواب في كل ما قلناه، فإن العصمة لا تكون إلّا لرسول الله ﷺ، والكمال لا يكون إلّا لله تعالى. وحسبُنا أننا اجتهدنا،

وحرصنا على الصواب، فإن أخطأنا فإنه خطأ غير متعمَّد ولا مقصود، وإنما هو من لوازم ضعفنا البشري الملازم لكل بني البشر.

كما أننا لا ندَّعي الشمول والاستقصاء لكل ما في تلك القصص من دروس ودلالات وعبر وعظات ولطائف ولفتات وإشارات وإيحاءات، فما أوردْناه من كل ذلك ما هو إلّا غيض من فيض، وجزءٌ يسير من ذلك الكنز القرآني الثَّرِّ الوفير. لقد علَّمَنا القرآنُ أن ندعو الله بتواضع قائلين: ربنا زدنا علماً. وبيَّن لنا قصورَنا وجهلنا وقلةَ علمنا: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاّ قَلِيلاً﴾.

إننا ندعو إخوانَنا أهلَ القرآن وجنودَه إلى إطالةِ الوقفة أمام تلك القصص في سياق القرآن، وإلى تعميق النظرة، وعندها سوف يقفون منها على ما لم نقف عليه، وسوف يستخرجون منها ما لم نستخرجْه، وسوف يلتفتون إلى ما لم نلتفتْ إليه.

آيات القرآن فيما تقدمه لنا من دلالات ودروس وعِظات وعِبَر وإشارات ولطائف وإيحاءات، كنزٌ لا ينفد، وبحر لا يجفّ، ومعين لا ينضب، وعطاء دائم متجدد حتى قيام الساعة.

ونسأل الله أن يديم علينا نعمة الحياة في ظلال القرآن، وأن يفيض علينا من بركاته ومعانيه، وأن يفتح علينا من فتوحاته. وأن يجعل هذا القرآن الكريم الحبيب ربيعَ قلوبنا، ونورَ صدورنا، وذهابَ همومنا، وجلاءَ أحزاننا، وأن يرزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، وأن يعلمنَا منه ما جهلنا، وأن يذكرَنا منه ما نسينا، وأن يجعلَه حجةً لنا يوم القيامة.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. وصلَّى الله على سيدنا محمد النبيّ الأمّيّ، وسلَّم تسليماً كثيراً.

● ● ●

المراجع

١ ــ أصحاب الأخدود، لرفاعي سرور. دار نشر التراث العربي ــ القاهرة ــ ١٩٧٧م.

٢ ــ البداية والنهاية، للإمام ابن كثير. مكتبة المعارف ــ بيروت ــ الطبعة الأولى ١٩٦٦م.

٣ ــ تفسير القرآن الحكيم «تفسير المنار»، لرشيد رضا. دارالمعرفة ــ بيروت ــ الطبعة الثانية ــ بدون تاريخ.

٤ ــ التفسير الكبير، للإمام الرازي. دار الكتب العلمية ــ طهران ــ بدون تاريخ.

٥ ــ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للإمام ابن جرير الطبري. تحقيق محمود شاكر ــ دار المعارف ــ مصر ــ بدون تاريخ.

٦ ــ الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي. دار الكتاب العربي بمصر ــ الطبعة الثالثة ١٩٦٧م.

٧ ــ حجة القراءات، لابن زنجلة ــ تحقيق سعيد الأفغاني. مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ الطبعة الثالثة ١٩٨٢م.

٨ ــ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، لجلال الدين السيوطي. دار الفكر ــ بيروت ــ الطبعة الأولى ١٩٨٣م.

٩ ــ الروض الأنف شرح سيرة ابن هشام، للإمام السهيلي ــ تحقيق عبد الرحمن الوكيل. دار الكتب العربية ــ مصر ــ بدون تاريخ.

١٠ ــ شرح النووي على مسلم، للإمام النووي. المكتبة المصرية ومطبعتها ــ القاهرة ــ بدون تاريخ.

١١ ــ صحيح الإمام مسلم، بعناية محمد فؤاد عبد الباقي. دار الفكر ــ بيروت ــ بدون تاريخ.

١٢ ـ صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، لعبد الفتاح أبو غدة. مكتب نشر المطبوعات الإسلامية ـ ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م.
١٣ ـ عرائس المجالس في قصص الأنبياء، لأبي إسحاق الثعلبي. المكتبة الثقافية ـ بيروت ـ بدون تاريخ.
١٤ ـ عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، لأحمد شاكر. دار المعارف بمصر ـ بدون تاريخ.
١٥ ـ غرائب القرآن ورغائب الفرقان، للقمي النيسابوري ـ تحقيق إبراهيم عطوة عوض. طبعة مصطفى الحلبي بمصر ١٣٨١هـ ـ ١٩٦٢م.
١٦ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني ـ بعناية محمد فؤاد عبد الباقي. دار المعرفة ـ بيروت ـ بدون تاريخ.
١٧ ـ في ظلال القرآن، لسيد قطب. دار الشروق ـ الطبعة العاشرة ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.
١٨ ـ الكشّاف، للزمخشري. دار الفكر ـ بيروت ـ بدون تاريخ.
١٩ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق أحمد شاكر. دار المعارف بمصر ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٨م.
٢٠ ـ معالم في الطريق، لسيد قطب. دار دمشق ـ بدون تاريخ.
٢١ ـ المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني ـ تحقيق محمد سيد كيلاني. طبعة مصطفى الحلبي بمصر ١٦٨١هـ ـ ١٩٦١م.
٢٢ ـ ملاك التأويل القاطع لذوي الإلحاد، لأبي جعفر بن الزبير الغرناطي ـ تحقيق د. محمود كامل أحمد. دار النهضة العربية ـ بيروت ـ ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

● ● ●

المحتوى

الموضوع	الصفحة

مقدمة ٥

(١)

قصة هاروت وماروت ٩

القصة في السياق القرآني ١١
معاني الكلمات الغريبة ١٢
إسرائيليات حول القصة ١٢
العلماء المحققون يردون تلك الإسرائيليات ١٤
ما هي قصتهما إذن؟ ١٧
اليهود يتركون الحق إلى الباطل ١٩
الشياطين والسحر وسليمان عليه السلام ٢١
تعقيب على رواية ابن عباس ٢١
معنى «تتلو الشياطين على ملك سليمان» ٢٣
السحر كفر والساحر كافر ٢٥
هل «ما» نافية أو موصولة؟ ٢٦
كيف تعلّم الملائكة السحر؟ ٢٨
ذكر «مـا» في الآية ٣٠
أنواع السحر ٣١
هل للسحر تأثير أم هو تخييل؟ ٣٣
سحر رسول الله ﷺ ٣٥
السحر الحلال: إن من البيان لسحرا ٤١
إنما نحن فتنة ٤٣
الرجل والمرأة: كل منهما زوج للآخر ٤٥

الساحر يفرّق بين الزوجين ٤٧
السحر يضرّ بإذن الله ٥٠
العـلم الضارّ........ ٥٢
لو كانوا يعلمون ٥٣

(٢)

قصة الذي مرَّ على القرية ٥٥

القصة في سياقها القرآني........ ٥٧
تفصيلات القصة إسرائيليات ٥٨
رأي الطبري في هذه الإسرائيليات ٦١
.. ورأي سيد قطب فيها........ ٦٢
السياق الذي وردت فيه القصة ٦٣
أنّى يحيي هذه الله بعد موتها؟ ٦٥
معجزات في قصة الذي مر على القرية ٦٧
كان موته موتاً خاصاً ٦٩
من أدلة البعث في القرآن ٧١
قراءات في كلمات الآية........ ٧٥
إلى أية عظام ينظر؟ ٧٨
العلم بعد التبيُّن ٨٠
سيد قطب يناقش الماديين ٨٢

(٣)

قصّة ابنَيْ آدم ٨٥

القصة في العرض القرآني........ ٨٧
نجاح الشيطان في إغواء ابن آدم ٨٨
القصة عند رواة الإسرائيليات........ ٨٩
رفض تلك الإسرائيليات........ ٩٣
هما ابنا آدم من صلبه ٩٤
معنى أن يتلو القصّة بالحق ٩٦
تقبُّل القربان من أحدهما ٩٧

حقد الحاقد في قوله «لأقتلنك»........ ٩٨
طبيعة أخيه في رده على تهديده........ ٩٩
إنما يتقبّل الله من المتقين ١٠٠
المؤمن لا يفكر في قتل أخيه ١٠٣
المانـع له من قتل أخيه ١٠٤
معنى أن يبوء بالإثمين........ ١٠٥
من التفسير النفسي: تطويـع النفس لصاحبها........ ١٠٦
... فقتله... .... ١٠٩
الخسارة المطلقة في قتل الأخ ١١٠
الغراب يعلم القاتل العاجز ١١٢
ندم القاتل ندم العاجز الخاسر........ ١١٣
فكأنما قتل الناس جميعاً... .... ١١٤
لماذا «كتبنا على بني إسرائيل»؟ ١١٦
تلخيص لأهم دروس القصة ١١٧

(٤)

قصّة الذي انسلخ من آيات الله ١٢١
القصة في السياق القرآني ١٢٣
تفصيلات القصة إسرائيليات ١٢٣
رفض تلك الإسرائيليات ١٢٦
سيد قطب وتلك التفصيلات ١٢٦
مبهمات في قصة ذلك الرجل ١٢٧
من روائـع التصوير الفني في القصة ١٢٩
مع سيد قطب في البعد الواقعي لتلك القصة........ ١٣٢
الإيمان وجلد الإنسان........ ١٣٦
أثر التخلي عن الحق واتّباع الهوى........ ١٣٧
طريق الرفعة وطريق الهبوط ١٣٨
لماذا الكلب دائم اللهاث؟ ١٣٩
سر التمثيل بالكلب والحمار ١٤٠

متى يعصم العلم صاحبه من السقوط؟ ١٤٢
خاتمة: العالم الأبـي للجرجاني ١٤٤

(٥)
قصّة لقمان ١٤٧

القصة في السياق القرآني ١٤٩
إسرائيليات في القصة ١٥٠
بعض ما نسب إلى لقمان من الحِكَم ١٥٣
مبهمات في قصة لقمان ١٥٦
كلمات غريبة في الآيات ١٥٧
لقمان راوٍ للعقيدة ١٥٧
لقمان الحكيم والحكمة ١٥٨
الحكمة في القرآن ١٥٩
الحكمة والشكر ١٦٣
وعظ الأب لابنه ١٦٥
مواعظ لقمان لابنه ١٦٦
نظرات في آيات القصة ١٧١

(٦)
قصّة سبأ ١٨١

القصة في العرض القرآني ١٨٣
شرح الكلمات الغريبة ١٨٤
كلام في قصة سبأ ١٨٥
ملكة سبأ في سورة النمل ١٨٩
بعض دلالات الآيات ١٩١
خلاصة قصة سليمان مع ملكة سبأ ٢٠٠
سياق القصة في سورة سبأ ٢٠١
حديث صحيح عن سبأ ٢٠٢
سبأ آية ٢٠٢
نعم الله على سبأ ٢٠٣

جنة الكفّار في الدنيا زائلة ٢٠٤
كلوا واشكروا! ٢٠٦
فأعرضوا فأرسلنا ٢٠٧
هلاك سبأ بما كان نعمة عليهم: سيل العرم ٢٠٩
البديل المـر ٢١٠
جزاؤهم ببغيهم وكفرهم ٢١٢
وهل نجازي إلّا الكفور ٢١٣
سبأ لا يعتبرون ٢١٥
سبأ أصبحوا أحاديث ٢١٨
في سبأ آيات ٢٢٠
الآيات لكل صبّار شكور ٢٢١
سبأ: نجح إبليس في إغوائهم ٢٢٤

(٧)

قصة أصحاب القريـة ٢٢٧
القصة في سياقها القرآني ٢٢٩
إسرائيليات حول القصة ٢٣٠
مبهمات في القصة ٢٣٣
مناسبة القصة لسورة يسن ٢٣٤
وقفة مع المواجهة بين الرسل والقوم ٢٣٦
١ ــ هل الرسل الثلاثة من قبل الله؟ ٢٣٦
٢ ــ الإصرار على الإرسال: عززنا بثالث ٢٣٨
٣ ــ بشرية الرسل والبلاغ المبين ٢٤٠
٤ ــ التطير من الرسل والدعاة ٢٤٢
٥ ــ سلاح الرجم والتعذيب ٢٤٥
مع الرجل المؤمن في نصرة الرسل ٢٤٧
مع سيد قطب في تحليل نفسية الرجل ٢٤٧
ومع الإمام الرازي في لطائفه البيانية ٢٤٩
بين هذا الرجل وبين صاحب موسى ٢٥٢

الوصف بالرجولة للمدح والتعظيم ٢٥٤
حكمة أخرى من تنكير الرجل ٢٥٥
آمنت بربكم فاسمعون ٢٥٦
ماذا جرى للرجل بعد إيمانه؟ ٢٥٨
قيل ادخل الجنة ٢٥٩
قال: يا ليت قومي يعلمون ٢٦٠
إهلاك أهل القرية ٢٦١
يا حسرة على العباد ٢٦٤

(٨) قصّة أصحاب الأخـدود ٢٦٧
إشارات سورة البروج ٢٦٩
لفتات من الآيات ٢٦٩
القَسَم في السورة ٢٧٠
من صفات الطواغيت ٢٧٢
الشهود في سورة البروج ٢٧٣
ذنب المؤمنين عندهم ٢٧٣
نقمة الكفار على المؤمنين ٢٧٥
معنى تلك النقمة ونتائجها ٢٧٦
ثم لم يتوبوا ٢٧٩
أين حريق من حريق؟ ٢٨٠
الفوز الكبير للمؤمنين ٢٨١
قصة أصحاب الأخدود في الحديث الصحيـح ٢٨٣
القصة في رواية ابن إسحاق ٢٨٦
تعليق على رواية ابن إسحاق ٢٨٩
هي أخاديد وليست أخدوداً ٢٩٠
نظرات في رواية الإمام مسلم للقصة ٢٩١
من المعالم: هذا هو الطريق ٣١٣
نص كلام سيد قطب ٣١٤
الخاتمة ٣٢٧